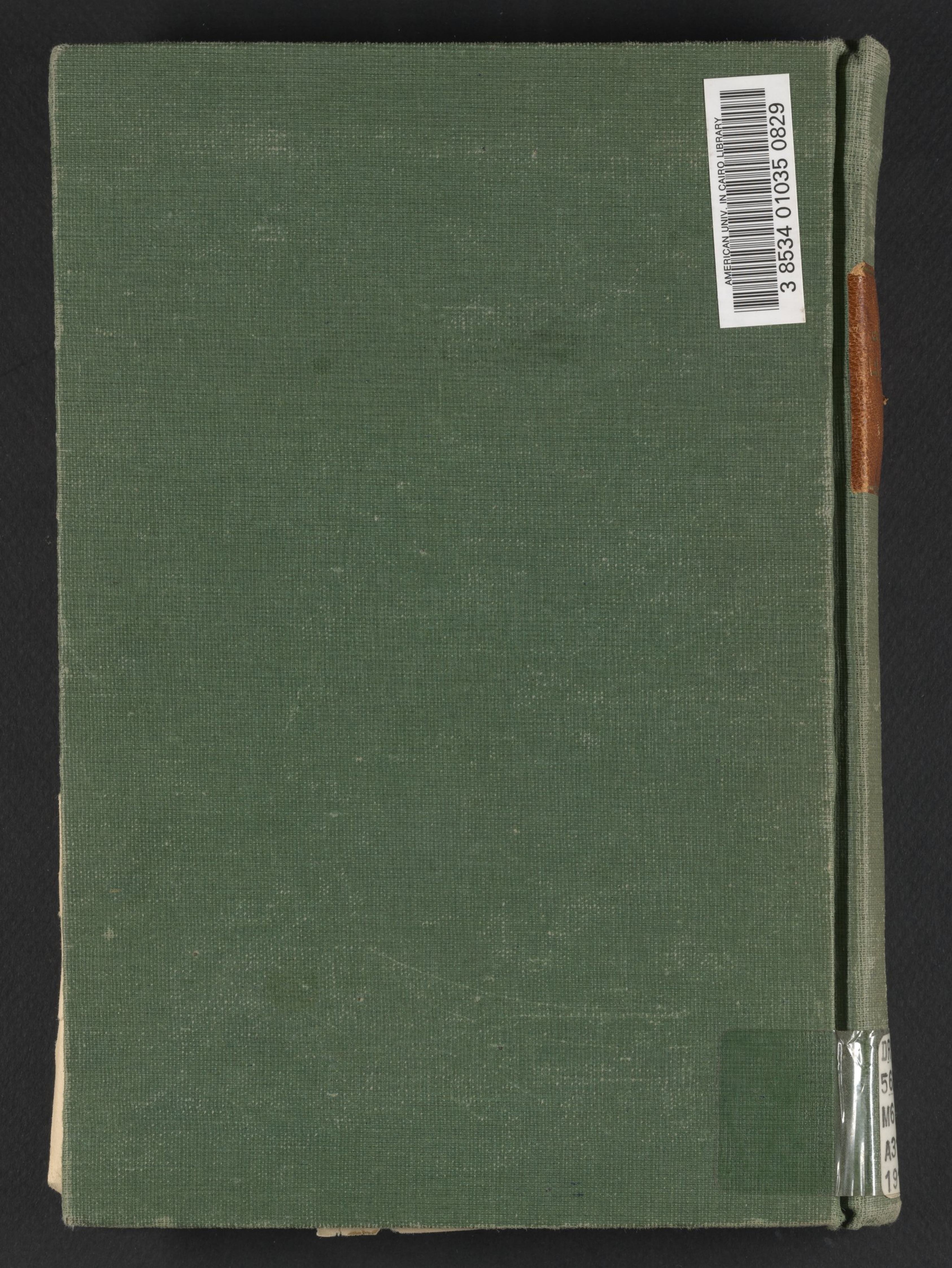
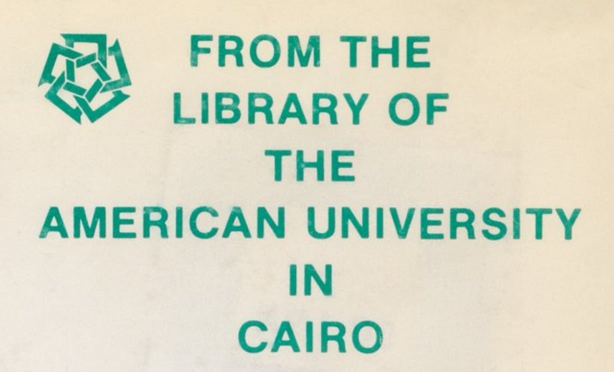
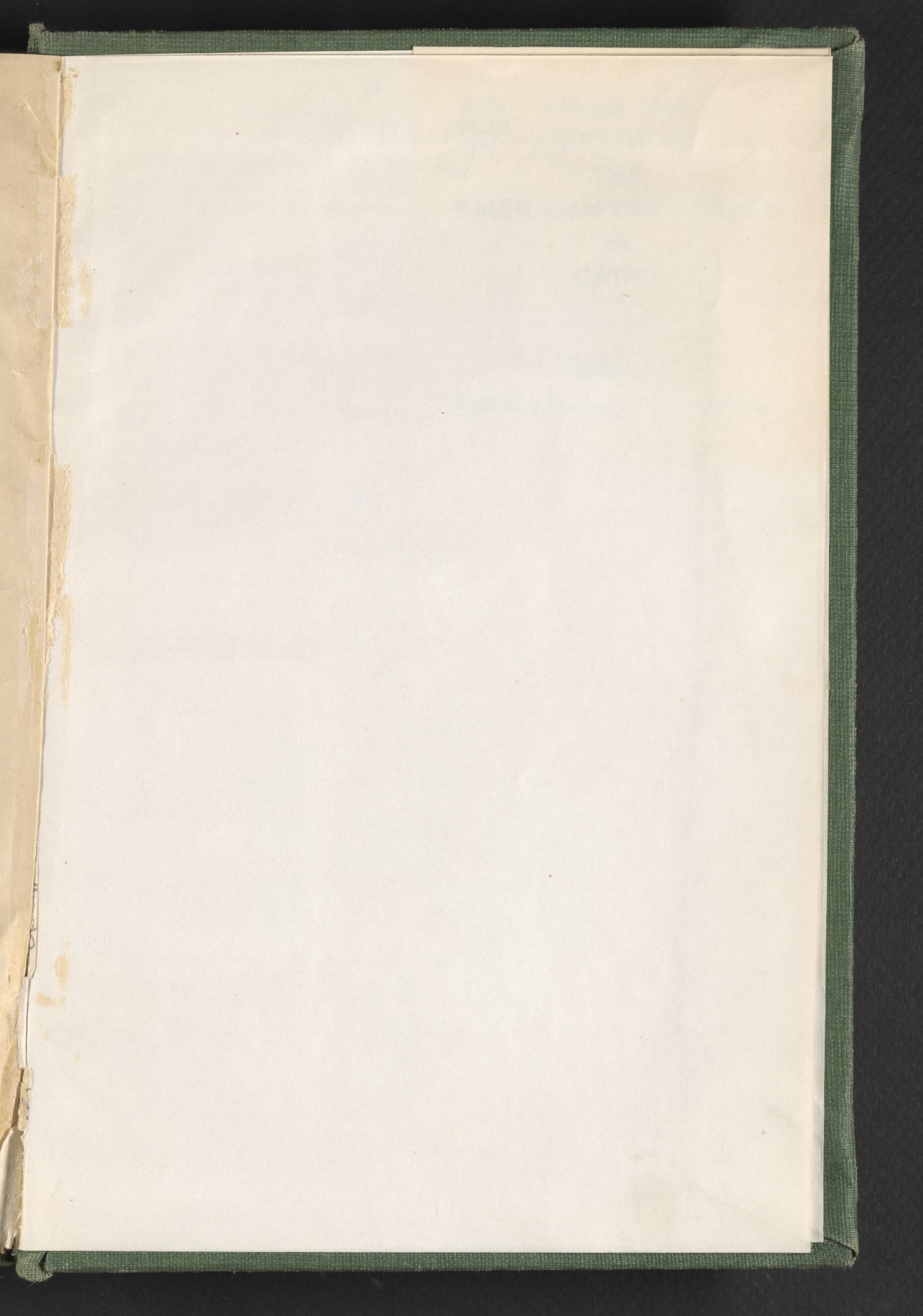
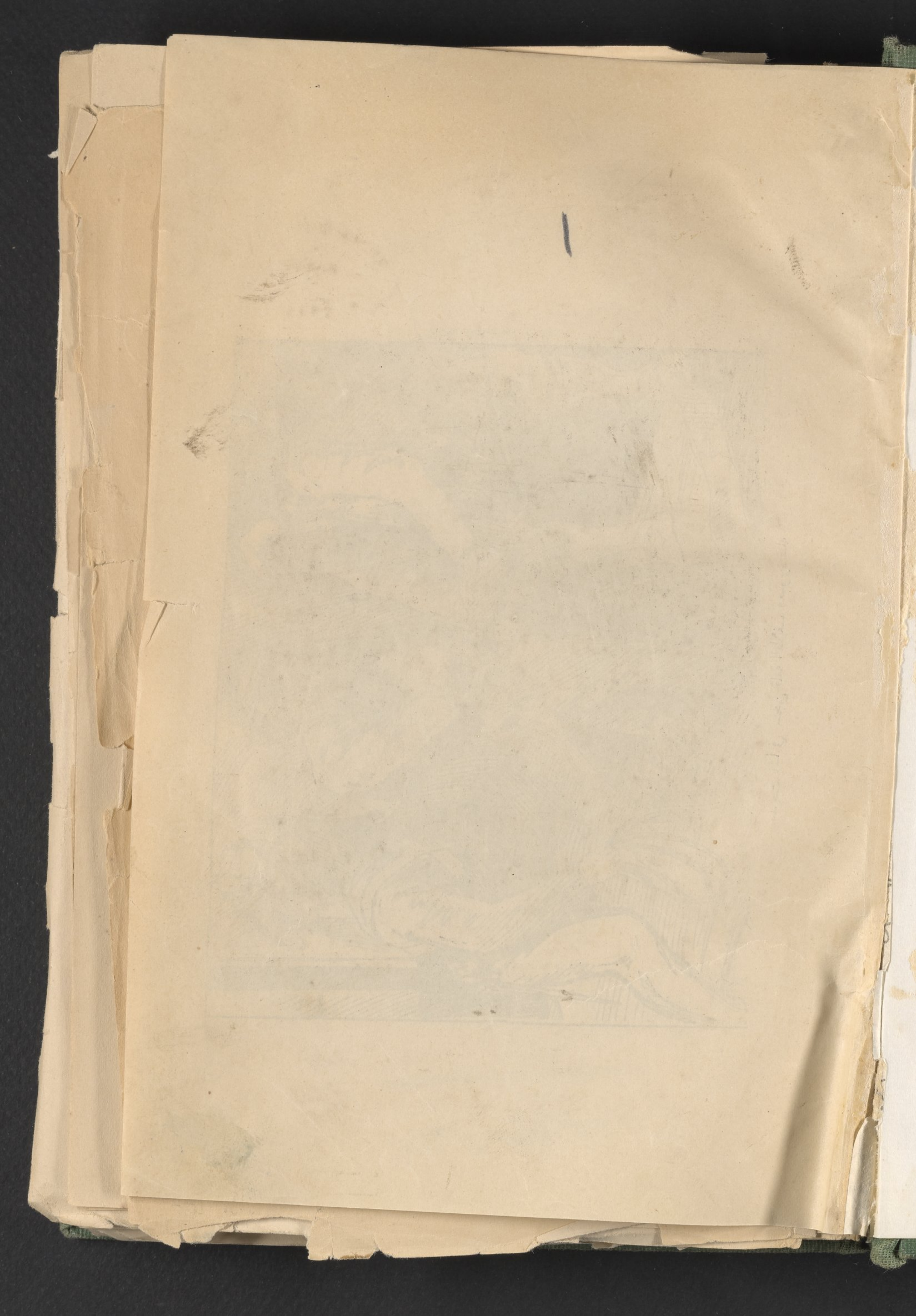
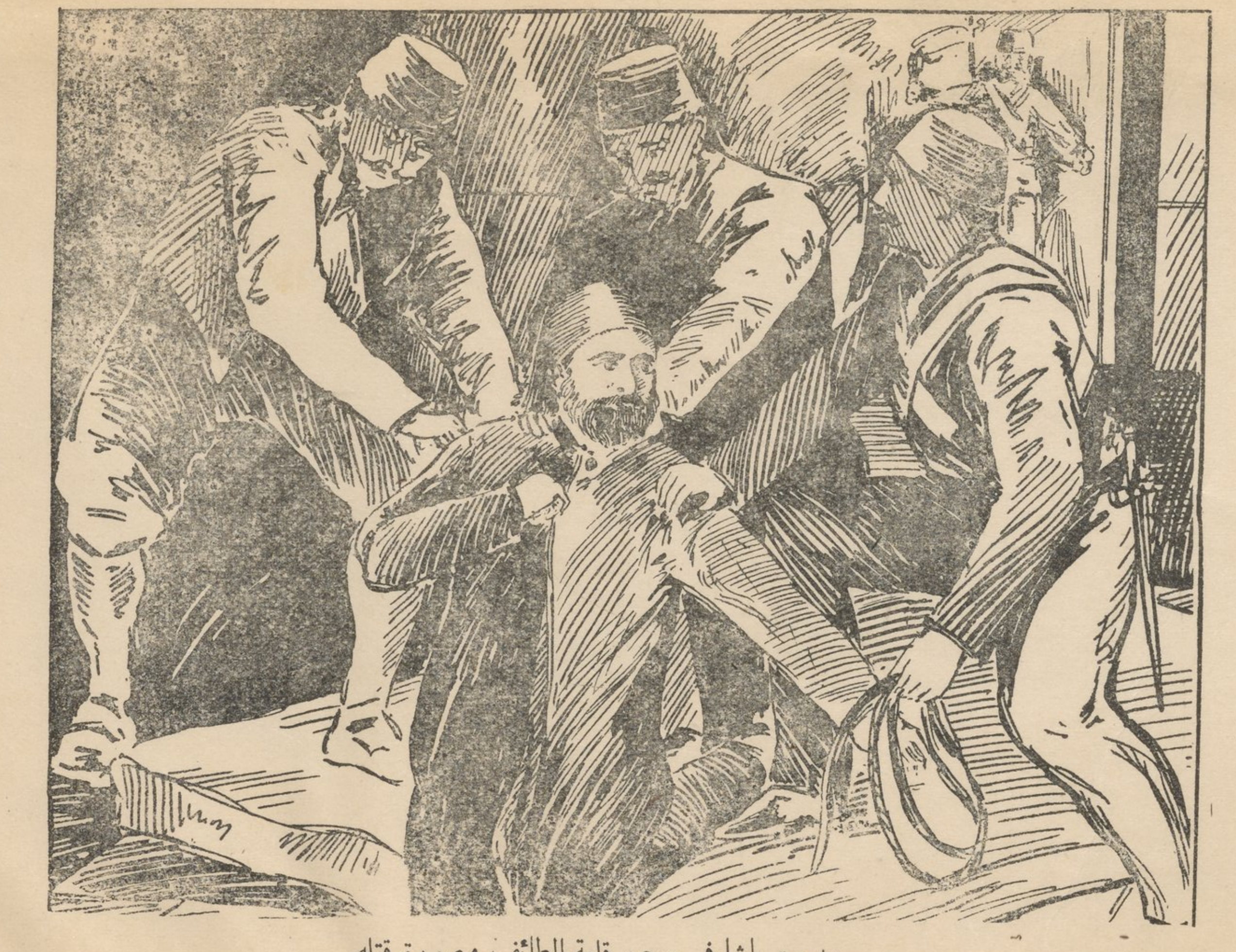

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01035 0829

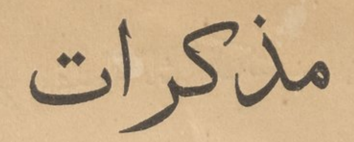








مدحت باشا في سجن قلعة الطائف وصورة قتله



مذكرات

مدحت باشا

تعريب

يوسف كمال بك حتاته
من موظفي نظارة المعارف العثمانية

طبعت على نفقة امين هندية بمصر

﴿ الطبعة الاولى ﴾

مطبعة هندية بمصر

مقدمة ناشر الكتاب

قال علي حيدر بك نجل المرحوم مدحت باشا وناشر الكتاب في مقدمة الجزء الاول منه ما ستأتي ترجمته بالحرف الواحد

﴿ بعض كلمات ﴾

أقدم الى أبناء وطني في يوم عيدنا الملى أثر والدي وقد ذكروه بعض الذكر أو لم يذكروه ليكون عبرة لهم

لما تمايل الوطن الى السقوط في دركات الحضيض لفقدان العدل وسوء الادارة حاول تخليصه بتأسيس حكومة الاخوة والمساواة فجاهد ٤٥ سنة الى أن أفنى حياته وسكن لحده

هذا الكتاب هو أول خطوة أخطوها لاثبات براءته التي سأسعى لتحقيقها رسمياً كتب والدي هذا الاثر في قلعة الطائف امام الف مشكل وهو محاط بالجواسيس فكان يكتب السطر او السطرين ويترك الكتابة اذا سمع وقع قدم او صوت انسان

كتبه وليس معه رفيق يستشيره او كتاب يلجأ اليه ورغماً عن فقدان كل الوسائط اللازمة لكتابة التواريخ خدم به وطنه أيضاً في أواخر أيامه وأودعه وقائع حياته السياسية والادارية وبرأ نفسه من الحكم الذي ألصقه به الملك المستبد واعوانه الاراذل الجبناء وكان قد أرسل قسماً من هذا الاثر الى عائلته في ازمير فحفظته عندي كتذكار مقدس واستخرجت منه الكتاب الذي قد نشرته في أوربا وعدد صفحاته (١٤٣) وزدت عليه بعض المواد المأخوذة من غيره

وكان رحمه الله قد صرف النظر عن ارسال متمماته لانقطاع الرسائل المنبئة بوصول ما بعث به من مقدماته ومع كل ذلك فقد رأى وجوب ايجاد نسخ متعددة منه فاستكتب خير الله أفندي نسختين وحفظ النسخة الاصلية في بعض خبايا

السجن ولكنه أخرجها قبل قتله بليلة لسبب لا أعلمه فأخذها الجلادون ولعلهم أرسلوها الى عبد الحميد وأرسلت احدى النسخ المكتوبة بخط خير الله افندي الى كمال أفندي شيخ تكية (بلاط) بواسطة طوغلهجي زاده مصطفى أفندي فلم يسلمها الاول الى الثاني لليوم وسلمت الصورة الثانية الى وصفي أفندي مدير أوراق الطائف بواسطة فخري بك فوضعها في صندوق من الحديد ودفنها الى يوم اعلان الدستور

أنشر اليوم أثراً كتب بهمة عالية وحفظ بشجاعة نادرة . أنشر منه اليوم (تبصرة وعبرة) وأذيله بملحق فمن المحررات المرسلة الى عائلته يعلم القارئ ما قاساه المرحوم في سجنه وقد أضفنا الى هذا القسم ما التقطناه من أفواه رفاقه الذين لايزالون في قيد الحياة

اعتمدنا في تفصيل مسألة خنقه على رسالة لرفيقه في سجنه خير الله أفندي (شيخ الاسلام الذي اصدر فتوى خلع عبد العزيز) وعلى أقوال المابينجي الثاني للسلطان عبد العزيز الذي قد رافق الفقيد وعايشه في سجنه وخلص من الاسر وعاد بعد اعلان الدستور

اليوم أنشر أثر رجل قد خنق بأمر السلطان عبد الحميد في غيابة سجن الطائف لاعيد ذكره المنسي بين محافل سرور الشعب . وأشرك روحه في فرح الامة التي كان يحبها ويفديها بالنفس والنفيس

في ١٠ تموز سنة ١٣٢٥ علي حيدر مدحت

مقدمة مدحت باشا

قال المرحوم عن نفسه في مقدمة كتابه المكتوب بخط يده

طلب الكثيرون من محبي الوقوف على نشأة مدحت باشا ترجمته فنشرها مراراً باللغتين التركية والعربية ولكنها لم تكن وافية لان قسما منها كتب عن أحوال سنة ١٢٨٢ والقسم الثاني كتب عن أحوال سنة ١٢٩٠ على ان خدمات مدحت باشا المشهورة قد ابتدأت بعد ذلك الزمان وخصوصاً سنة ١٢٩٣ أي من

خلع السلطان عبد العزيز الى سنة ١٢٩٩ ففيما بين هذين التاريخين تنحصر أهمية صحائف أحواله ولذلك قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة هذه الاسطر فلبى طلبهم وكتب ترجمته من يوم ولادته سنة ١٢٣٨ الى سنة ١٢٩٨ وضمن هذه الترجمة وقائع الدولة السياسية وسمي الكتاب المحتوي على التفصيلات الشامل لاعظم الوقائع السياسية تبصرة وعبرة

فالوقائع المسطورة في هذا الكتاب يعرفها الواقفون على حركاته وأحواله وهم الى اليوم في قيد الحياة والاوراق الرسمية الموجودة الى يومنا في سجلات الحكومة تثبت ما له من الايادي في خدماته المشهورة التي قد خدم بها الحكومة ٤٥ سنة بلا فاصلة فمن اشتبه في بعض محتويات هذا الكتاب فليراجع الاوراق الرسمية ليظهر له الحق

وهنا مسألة يجب النظر اليها وهي ان ما كتب في السجن لم يحتو على النمر الرسمية والتواريخ بالضبط لان الاوراق الرسمية كانت اذ ذاك بعيدة عن الكاتب وليت الخطب قد بقي عند هذا الحد فقد كانت الكتب الدينية وأمثالها ممنوعة عنه وعن رفاقه وكانت مخابرة أولادهم وعائلاتهم ممنوعة أيضاً فضلاً عن التضييق والتعذيب فليعذر القارئ اذا وقف على بعض الخطأ والقصور

أوائل حياة مدحت باشا

مدحت باشا هو ابن القاضي الحاج حافظ محمد أشرف وحفيد الروسجقلى الحاج علي افندي . ولد في الاستانة في شهر صفر الخير سنة ١٢٣٨ وسماه والده احمد شفيق وحفظ القرآن وهو في العاشرة وصار اسمه لاجل ذلك حافظ شفيق وفي سنة ١٢٤٩ في أيام ولاية حسين باشا لودين عين والده قاضياً لها فتوجه مع والديه اليها وعادوا منها سنة ١٢٥٠ وقد تعلم حافظ شفيق مبادئ الانشاء فأدخله عاكف باشا رئيس الكتاب وناظر الخارجية الى الديوان الهمايوني فتعلم الخط الديواني المخصوص بهذا القلم في ستة أشهر وكانت العادة جارية بتوسيم الذين يتخرجون من هذا القلم باسم خاص فسمي حافظ شفيق باسم مدحت ولما لم يكن بين رفاقه من

يشاركه في هذا الاسم صار اسمه الجديد قائماً مقام القديم فكان ينادي ويذكر به

وفي سنة ١٢٥١ عين والده قاضياً لقضاء (لوفجه) ورافقته عائلته وتوجه معه ابنه مدحت الى مقر وظيفته و بعد سنة عاد مع والديه أيضاً وكان قد اشتغل بالعلوم العربية في ودين وفي لوفجه وصار اهلاً لتحصيلها في الجوامع الشريفة فكان يقضي بعض أوقاته في أحد أقلام الحكومة ويصرف قسما منها في جامع الفاتح لتحصيل اللغتين الفارسية والعربية فلم يفارق حلقة تدريس العالم الطائر الصيت الطويرانلى محمد افندي ولا الزغرەلى شريف افندي ولا الشيخ محمد افندي وامثالهم فأتقن النحو والمنطق والمعاني والفقه والحكمة بفضل هؤلاء الاماجد وأتقن الفارسية بواسطة أساتذته كتخدا زاده ومراد ملا ولما أنشئت مدرسة (عرفانية) وارسلت اليها الحكومة بعض اذكياء الشبان من الباب العالي كان بينهم مدحت افندي ايضاً سنة ١٢٥٤ ولكنه رأى ان الذين يتخرجون على اساتذة هذه المدرسة لا يكونون من انداده ففارقها وواظب على الدرس ولم يفارق حلقة تدريس الخوجه حسام الدين افندى الى سنة ١٢٥٧

وفي كل هذه المدة لم يترك مدحت افندى ملازمة احد اقلام الحكومة وفي سنة ١٢٥٦ نقل الى قلم مكتوبجي الصدارة وتحصل على مرتب زهيد فالجأته الضرورة الى اختيار وظيفة خارج الاستانة وحصل له مطلوبه في سنة ١٢٥٨ اذ عين رفيقاً لكاتب تحريرات الشام بمرتب ٢٥٠٠ قرش و بقي في هذه الوظيفة وفي صيدا سنتين ونصف سنة وعاد الى الاستانة وقضى فيها اشهراً وفي سنة ١٢٦١ عين كاتباً لديوان سامي باشا بولاية قونيه وفي سنة ١٢٦٣ توجه مع سامي باشا ايضاً الى ولاية قسطمونى وفي سنة ١٢٦٤ عاد الى الاستانة وتزوج

وكانت رتب الدولة في ذاك الوقت ذات اعتبار وقيمة فحصل المترجم في سنة ٥٩ على رتبة خوجه وعلى الرتبة الرابعة بعدها بسنة وتحصل على الثالثة بعد هذه ايضاً و بعد عودته من قسطمونى لم يفارق قلم مكتوبجي الصدارة فنقل الى دائرة المضابط التابعة لمجلس الوالا لان رئيس المجلس رفعت باشا عرف له فضله سنة ١٢٦٥ و بعد

مدة قليلة نال الرتبة الثانية وعين مميزاً للقلم (أي في سنة ١٢٦٦) وفي سنة ١٢٦٧ نال رتبة المتمايز وعين رئيساً للخلفاء

وفي هذه الاثناء حصل خلاف بين ابن الجزائرلي مقرديش والصراف ميثاق بسبب احتكار جمارك الشام وحلب وملحقاتهما وسرى سوء تأثير الخلاف الى الخارج وعظمت أهميته وتأخر للحكومة مبلغ خمسين الف كيساً من النقود فتوجه مدحت افندي الى تلك الاصقاع لكشف أسرار المسألة وللاشراف على اعمال مشير فيلق بلاد العرب محمد باشا القبرصلي والوقوف على احواله التى كانت تروى غير خالية من المبالغة فتوجه الى وظيفته و بعد ستة اشهر عاد بعد ان استرد مبلغ ألف وار بعمائة كيساً من مال الحكومة المسلوب في مسألة احتكار الجمارك واظهر بتحقيقاته ان الصراف ميثاق قد سرق خمسة آلاف كيساً وأثبت ايضاً ان المشير محمد باشا قد ارتكب خطأ لا يغفر في مسألة الدروز فعزلته الحكومة

وقد قدر نظار الدولة خدمات مدحت حق قدرها واثنى عليه الصدر الاعظم رشيد باشا وفي سنة ٦٩ عين المرحوم رشيد باشا مدحت لرئاسة مجلس الوالا فأثبت في هذه الوظيفة كفاءته وحبذه رشيد باشا وعالي باشا ورشدي باشا وأمثالهم من أقطاب الدولة ووزرائها فكان الوزير منهم يدعوه لكتابة خلاصة مذاكرات اللجان التي تجتمع تحت رئاسته ولماحضر البرنس (منجيقوف) الى الاستانة لحل مسألة (القريم) كان مدحت افندي حاضراً لكتابة الاتفاقات بمنزل رفعت باشا ناظر الخارجية على ان العادة قد جرت ان يكتب في مثل هذه الظروف احد كتاب قلم (الامدى)

ولما انقسمت امور مجلس الوالا الكتابية في زمن رياسة شكيب باشا وجهت الى مدحت افندي الرتبة الاولى وعين كاتباً ثانياً لقسم الاناطول وفي سنة ١٢٧٠ تولى مهام الصدارة محمد باشا القبرصلي وكان حاقدا على مدحت افندي لتسببه في عزله من مشيرية بلاد العرب بلائحته المعلومة فأراد محمد باشا الانتقام وصمم على

اخراجه من خدمة الحكومة بعد اثبات عجزه عن القيام باعباء وظيفته وكانت عصابات الاشقياء قدملأت ولايات الروميلي وكثر تعديها على الاهلين فرأى الباب العالي وجوب ارسال رجل مدبر حازم اليه فاختار الصدر الاعظم مدحت افندي واعطاه سلطة تامة واستصدر ارادة سنية قاضية بتوجهه الى البلقان وكانت نية الصدر الاعظم معلومة ولكن لا سبيل الى عدم اطاعته ولذا قد توجه مدحت افندي الى مقر وظيفته الجديدة في شهر نيسان سنة ١٢٧١ واستصحب معه قوة من العساكر وقضى ستة اشهر في اكنان الجبال وقبض على ٢٨٠ من الاشقياء وأثبت ادانة اربعة منهم واعدمهم بجهات (اسلميه) و (جمعه) و (شمنى) بلا اذن من حكومة الاستانة لان الاوامر المعطاة له قبل السفر قد خولت له هذا الحق واستصدر حكماً بحبس ٨٠ وارسلهم الى سجن الاستانة وعامل الباقين بما يحتمه القانون فعاد الامن الى نصابه في الروميلي وانقطعت حجة الاجانب الذين كانوا يتخذون اختلال الامن في البلقان وسيلة للقيل والقال وثبت لرجال الاستانة ان مدحت افندي قد اعاد السكينة الى ربوع تلك الولايات وكان الصدراذ ذاك قد عزل وقام مقامه رشيد باشا وعين عالي باشا ايضا لنظارة الخارجية فعاد مدحت افندي من الروميلي وقدم لائحة عن احوالها فأحلها الباب العالي محل الاعتبار وعين في كل ولاية مجلس أحكام وحاول تعيين المترجم بوظيفة في الروميلي فحال بينه و بين تنفيذ هذا الغرض تغير احوال البلقان وتبدل الوكلاء

وحصلت زلازل في الولايات فأصابت الكثيرين بأضرار جسيمة فأرسل رشيد باشا مدحت افندي الى ولاية بروسه للنظر فيما لحق اهلها من الخطوب و بعد عودته كانت الحكومة قد وحدت امور تحرير مجلس الوالا فعينت مدحت افندى كاتبا ثانياً للمجلس

توجه رشيد باشا الى مصر بعد عزله وقام مقامه عالي باشا وتوجه الاخير الى اوروبا للنظر في شؤون المسألة الحربية ووكل عنه محمد باشا القبرصلي ووجه همه لمحاربة مدحت افندي فأعان خصومه وأصغى الى وشاياتهم وعزم على ابعاده عن الباب

العالي منتهزا فرصة سفر هؤلاء وغياب كامل باشا وأخذ يعزي اليه ما هو منه براء في المجالس الرسمية ولا مانع من ذكر ما عزاه الرجل الى مدحت افندي فقدادعى عليه انه كان يتداخل في امر الاعشار ويبيح لاقاربه اخذها ويشترك معهم وكان هذا الامر فاشيا بين الموظفين فلم يلاحظ على مدحت افندى وحده ألا أنه قد ربح بعض الربح من غلاء الاسعار ام لانه قد تعرض لتجارة مباحة لم تمنعها الحكومة الا في سنة ١٢٦٩ وقد امتنع اذ ذاك مدحت افندى عن التعرض لالتزام الاعشار عملا بأوامر الحكومة و بعد امتناعه ادعى عليه الباشا القبرصلي انه قد اخذ اعشار جهة (الباالقخانة) التابعة لدار السعادة وأذاع في طول الاستانة وعرضها ان مدحت افندى يلتزم الاعشار وشكل مجلساً من الوكلاء (النظار) فاجتمع المجلس وحاكم مدحت افندي

احضر المجلس ملتزم الاعشار وقرأ اوراقه ليقف على حقيقة الشركة فاتضح له ان مدحت افندى برئ مما عزى اليه وثبت له ايضاً انه لم يتداخل في شئ من امور الاعشار واضطر المجلس اخيراً الى معرفة مذيع هذه الاشاعة فأحضر بعض الصيارف وسألهم فتلعثم بعضهم ولم يقدر على ابداء كلمة

وادعى بعضهم انه سمع هذه الاشاعة ولم يذكر الراوى والخلاصة ان التحقيقات قد استمرت يومين في مجلس الوكلاء فثبت انها مفتراة وفي اليوم الثالث حضر خالد بك أحد الملتزمين وقال بعض كلمات ضد مدحت أفندى و بعد هنيهة قال «والله لقد كذبت فيما قلته ولم أقل كلمة صحيحة وقدطلب مني بعضهم عزوهذه المفتريات الى الرجل البرئ» واعترف أمام المجلس انه قد حضر لافتراء الكذب فأظهر الحاضرون تأسفهم وغيظهم وتفرق المجلس بعد ان أصدر حكمه علي خالد بك لارتكابه شهادة الزور وأرسله الى السجن

و بعد فترة من الزمن عاد رشيد باشا وكامل باشا وعالى باشا واشتغلوا بوظائفهم وعرفوا لمدحت افندى قدره وفي سنة ١٢٦٣ انتهت المسألة الحربية واشتغلت الوزارة بالاصلاحات الداخلية

ومن هذا التاريخ كثرت الاشاعات من سوء سيرة الولاة فرأى الوزراء وجوب تحقيق تلك الاذاعات وأرسلوا الازميرلي امين افندي الى حلب لتحقيق احوال واليها وأرسلوا مدحت افندي لتحقيق ما ارتكبه ميرزا سعيد باشا والي سلسترة ومعمر باشا والي ودين وكلفوا مدحت افندي ايضاً بتحقيق حوادث البلغار في طرنوى واصلاح شؤونهم

اما ميرزا سعيد باشا فقد ظهرت فظائعه واشتهرت قبائحه في انحاء الولاية وتحدث الناس بافعاله وافعال الدفتر دار وثبتت تلك الفضائح بعد التحقيق فعزل وعزل أعوانه وقدمت اوراقهم الى مرجعها وتوجه مدحت افندي الى طرنوي وحل مشكلة البلغار وتوجه الى ودين وعرف ان معمر باشا هو المسبب لسوء احوال الولاية وان الافسادات الحاصلة فى جهات (عدلية) و(بلغرادجق) و(لوم) قد حصلت بسبب دسائس البلغار ولم يبق للحكومة نفوذ بل لم يبق لها نفر من انفار الضابطة في جهة (عدلية) فتوجه مدحت افندي الى هذه البلدة وتجول في القرى التابعة لها ووفق لاعادة الموظفين الى وظائفهم وارجاع الامن الى نصابه

﴿ سياحت مدحت افندي الى اوربا ﴾

(وأسبابها)

قام مدحت افندي بوظيفته الاخيرة خير قيام وعاد الى دار السعادة وصدق مجلسا الوالا والوزراء على الاوراق التي أرسلها قبل عودته وقدر المجلسان خدماته وصداقته وكان ينتظر المكافأة ولكن ميرزا سعيد باشا المعزول من ولاية سلستره وقائمقامها ابراهيم باشا كانا من رجال السراى فامتعضوا من مدحت افندي و رفعوا أمرهم الى السلطان عبد المجيد فلم يقبل المابين تحقيقات مدحت افندي وردها وأرسل سعيد بك احد رجال الدولة المدعو فخري بك لاعادة التحقيق واعطاه مرتباً ضخماً ومصاريف سفر لا تعطى لمثله ولكن فخري بك قد توجه وعاد ولم ينقص حرفاً واحداً مما كتبه مدحت افندي ففعل الباب العالي ما كان قد صمم عليه بأعادة تحقيقات مدحت افندي وظهر سر العبارة الآتية (الحق يعلو ولا يعلى عليه) ولكن

حصول ما حصل قد أثر في نشاط مدحت افندي وثبط همته وتوفى المرحوم رشيد باشا فتأثر مدحت افندي لوفاته ايضاً وعزم على السياحة في اوربا فاستحصل على رخصة وتوجه اليها سنة ٧٤

كان مركز حكومتنا يقضي على القائمين باعباء وظائفها بمعرفة اللغة الفرنسية واذا كان الموظف في الباب العالي مشتغلا بالسياسة تحتمت عليه دراستها ولما كان مدحت افندي في زمن الدراسة كان الناس لا يعلقون على اللغة الفرنسية كبير أهمية ولذا فانه لم يتعلم هذه اللغة ولم يعرف كلمة واحدة من مفرداتها الى أن وصل الى الخامسة والثلاثين من عمره و بعد مسألة (القريم) رأى مدحت افندي وجوب تعلم تلك اللغة فكان يدرسها و يشتغل بوظيفته في الباب العالي وساعدته السياحة على ترقية هذا اللسان

أقام مدحت افندي في اوربا ستة اشهر زار في غضونها باريس ولوندره وفينا و بلجيكا ووقف على اسرار ترقي الفرنجة وتقدمهم وعاد الى الاستانة وفي سنة ٧٥ ترقى الى رئاسة مجلس الوالا

﴿ ترقي مدحت افندي الى رتبة الوزارة وتعيينه والياً لولاية نيش ﴾

و بعد مدة عاد محمد باشا القبرصلي الى مركز الصدارة ولكنه لم يشتغل في هذه المرة بمعاكسة مدحت افندي بل سالمه ووثق به واستعان بذكائه وكانت الروسيا تدس الدسائس في بلاد البلغار فتوجه الصدر الاعظم بنفسه الى (روسجق)و(ودين) و(نيش) وعزل بعض الموظفين لسوء سيرتهم وعين رؤوف باشا زاده عثمان باشا والياً لولاية نيش وكانت الدسائس تتزايد والامور تزيد تعقيداً فاختار الباشا مدحت افندي لهذه المهمة وطلب من السلطان عبد المجيد توجيه رتبة الوزارة اليه فلبى السلطان طلبه ونال المترجم رتبة الوزارة وعين والياً لولاية (نيش) سنة ٧٧

﴿ ثوران الافكار العمومية ﴾

﴿ صدارة رشدي باشا ـ خلع عبد العزيز وجلوس السلطان مراد ﴾

توالت على الدولة الغوائل الخارجية والداخلية وانواع الظلم والجور وكثر الضغط

على الامة وقال الناس ان نديم باشا الوزير الاكبر هو سبب كل المصائب ولكنهم
كانوا يجزمون بأن مثل هـذه الفظائع لا يتجاسر اي وزير عليها الا برأي السلطان
ورضاه خصوصاً وانه قد ظهرت مثالب الرجل في صدارته الاولى ورغماً من ظهورها
اعيد الى منصب الصدارة وكان السلطان يعضده فاختلفت الاقوال وفكر الناس
في وجوب خلع السلطان للخلاص من مخالب الاستبداد فكنت اذا رأيت خمسة من
أفراد الامة مجتمعين وذكرت لهم احوال الحكومة وما صارت اليـه اظهروا لك
اليأس والحيرة وقالوا ان دوام هذا الحال سيودي بحياة الشعب ويوقع الحكومة فى
ما لا تحمد عقباه ولم يتجاسر احد على تحذير عبد العزيز ولو خاطبه مخاطب فى تلك
الشؤون فانه لا يصغى الى نصح النصحاء ولذلك اتحدت الافكار على وجوب
خلعه وانتشرت هـذه الفكرة بين صغار موظفي الحكومة وكان الناس قد أصيبوا
بأزمة مالية بسبب مسألة السهوم العموميـة وتضاعفت احقادهم لان محمود نديم باشا
كان يعمل باشارة الجنرال (ايغناتيف) وشعروا ايضاً بسعي الحكومة فى عقد قرض
قدره ٤ ملايين من الليرات وفضلا عن كل هذا وذاك فقد كانت عيوب الرؤساء
ظاهرة وفظائعهـم شائعة فاشتد غيظ الناس وغلت مراجل صـدورهم بظهور مسألة
الهرسك التي لم تكن سوى نتيجة اغفال الحكومة لمصالح الامة وزاد حنقهم ايضاً
حينما سمعوا بامتداد الثورة الى (فلبه) و(ادرنه) وامتناع الحكومة عن ارسال مقدار
من عساكرها لاطفائها وعزلها عدداً من الموظفين لاشتغالهم بتسكين الثورة وانتهاز
البلغاريين فرصـة امتناعها عن ذلك وذبحهم المسلمين فتأثر العموم من جراء فظائع
البلغار وكان تلامذة جامع الفاتح من سكان الروميلي قد حضرت الى عدد منهـم
مكاتيب تنبئهم بان البلغار قد قتلوا أباء بعضهم واخوة فريق منهم واخوال الفريق
الآخر وان اموال بعضهـم قد نهبت فتركوا الجامع وعرضوا امرهم على المابين فلم
يحظوا بجواب فظهر لهم ان للسلطان ضلعاً في هذه المصائب وقرروا فيما بينهم وجوب
الذهاب الى الباب العالي لمقابلة الصدر الاعظم وارسلوا قسما منهم الى باب المشيخة

لمقابلة شيخ الاسلام وكان محمود نديم يشتغل بانهاء مسألة القرض فلما رأى تألب الجموع لجأ الى الفرار

وتسبب عن هذه الحادثة عزل نديم وعزل حسن افندي شيخ الاسلام فخلف الاول رشدي باشا الكبير وخلف الثاني خير الله افندي وصدرت ارادة السلطان ايضاً قاضية باحضار حسين عوني باشا من مدينة بروسه وتعيينه بوظيفة (سرعسكر) وتعيين مدحت باشا في الوزارة بوظيفة عضو في المجالس العالية

وكان يغلب على الظن أن تغيير الوزارة يسكن غليان الرأي العام ولكن السلطان عبد العزيز في السنين الثلاث الاخيرة لم يسمع نصيحة مخلص وكان يفعل ما يوحيه اليه ضميره ويأخذ المبالغ الطائلة من مال الحكومة بلا وازع وكانت كبرياؤه تضطره الى عدم ترك القديم

اما محمود نديم باشا فقد استحوذ على القناطير المقنطرة من الاموال واستمال بها رجال السراى ووصل نفوذه الى الحرم فكان السلطان لا يثق بغيره ولكنه قد اضطر بحكم الضرورة الى عزله لذر الرماد في عين الامة مصمماً على اعادته الى منصبه في اول فرصة

عرف رجال الحركة الوطنية ان محمودا سيعود الى الصدارة وينتقم لنفسه منهم لا سيما بعد ان تظاهر الجنرال (ايغناتيف) بالخوف على حياته واحضر مائة رجل من رجال الجبل الاسود شاكي السلاح لحراسة السفارة مدعياً ان الفوضى قد ضربت أطنابها في الاستانة بعد عزل نديم وأشاع بواسطة أعوانه في جهات (غلطه) و (بك أوغلي) و (بيوك چارچو) اشاعة لا نصيب لها من الصحة وهي ان المسلمين سيقتلون المسيحيين ولم يكن غرضه من مفترياته غير القاء الرعب في قلوب الاهالي ولكن تذمر أهل الاستانة كان يزداد كلما رأوا انحياز سفير الروسيا الى نديم وزاد حقدهم بعد ما أذاع أحد أعوان السفير ان الثورة قد بدت طلائعها فاغلق النصارى حوانيتهم. وصمم الناس على خلع عبد العزيز اذ علموا ان الخلاص من هذه الاحوال لا يتم الا بخلعه

على هذا النمط انتشرت اشاعة عزم الامة على خلع الرجل ووصل صدى ترديدها الى السراى فهاله أمرها وأرسلت والدته جوهر أغا الى مدحت باشا تطلب منه ابداء رأيه فيما يجب عمله لتسكين سورة غضب الشعب فأسرع بكتابة لائحة ضمنها الاسباب التي أوقعت الدولة في مآزق الازمات وختمها بوجوب اصدار قانون يكفل للامة حق المساواة ويجعل النظار مسؤولين عن أعمالهم لتلافي وقوع الثورة المنتظرة البادية علاماتها من الحركات التي يظهرها أفراد الشعب فلم تؤثر محتويات اللائحة على فكر عبد العزيز و بقيت نتيجتها عقيمة

أما حسين عوني باشا فقد تسبب نديم مرة في نفيه فأعاده السلطان من منفاه وعينه وزيراً للحربية ثم رقاه الى مسند الصدارة ولكن نمائم نديم اضطرت السلطان الى ابعاده عن الاستانة وتعيينه والياً لولاية (بروسه) فامتثل للامر وكان قد لزم الفراش منذ مدة لمرض اعتراه فطلب الاذن بالبقاء الى ان يقوى على السفر فلم يصدر له الاذن واستعملوا القوة في ارساله الى منفاه فكان من الناقمين على عبد العزيز الناظرين الى حالة الحكومة بعين السخط القائلين بوجوب خلعه لتخليص البلاد من براثن استبداده وكان أكثر أقرانه ايضاً قد نالهم شبه ما ناله فاتفقوا على وجوب الخلع

عاد عوني باشا من منفاه (بروسه) ورأى الرأي العام متحمساً فتأهب لانفاذ أمر الخلع وأوقف عبدي باشا ورديف باشا قيصرلى احمد باشا و بعض كبار ضباط العسكرية على نيته

وكان الناس يودون سقوط عبد العزيز و يوافقون على خلعه ولكن الاحوال كانت تحتم وجوب كتم المسألة عن العامة فاتفق رشدي باشا ومدحت باشا وخير الله افندي على احضار ولي العهد في التاسع من جمادى الاولى الى الباب الهمايوني عملاً بالاصول القديمة لاجلاسه على العرش وقبل الموعد بيومين ارسل عبد العزيز رسولاً الى عوني باشا يدعوه للحضور الى سرايه فتنصل ببعض الاعذار وظن ان السلطان

قد وقف على جلية الامر فارسل الرسل ودعا الى محل مصيفه شركاءه غلساً واحضر العساكر لتنفيذ الاوامر اللازم اجراؤها لتنفيذ أمر الخلع

رأينا من اللازم ان يكون اجلاس ولي العهد على عرش أجداده في باب السر عسكرية وفي ليلة الثلاثاء استصحب عوني باشا قيصرلى احمد باشا ورديف باشا وحسن باشا وتوجهوا الى جوار سراى (طولمه باغجه) في وقت الشفق لمقابلة العساكر المحضرة لتنفيذ أوامر الامة اما رشدي باشا فقد توجه معي الى باب السر عسكرية رأساً (الناقل لهذه العبارات هو المرحوم مدحت باشا) وكانت نفوس الافراد تتوق الى التخلص من ربقة الاستعباد فانتشر الخبر بسرعة عجيبة وتألبت الجموع فحضر بعض الموظفين وقسم من الاهالي الى باب السر عسكرية وحضر ايضاً بعض من يعنيهم ذلك الامر قبل ان يصلهم امرنا القاضي بحضورهم فاكتظ ميدان باب السر عسكرية ورحبة بايزيد بوفود الاهالي وصار الناس يهنئ بعضهم بعضاً قبل وصول ولي العهد واعلان خبر جلوسه ومبايعته وعم الفرح واستبشر الجمهور المحتشد بدخول الدولة في عصر جديد بخلاصها من براثن عبد العزيز بلا ثورة و بلا سفك دم

و بينما هم في محافل السرور حضر السلطان الجديد ومعه حسين عوني باشا وتمت بيعته بحضور الملايين وحررت التلغرافات الى اوربا والى الولايات لاخبارها بأمر توليته ونادى المنادون في الاستانة معلنين جلوسه كما جرت بذلك العادات القديمة فأقام الاهالي ورجال الحكومة في الاستانة وفى الولايات الزينات ثلاث ليال ورفعت سفن الدول الاجنبية الرايات وانارت المصابيح ولكن السفن الروسية لم ترفع راياتها الا بعد يومين

واستاء الروس من عزل نديم باشا وزادهم خلع عبد العزيز ضغثاً على ابالة فاجاب امبراطورهم على تلغراف تعيين مراد بتلغراف ارسل منه صورة الى سفارة الروس في الاستانة واخرى الى نظارة الخارجية العثمانية اظهر فيه تأسفه من جرأة قائد على خلع السلطان بقوة الجيش

خلع عبد العزيز لسوء ادارته باتفاق الامة ولم يتعرض احد لشخصه بل بقي

معززاً وكان السلف يسجنون السلطان المخلوع وكنا نعلم ان عناصر الدولة وسكان الولايات المسيحيين وغير المسيحيين غير راضين عنه ولا يتصور عاقل ان فردا او جماعة يقومون بنصرته وكنا نمهد الطريق لاعلان الدستور وهو لا يجيز حبس حرية شخص ولذلك قررنا قبل خلعه تخصيص سراى (بكلر بك) لاقامته واقامة عائلته وقال البعض يجب ان نصرح له ولعائلته بالتوجه الى اوربا اذا اراد ولكن التعجيل بخلعه قبل اليوم المحدد قد اضطرنا الى تأخير تخصيص محل اقامته لاستصدار أمر من خلفه بالنقل في المستقبل واكتفينا باقامته في سراى (طوبقبو) هو وتوابعه

أتممنا امر البيعة في باب السر عسكرية وانتقل السلطان الى سراى (طولمه بغجه) وتبعه النظار واجريت رسوم التبريك المعتاد اجراؤها ورأى السلطان تألب الجموع فحصل له وهم اضطره الى اصدار ارادة سنية قاضية ببقاء النظار فبقيت انا وحسين عوني باشا وخير الله افندي ورشدي باشا ثلاث ليال في السراى امتثالاً لارادة السلطان

وكان مركز باشكتابة المابين يقتضي وجود رجل امين على اسرار الدولة فاتفقنا على تعيين سعد الله بك لهذا المنصب وعينت انا رئيساً لمجلس شورى الدولة

اما محمود نديم باشا فقد تظاهر بالحياد ولزم محل مصيفه ولكن اخلاقه المعلومة كانت تضطره الى دس الدسائس وكان الناس ناقمين عليه فرأينا بعد التشاور وجوب ابعاده عن الاستانة وارساله الى محل يختاره هو لاتقاء نمائمه وحفظ حياته من اهل الاستانة وسألناه فاختار الاقامة في (چشمه) وتوجه اليها

وكتب عبد العزيز الى مراد مكتوب تبريك بخط يده ذكر له فيه رغبته في الانتقال من سراى (طوبقبو) فعرضنا عليه اسماء سرايات مختلفة فاختار من بينها دائرة (فرعية) فصدرت الاوامر الى من يلزم لفرشها واشتغل العمال ليل نهار لاعدادها لاقامته هو ووالدته وأولاده وتوابعهم وعددهم يربو على ٣٠٠ وفي يوم الجمعة تم نقلهم والتحق بعبد العزيز رجال معيته و بقوا في سرايه مدة ولكننا قد اتفقنا على استبدالهم ببعض رجال معية السلطان الجديد لاننا لم نر لزوماً لبقاء رجال

التشريفات والكتاب وغيرهم في معية سلطان مخلوع

﴿ الشروع في اعلان القانون الاساسي وانتحار السلطان عبد العزيز ﴾

لم نقصد بخلع السلطان والدخول في المآزق الحرجة سوى تخليص الدولة من أزمتها واتخاذ مسلك ثابت للادارة والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورى بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها افراد الامة احرارا متساوين وكانت هذه المسألة قد ارتسمت فى فكري حين كنت والياً في (الطونه) فكتبت قانوناً موافقاً لروح العصر وحان وقت العمل به ولكن اعلانه كان يقتضي موافقة اقراني على محتوياته فتباحثنا فى مواده في الليالي التي قضيناها في السراى فقال حسين عوني باشا ان القانون الذي سنعمل به سيخالف هذا القانون فى بعض مواده الاساسية فيجب ان نهمل ذكره في الخط الهمايوني الذي سننشره فا كتفينا بتنزيل مرتبات السراى السلطانية الى ٦٠ ألف ليرا وألحقنا معدن فحم (اركلى) و بقية المعادن والاراضي المسماة بالشفالك الهمايونية بنظارة المالية و باجراء بعض مقدمات الاصلاح ولكن الاساس الذي يجب النظر اليه هو اختلال ادارة الحكومة واذا استمر الحال على هذا المنوال فلا يتم البرء من الداء الا بالشورى التي ينتظرها الناس بفروغ صبر وقد جلس السلطان على تخت اجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية فزاد انتشار فكرة الشورى بين الاحرار وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب اجراؤه لاعلان الشورى

انتهينا من اتعاب حفلات التتويج وتوجه الموظفون الى مناصبهم واشتغل كل بعمله فتغلبت الكبرياء على عبد العزيز وانتحر في يوم الاحد وهو اليوم السادس لخلعه وذلك انه طلب من احد خازنداراته مقراضاً وقطع به شرياني ذراعيه فمات وانتشر خبر انتحاره بين الناس ولكنه لم يصلني الا بعد زمن لانى كنت اقيم في مصيفي وهو بعيد عن الاستانة

كان عبد العزيز يقيم مع والدته ونسائه وجواريه وعددهم يربو على ٣٠٠ وقد انتحر وهم محيطون به ومن العبث ان يتقول احد في مسألة انتحاره ولكننا رأينا ان

نجري ما اعتدنا اجراءه فيما اذا مات احد موتا فجائياً وقررنا باجماع الاراء احضار اطباء السراى السلطانية واطباء سفراء الدول الاجنبية فعاينه تسعة عشر طبيباً ونقلت جثته الى سراى (طوبقبو) اتباعاً للعادة القديمة و بعد غسله ووورى التراب في مدفن السلطان محمود

﴿ مرض السلطان مراد وواقعة حسن الشركسي ﴾

ذكرنا ان السلطان الجديد قد حصل له وهم تسبب عن تألب الجموع التي لم ير مثلها في حياته وظهرت عليه علامات مرض عصبي ولما وصل اليه خبر انتحار عمه اشتد عليه المرض . وفى اليوم الثامن من جلوسه ظهرت عليه علامات تشابه الجنون فاغتم أعضاء البيت المالك ورجال الدولة ولكن لامرد لقدر الله . ولما كانت علة الجنون لا تشابه غيرها من العلل كتمنا أمر مرضه عن الجمهور فلم يعلم به غير الاطباء وأعضاء البيت المالك ومضت مدة خمسة وعشرين يوماً ولم تخف فيها وطأة المرض بل اشتدت وكان حراسه يمشون معه في بستان القصر فرمى نفسه في حوض البستان وانتشر الخبر في الاستانة

تأخرت مصالح الشعب بسبب اشتغالنا بحفلات الجلوس وكانت الفوضى قد ضربت أطنابها في بلاد الروميلي فزادت نارها تأججاً وخالف رؤوف باشا والي كريت النظامات التي سنها المرحوم عالي باشا لادارة الجزيرة فاختل نظام الجزيرة واختلط فيها الحابل بالنابل فاشتغلنا باعادة الامن الى نصابه فى الروميلي وفي الجزيرة ولم يكفنا شغل النهار فكنا نجتمع فى منازلنا وكان النظار قد حضروا الى محل مصيفي في ليلة الاربعاء بعد جلوس السلطان بأسبوعين وبينما نحن نتذاكر في المسألة الكريتية بعد تناول الطعام أنا وخير الله افندي شيخ الاسلام وصفوت باشا وجميع الوكلاء ما عدا الصهر محمود جلال الدين باشا ناظر التجارة اذ دخل علينا المدعو حسن الشركسي أحد ضباط العساكر النظامية الحامل لرتبة (قول أغاسي) وذلك بأنه قد خدع البواب مدعياً انه يريد عرض أمر ذي بال على (سر عسكر باشا) وصوب احد المسدسات التي قد احضرها معه الى معدة حسين عونى باشا ورماه

برصاصتين ولما لم يكن معنا سلاح ندافع به عن أنفسنا التجأ اكثرنا الى الهروب ولكن قيصرلي احمد باشا ناظر البحريه قد حاول القبض على الرجل فجرحه جرحين احدهما في ذراعه والآخر في أذنه فخرج احمد باشا من الحجرة وتبعه القاتل فأغاثه خادمي احمد اغا وقبض على ذراعى القاتل من وراءه فتملص منه ورماه برصاصة في رأسه قضت على حياته

فخف خدام النظار وياورانهم للقبض عليه وكان قد أحضر معه خمسة مسدسات وكان يحسن الرماية فوقف على أعلى سلم وصوب مسدساته فجرح بها خمسة من أفراد العساكر فلم يتجاسر احد على القرب منه وبعد ان قتل القتيل وجرح احمد باشا وخمسة غيره عاد الى الحجرة ورأى راشد باشا وقد أغمى عليه فقام الباشا حين رآه فرماه برصاصة اصابت رأسه وأجهز عليه فذبحه بخنجر كان معه وكان يحاول احراق الحجرة باشعال النار في بابها فحضرت فرقة من العساكر النظامية وقبضت عليه وبينما هى سائرة به رأى شكري بك من حاملي رتبة (قول أغاسي) بنظارة البحريه واحد ياوران الصدارة فاخرج مسدساً كان قد خبأه في حذائه ورماه برصاصة فقتله ايضاً

ولما سئل القاتل عن سبب جنايته قال انه لم يقصد سوى قتل حسين عوني باشا ولكن بقية المقتولين قد صادفوه عرضاً وحاولوا منعه او القبض عليه فاضطر الى قتلهم وتقول الناس في هذه المسألة فقال بعضهم انه قد اراد الاخذ بثأر عبد العزيز وذهب بعضهم الى انه مدفوع بموثرات خارجية والحقيقة هي ان القاتل هو ابن احد بكوات الشراكسة الذين يقطنون الروميلي وهو من أقارب المحظية الثالثة في السراى أو من المنتسبين اليها ولهذه الاسباب اندمج في سلك تلاميذ المكتب العسكري وبعد اتمام الدراسة نال رتبة الملازم وكانت النظامات تقضي بأن الذين يخرجون من المكتب برتبة الملازم ويذهبون الى الفيلق السادس يرقون الى رتبة اليوز باشى فطلب صدور الامر له بالذهاب الى بغداد (مقر الفيلق السادس) ونال رتبة اليوز باشى ولكن قوة انتسابه للسراى دفعته الى محاولة البقاء في الاستانة فحبسه عوني باشا غير ان السراى قد حمته فبقي في الاستانة وبعد مدة قصيرة وعد بالذهاب الى بغداد

ونال رتبة (قول أغاسي) بواسطة السراى وتعين ياوراً ليوسف عز الدين افندي وهو شاب صعب المراس جريء المقدم . وقد استدعاه عوني باشا مرة وأمره بالذهاب الى بغداد فهجم عليه وكان السردار عبدي باشا حاضراً فمنعه وصحب عوني باشا عز الدين افندي مرة قبل الخلع بأسبوعين في جهة (كوكصو) وحاول حسن رميه بالرصاص فمنعه أصحابه و بعد مسألة الخلع صدر أمر السرعسكريه بارساله الى بغداد فامتنع عن الذهاب وصدر الامر بحبسه فقبل وطلب مهلة لتدارك لوازم السفر وكان مصمماً على اجراء الجناية فتوجه الى محل مصيف عوني باشا فاخبروه بأنه في المجلس فحضر وقتله

قد يكون الجانى صادقاً فى ادعائه بانه لم يقصد سوى قتل عونى باشا ولكن الاحوال كانت تدعو الى الشبهة ولنفرض جدلا انه قتل بعض المقتولين لانهم حاولوا القبض عليه فلم قتل راشد باشا والياور شكري بك بلا سبب ولا أدنى تعرض ولم حاول دخول الحجرة التي التجأ اليها رشدي باشا الصدر الاعظم ورفيقه قيصرلى احمد باشا وحاول احراق ستارة بابها.و بعد ان قتل حسين باشا واحمد اغا اسودت الدنيا في عينيه وصار كالوحش المفترس ولو صادفه اذ ذاك طفل لقتله

و بعد هنيهة مات احد انفار الضبطية المجروحين بمقذوفات مسدسات هذا الوحش فبلغ عدد المقتولين خمسة وعدد المجروحين عشرة فكانت جنايته من اكبر الجنايات لا سيما وقد اعترف هو وقبض عليه رجال الحكومة متلبساً بالجناية فقرر مجلس الوكلاء باتفاق الآراء الحكم بصلبه

وكان حسين عونى باشا من رجال العسكرية المعدودين واشتهر راشد باشا ايضاً بمواهبه العقلية ووقوفه على غوامض السياسة الخارجية ففقدت الامة بقتلهما رجلين من عظمائها في موقفها الحرج لانها كانت محتاجة الى الاول لتسكين ثورة الروميلي والى الثانى لاتمام نفس المسألة من الوجهة الخارجية والامة تعرف قدر الرجال والله يعلم مقدار تأثير هذه المسألة الفظيعة في أفرادها الصادقين وكم فرح اعداء الدولة بقتل هذين العظيمين والناس لا يتعجبون من فرح الاعداء بموت اهل الحزم وانصار

الامم اذا كان الاعداء من الاجانب ولكنهم يتميزون غيظاً اذا رأوا سرور بعض أفراد الامة مثل محمود نديم باشا وأشياعه وغيرهم من الذين يعيشون بمال الامة ويرفلون في أثواب عزها

لان حسين عونى باشا قد نشأ من قسم (أركان حرب) المدرسة الحربية وفاق أقرانه بالشجاعة والاستقامة وتمرن على الاعمال العسكرية فترقى بجده ونشاطه مرات الى مقام السر عسكرية فانتظام العساكر وترتيبهم وتعليمهم في زمن عبد العزيز لم يحصل الا بجد عونى باشا واجتهاده وكان موضع ثقة العموم فلو مد الله في عمره وبقي في منصبه لخلصنا من ورطة حربي الصرب والجبل الاسود ولم تجسر روسيا على محاربتنا ولو حاربناها لنلنا الظفر بتدبيره ومهارته العسكرية التي يقدرها العامة والخاصة قدرها فقتل رجل بهذه الصفات بيد أثيم غادر خائن رذيل كحسن الشركسي لا يعد انتقاماً كما يزعم بعض الخونة لانهم يكونون قد جنوا على الامة بضياع قسم من أملاكها وسفك دماء عدد من العساكر الابرياء في الحرب الاخيرة (يريد الحرب الروسية الاخيرة) ولكن جرت الاقدار وقضى الامر فأصيب السلطان بهذا المرض وانهد ركنان عظيمان من أركان الدولة فاختلت أمور الحكومة ولكن أرباب الحل والعقد قد عجلوا بتعيين السردار عبدي باشا وكان قد سافر الى (ادرنه) لمهام تتعلق بالمسألة البلغارية فوكل عنه رديف باشا وعينوا صفوت باشا لنظارة الخارجية

وكانت مسألة الجبل الاسود ومسألة الصرب ومسألة البلغار وغيرها قد اشتعل لهيبها فأرسل المرحوم عونى باشا عبدي باشا كما أسلفنا الى (ادرنه) وسير مختار باشا الى قومندانية الفرقة التي أحدثناها لولاية الهرسك وأرسل أحمد ايوب باشا لرئاسة العساكر المحتشدة بجهة (نيش) وأرسل الفريق عثمان باشا الى (ودين) ومحمد علي باشا الى (يكي يازار) وارسل العدد الكافي من العساكر الى اشقودره والى بعض المواقع ولكن الجنرال (جرنايف) قد حضر مع عدد من ضباط الروس واعان الصربيين على اكمال اللوازم الحربية فأعلنت صربيا الحرب ضدنا عقب وفاة حسين عونى باشا وابتدأت عساكر الجبل الاسود بمناوشتنا في جهات (الهرسك) و (اشقودره)

وثار ثائر ثورة البلغار فامتدت في طول البلاد وعرضها ولكن (السرعسكر) عوني باشا الذي رتب الخرائط العسكرية وناظر الخارجية الذي قد وقف وقوفاً تاماً على نيات الدول وخابرها في شأن هذه المسائل قد توفيا فبقيت هذه المشاكل بين يدي الباب العالي ولم يكن فيه من الوكلاء (النظار) غيري أنا ورشدي باشا وصفوت باشا وكان تكالب الكوارث يشغلنا من جهة وفقدان المال يزيد الازمة اشتعالا فلم نوفق الى عقد قرض بسبب الازمات الداخلية والخارجية فعجلنا باصدار اوراق مالية بثلاثة ملايين من الليرات (هذه الاوراق هي التي يسميها عارفوها باسم القائمة) وكنت أؤدي وظيفتي بالباب العالي نهاراً وأري الشؤون الحربية بالاشتراك مع رشدي باشا ليلاً وطالما توجهنا الى الطوبخانة وقضينا الليالي في شغل شاغل الى الصباح وكنا لا نعجز عن القيام بهذه الاعباء ولا تكل عزائمنا من طول الكد واجهاد الفكر

أما القوة العسكرية فكانت كافية لمقابلة هذه الصدمات ولكن أهل الروميلي وأهل الاناضول وطلاب العلوم في جوامع الاستانة قد جمعوا جموعهم وطلبوا منا قبولهم كجند متطوعين فرأينا من الواجب حثهم على قبول النظام العسكري والتزيي بالزي الجهادي والاذعان لاوامر الضباط وتعهدت أنا ومحمود جلال الدين باشا باخراج هذا القرار الى حيز الفعل واحضرنا رئيسهم وافهمناه وجوب التعليم العسكري وتعيين العدد اللازم من الضباط لقيادتهم واشترينا لهم السلاح والكسوة من المال الذي جاد به المتبرعون لان الدول المسيحية ومسيحيي الروميلي كانوا يعزون ما حدث في الولايات البلقانية الى رجال الدين ولا يصح أن نرسل المعممين الى تلك الولايات قبل تغيير زيهم وتعيين عدد من الضباط لمنعهم عن اجراء ما يغاير شعار الانسانية. اما تدريبهم على الحركات الحربية فكان برحبة (بكقوز)

وقد انطنا أمر هذه المهمة بشاب حائز لرتبة الميرلاي يقال له هدايت بك (هدايت باشا الآن) فاجتهد الشاب وجد في تعليمهم وأشرف عليه محمود جلال الدين باشا فتمرنوا في مدة تقل عن شهرين وبلغ عددهم اثنى عشر طابوراً فارسلناهم الى

فرقتي (ودين) و (نيش) واشترطنا على من يحب الالتحاق بهم من سكان بلادهم التزيي بالزي العسكري والاذعان لاوامر الضباط وقد أظهروا شجاعة غير منتظرة في الحرب الصربية

على هذا النسق ظهرت اثار حب الوطن في المسلمين ولما سمع المسيحيون ان الحكومة ستصدر قانوناً يوجب المساواة بين المسيحي والمسلم واليهودي وغيرهم من العناصر بدت على وجوههم علائم الميل الى حب الوطن . وكان المسيو ايغناتيف (سفير الروس) يشتغل بايجاد القلاقل فتارة يثير العصابات في الروملي وطوراً يسعى في افتراء الاكاذيب بواسطة الجرائد المأجورة ونشر (الكونت اندراسي) ناظر خارجية النمسا مذكرات في اوروبا ذكر فيها مسيحيي البوسنه والهرسك وقال ان الهلال والصليب لا يجتمعان في راية واحدة فأردت أن أكذب روايته وشكلت فرقة عسكرية من متطوعي المسيحيين وأمرت ان يرسم على راياتها الصليب والنجم والهلال وبعد ان رأى أهل الاستانة تلك الفرقة أرسلناها الى فيلق (نيش) فلم يتأخر أفرادها عن المسلمين في حروبهم وأظهروا مهارة فائقة برهنوا بها على صدق وطنيتهم ولم ينج منهم الا نفر قليل

أما خطبة السلطان فقد ذكرنا فيها ان الحكومة تفكر في احلال الشورى محل الاستبداد وان افراد رعايا الدولة العلية سيتساوون في الحكومة الدستورية والدستور يعلنه الملوك ولكن السلطان قد أصيب بمرضه المعلوم فلم نتمكن من اعلان الدستور ورغماً عن كل هذا فقد اشتغل موظفو الحكومة بالتخلص من الكوارث الداخلية والخارجية وكنا نعلم ان الخلاص من المشاكل متوقف على وضع القوانين الدستورية. وكان النمسويون قد سدوا فرضة (قلق) فاجتمعنا في الباب العالي للتشاور فيما يجب عمله في شأن هذه المسألة وانضم الينا كل الوزراء وعدد من العلماء فانتهزت فرصة اجتماعهم وأخرجت من جيبي صورة القانون الاساسي وعرضتها عليهم فقرروا باتفاق الآراء تبديل بعض مواده وجعلها موافقة لروح العصر وناطة أمر تبديلها بلجنة تكون

تحت رئاستي وكان بعض اعضاء البيت المالك حاضرين فأعطينا لكل واحد منهم صورة من هذا القانون

﴿ جلوس السلطان عبد الحميد ﴾

عينا بعض نطس الاطباء لمراقبة سير مرض السلطان المريض واحضرنا له طبيباً من (فينا) قد اشتهر بين اقرانه بمهارته فى مداواة هذه العلة فأفرغ جهده ولكن العلة قد تغلبت وطال المطال فكثر المتقولون في الاستانة وفي الخارج وكنت أنا ورشدي باشا نشتغل بدقائق الامور ونحلها ولكن الحل النهائي في الحكومة يتوقف على المرجع الاخير وهو السلطان ذو الرأي النهائى الذي اذا فقد فقدت وسائل الكمال و بقيت الامور بتراء وكان قد مضى على جلوس الخليفة شهران ولم نقدم له اوراق اعتماد سفراء الدول الاجنبية اما ولاية العهد فكانت قد انتقلت الى عبد الحميد فقرر النظار والعلماء بالاتفاق اجلاسه على تخت الخلافة في يوم الخميس الحادي عشر من شعبان سنة ٩٣

وكان عبد الحميد قد قرأ نسخة القانون الاساسي (الدستور) وقال ان الدولة لا تخلص من مشاكلها الحاضرة الا اذا عملت حكومتها به فلما جلس على التخت جلس وهو مصمم على اعلانه كالسلطان مراد وحوله على مجلس الوكلاء لتدقيق مواده واعلان احكامه في أول فرصة

اما مواد القانون الاساسية فكانت قاضية بمساواة عناصر الدولة واتحادها تحت العلم العثماني ونوال كل فرد حريته التي يبيحها له القانون وترقية قوة الدولة وعظمتها والمقارنة بين دخل الحكومة وخرجها فكان محبو الدولة ينتظرون اعلان القانون بفارغ صبر ولكن أرباب الغايات الذين قد اعتادوا الاستفادة من الاستبداد كرجال السراى الهمايونية وغيرهم من ذوي المآرب لم يحبذوه قائلين انه يمحو استقلال السراى ويقلب الحكومة الى جمهورية فانتقلت اقوالهم الى المعمين فروجها الاعداء وكادت تنتج ثورة في الاستانة في أواخر رمضان لولا تيقظ رجال الحكومة وقد ظهر المحرضون بعد العيد وهم القاضي عسكر (شريف افندي) ومحيي الدين افندي

ورامز باشا و بعض الطلبة ورضا بك احد رجال محمود نديم باشا وكان الاول راغباً في الحصول على وظيفة مشيخة الاسـلام اما محيي الدين افندي فقد كان استاذاً ليوسف عز الدين افندي وبهـذه الوسيلة رقى الى رتبة (قاضي عسكر) ونقم على الحكومة بعد خروجه من السراى السلطانية ففعل ما فعله هو ورفاقه وجاراهم بعض العوام وكنا نعرف ان اعداء الدستور سينقلبون الى اصـدقاء اذا اعلن ووقفوا على فوائده وان هؤلاء النفر القليل لا يؤثرون على افكار العقلاء ولكن وقوع الحكومة في الازمات قضى علينا بعدم تركهم فأبعدنا قسما منهم الى جزائر بحر سفيد وارسلنا المعممين الى بلادهم بعد صدور قرار مجلس الوكلاء واقترانه بالارادة السنية

اما عسكرنا فقد انتصر نصراً مبيناً في نيش وفي ودين واستولوا اخـيراً على قلاع (علمكسنيجه) وهزموا جيوش الصرب هزيمة قضت عليهـم القضاء الاخـير وتقدموا الى قرب بلغراد (عاصمة الصرب) فعرف الناس ان استيلاءهم عليها محقق وخالف الروس عاقبة انتصاراتنا فحضر الجنرال (ايغناتيف) الى الباب العالي وطلب منه الهدنة لمدة سـتة اسابيـع وكان طلبه يخالف قواعد الانصاف ولا ينطبق على القواعد الدولية ولكن الضرورات قضت على الباب العالي بقبوله وأصـدار الامر للقومندان بالتوقف عن الحرب

﴿ جلوس السلطان عبد الحميد ومؤتمر دار السعادة ﴾

رتب الروس فتنة البلغار وجعلوا مسألة الهرسك كمقدمة لها وتوسعوا في دسائسهم بالتدريج فاتبعوها بمسألة الجبل الاسود فالمسألة الصربيـة ولمـا دارت دوائر الحرب على الصرب اضطرتهـم الاحوال الى تبـديل طرق دسائسهم فتعللوا بمسألة ثورة الروميلي ومسألة السهوم المـالية ولبعض اسـباب وطلبوا من اوربا عقد مؤتمر لمصلحة بلغاريا منتهزين فرصة تغير الافكار العموميـة فعينت الدول الست سـتة سفراء ووصلوا الى الاستانة

وضع اعضاء المؤتمر في اول شرط من شروطهم مسألة استقلال بلغاريا الداخلي

واحالة أمر انتخاب الموظفين الى البلغاريين وتنظيم عسكر بلغاري من طائفة (المليس) واعطاء قسم من ايرادات البلاد البلغارية الى الحكومة العثمانية

وصرف القسم الاعظم فى نفس الولاية وابعاد العساكر العثمانيـة عن البـلاد البلغارية ما عدا العساكر المقيمة فى القلاع واجلاء الشراكسة عن الاراضي البلغارية بنقلهم الى جهة الاناضول وغـير ذلك وهى نفس مطالب سفارة الروسيا التي طلبتها في زمن صدارة محمود باشا للمرة الثانية وكان قد عزم على تنفيـذها ولكن الوكلاء لم يوافقوه وكانت الاحوال تضطرنا الى الاذعان لتلك الطلبات وكنا نلاحظ من جهة أخرى ان بلاد الصرب قد نالت اقل من هـذه الامتيازات قبل اربعين سـنة ثم تدرجت بنوالها الى الاستقلال فاذا قبلنا ما طلبه البلغاريون خرج أكثر من نصف الروميـلي من يد الدولة ومن العبث ان نوافق على تلك المطالب . ولذا قرر مجلس الوكلاء باتفاق الآراء وجوب تعديلها وابلغ قراره الى صفوت باشا وادهم باشا مرخصي الدولة

﴿ صدارة مدحت باشا الثانية في ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٧٦ ﴾

بينما كان المؤتمر مشـتغلاً بالمذاكرات عزل رشدي باشا ووجه اليّ مسـند الصدارة للمرة الثانية

شمرت عن ساعد الجد ونظرت الى أحوال الحكومة وقد انتابتها مسألة الروميلي من جهة ووقفت موقف اليائس بين غوائل تكاليف المؤتمر من الجهة الثانية وزادها تعقيداً تكالب الكوارث الداخليـة والخارجية وفراغ المـالية من الاموال لان ما أحدثناه من الاوراق المالية (القائمة) في زمن رشدي باشا قد صرف على العساكر فتعطلت أعمال الدولة لفقدان النقود فرأينا من الواجب علينا البدء باخراج أوراق ماليـة بمليوني ليرة على شرط ان نبقى قيمة الاوراق محفوظة بجمع قسم منها في كل سنة واعطاء فائدة لحامليها وهذا لا يتم الا بتخصيص ضمان مالي ولذلك قد خصصنا من ايراد اعشار أزمير و بعض الولايات مبلغاً سنوياً قدره أربعون الف (كيساً) وبهذه الوسيلة حفظت الاوراق قيمتها مدة من الزمن

اعلان القانون الاساسي (الدستور)

كمل تحوير مواد القانون الاساسي الموضوعة على بساط النقد بين أيدي الوكلاء فاجتمع المجلس العمومي المركب من الوكلاء والعلماء والاعيان وصدق عليه بعد قراءته وأرسل الى جلالة السلطان لتصدر به الارادة السنية فصدر الخط الهمايونى القاضي باعلانه فاعلن في السابع من ذي الحجة سنة ٩٣ في ميدان الباب العالي بحضور الجموع المحتشدة ووزعت نسخه فى اطراف المملكة فأعلن الاهالي سرورهم وأقاموا الزينات والافراح

اجتهد مندوبو الدولة في تخفيف بعض المواد في المؤتمر ولكن طلباتهم لم تقترن بالقبول لان سفراء الدول الست كانوا يروجون السياسة الروسية وقد تقابلوا معي مراراً خارج المؤتمر فاتفقت معهم على تبديل بعض المواد فمن ذلك انهم قد صرفوا النظر عن اخراج الشراكسة من الروميلي واشترطوا علينا عدم اسكان مهاجريهم من جديد في تلك البلاد واشترطوا ايضاً عدم استخدام عساكر الباشبوزق والغاء الويركى واستبداله بضرائب تقسم على الاراضي وان يكون الموظفون من المسلمين والمسيحيين وارسال بعضهم من الاستانة عند اللزوم ومع ما تقدم فهذا لا يعد تعديلاً لان مسألة الاستقلال الداخلي ومسألة عساكر (المليس) ومسألة استخدام الاجانب في البوليس ومسألة عدم ايجاد عساكرنا الا في القلاع وأمثالها لم يمكن تعديلها وهذه هى المسائل الاساسية واذا وافقنا على انفاذها انفض المؤتمر وكانت النتيجة من اصعب النتائج على الدولة ولا يقدر السلطان ولا الوكلاء على تنفيذ مثل هذه المطالب ولذا قد رأينا لزوم عقد مجلس عمومي من الوكلاء والوزراء المعزولين والعلماء وأمراء العسكرية والرؤساء الروحانيين وغيرهم فجمعنا المجلس ووضعنا المسألة على بساط البحث وقرأنا أوراقها وشرحناها من كل الوجوه وقلنا لهم ان رد هذه المواد سيدعو الروسيا الى اعلان الحرب لان هذه القلاقل هى نتيجة عداوتها فهي التي دبرتها لاعلان الحرب ضدنا وستكون الثانية شراً من الاولى اذا رفضنا كل هذه المطالب وقد قلت لهم أنا ان عند الدولة من العساكر والاسلحة ما يساعدها على الحرب ولكن الدول الاجنبية كلها ضدنا وهى تساعد الروس بكل قواها وأحوالنا المالية معلومة

والمال أول لوازم الحرب ولا يمكننا تداركه الآن وقد سقطت قيمة الاوراق (القائمة) فاذا أعلنا الحرب وحصلنا المال من الاهالي بالقوة أوقعنا بهم اضراراً داخلية أكثر من اضرار الحرب الخارجية والسلاح موجود عندنا أما البارود فيجب ان نجلبه من أوربا واذا صادره العدو او منعه عنا وقعنا فيما لا تحمد عقباه قلت ما قلته فأجاب الحضور قائلين ان تسليم قطعة كبيرة من ملك الدولة اذعاناً لمطالب الروسيا يعد فشلا واحتقاراً للدولة فنحن نحارب لان روسيا لا ترجع عنا الا اذا هزمناها في حرب طاحنة. بلغنا هذا القرار الى اعضاء المؤتمر بالباب العالي وأفهمناهم ان الدستور كفيل باجراء الاصلاحات التي طالما طلبتها منا اوربا

أما الجنرال (ايغناتيف) فقد قال لاعضاء المؤتمر ان السلطان يصدر الارادات تلو الارادات فتبقى حبراً على ورق وسيكون الدستور غير نافذ المفعول كغيره من اللوائح والقوانين الاصلاحية في تركيا

ولم يكن الوقت الكافي لاظهار مفعول الدستور قد انقضى ليفهم اعضاء المؤتمر اننا قد شرعنا في الاصلاحات الفعلية وكانت الاوامر قد صدرت اليهم من دولهم فودعونا وسافروا وسافر ايضاً سفراء الدول الست وأبقى كل واحد منهم وكيلا في سفارته

كانت نتيجة سفر السفراء الستة وقطع علائق دولهم معنا بسبب مسألة المؤتمر وخيمة ولا ننس ان دولتي انكلترا وفرنسا قد ساعدتانا مساعدة مالية وجسمية في حرب القرم لا لسبب غير منع اطماع روسيا الاشعبية ومسألة اليوم ناتجة عن ترويج فكرة (البانسلاويزم) والسعي في تكوين قوة سلاوية وجعل البلقان حداً فاصلاً بيننا و بين روسيا وهذا مما لا توافق عليه دولة من الدول ولكن أسباباً كثيرة قد غيرت افكار الدول وقلبت علينا قلوب ساستها لان الروسيا كانت تدس الدسائس في الروميلي وتلقى تبعتها على عاتقنا فكثرت الشكايات ورأت أوربا وجوب تشكيل المؤتمر لارضاء الروسيا وكان سالسبورى (مندوب انكلترا في المؤتمر) يروج مطالب

الروسيا لانه قد قرأ ما كتبته الجرائد ضدنا ولم يقابل في الاستانة سوى الجنرال (ايغناتيف)

اما وزارة انكلترا التي كان يرأسها (بيكونسفيلد) فكانت تميل الينا ولكن انفضاض المؤتمر بلا نتيجة قد أحفظها و بدل افكار ساسة أوربا فاستحسنوا رد مطالب روسيا الجائرة واثنوا على شجاعة الاتراك وغيرتهم الوطنية ووقوفهم امام دول اوربا الست بعد اصرارها على تنفيذ رغائب الروس

وصدر الامر الى سفيري انكلترا وفرنسا من دولتيهما بالسفر أيضاً فسافرا وأردت ان اعيدهما وارسلت (أوريان افندي) مستشار النافعة بحجة السعي في عقد قرض من مصارف انكلترا لجس نبض رجال السياسة في باريس ولندن فقابل اللورد (بيكونسفيلد) رئيس الوزارة واللورد (دربي) ناظر الخارجية مقابلة خصوصية وكتب اليّ برقية قال فيها انهم متفقون على تسكين حدة روسيا لاخراج الدولة العثمانية من هذه المازق بلا خطر وارسل برقية اخرى قال فيها انهم يقولون بوجوب مصالحة (الصرب) و (الجبل الاسود) والموافقة على بعض مطالب البلغاريين ويحبذون الاحكام الدستورية في تركيا ولكنهم يشيرون الى الاسراع بانفاذها

فلما وردت البرقية الاخيرة شمرت عن ساعد الجد وارسلت الى (الطونه) والى (ادرنه) والى (صوفيه) بعض نزهاء الموظفين فعينوا نصف رجال البوليس من البلغاريين ونصفهم من المسلمين وعينوا ايضاً عدداً غير قليل من البلغار في وظائف القائمقامين والمتصرفين وعفونا عن مسببي الثورة واعدنا لهم مجالسهم العمومي الملغى في زمن محمود باشا والغينا الاعشار وأحللنا محلها ضريبة قدرناها على مقدار الاراضي وخابرنا حكومة الصرب فأجاب البرنس ميلان مظهرا رغبته في الصلح فأرسلنا اليه موظفاً كبيراً عقد معه شروط صلح رسمية وورد جواب من برنس الجبل الاسود قال فيه انه ميال الى الصلح ولكن أراضي بلاده غير صالحة للزراعة وانه لا يقبل الصلح الا اذا أعطيناه مقداراً من اراضى الدولة الواسعة فقرر الباب العالي اعطاءه مقداراً من

الاراضي بجهة (سوترينه) ولكن أهالي النمسا لم يوافقوا على اعطائه فوضعت هذه المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء

ابتدأت انتخابات النواب في الولايات وأعددنا محلاً لمجلس المبعوثين ولم نتأخر عن جمع العساكر واعداد العدد لان نية الروسيا كانت غير معلومة وكان الاهالي يظهرون رغبتهم في الدفاع عن الوطن فتطوع عدد غير قليل من المسلمين والمسيحيين في الولايات فاهتممنا بتعليمهم وحضرت فرقة متطوعى سلانيك فوجدناها مدربة على الحركات العسكرية وخف أهل الاستانة الى كتابة أسمائهم في دفاتر المتطوعين وشكلت كل ولاية طابورين فأحيا العثمانيون عهد أجدادهم بغيرتهم وشهامتهم

﴿ نفي مدحت باشا الى أوربا ﴾

ابتهج الناس بالانتخابات وتطلعوا الى مجلس المبعوثين وسرت اوربا بانحسام مسألتي الصرب والجبل الاسود والاهتمام بالمسألة البلغارية ولو خرجنا من هذه المشاكل وانعقد مجلس المبعوثين لعادت الينا ثقة اوربا وتمتع الاهلون بالحرية والمساواة وتقدمت الدولة الى الامام. لان المصارف الاوربية لا تتأخر عن اقراضنا ما يلزم لنا من النقود اذا شرعنا في اجراء الاصلاح الحقيقي فلهذه الاسباب كنت احصر الفكر في انفاذ الاصلاحات المنوية وكان مجلس النظار قد قرر اعطاء سكان الجبل الاسود الاراضي اللازمة في جهة (ايسبج) فاذا رفضوا قبولها أعطيناهم غيرها في (تقشيك) و بينما نحن منتظرون ورود جواب برنس الجبل الاسود بالرفض او القبول سنة ٩٤ دعيت الى سراى (طولمه بغجه) وأخذ مني خاتم الصدارة واركبت وابور عز الدين لابعادي الى اوربا فتحرك بي قبل ان أرى افراد عائلتي ووجهته (برندزى) وذلك في يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني

تحملت متاعب تفوق القدرة البشرية من يوم جلوس السلطان مراد وخلصت منها بهذه السياحة التي كانت غير منتظرة فكنت أعد شخصى سعيداً ولكن هذه الحياة ليست لي بل هي للامة وقد وقع الوطن في مصائب داخلية وخارجية وأوصلته بعون الله الى درجة كان يسهل معها تخليصه من مخالب الدمار ولا يمكن ان اشبه

بلادي التعسة الا بمريض حضره نطس الاطباء وأبل من مرضه فسقاه عدوه سما قضى به على حياته . كنت أتأسف على وطني عالماً انه سيقع في مخالب العدم

ولما بلغني سعيد باشا احد رجال المابين خبر عزلي ذكرت له ما تقدم وسألته عن سبب ابعادي فتوجه الى مولاه وعاد فقال لي ان المادة ١١٣ من القانون الاساسى (الدستور) تخول السلطان حق ابعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم الى خارج البلاد العثمانية وقد قدم (عمر فوزي باشا) ناظر الضابطة الى جلالة السلطان جرنالين وقع عليهما بخاتمه وقدمهما لي وقد نظرت الى تاريخهما فوجدتهما قد حررا قبل صدور أمر ابعادي بيوم وخلاصة احدهما ان احد الجواسيس سمع ضابطاً يقول لرفيقه في احدى القهوات انى سأكون رئيس جمهورية اما الثاني فقد احتوى على نفس هذا المعنى فلم أر لزوماً لقراءته بل لم أمدد اليه يدي

لنفرض جدلا ان شخصاً قال لرفيقه في احد الكازينات ان مدحت باشا سيكون رئيساً للجمهورية العثمانية فهل يصح نفي صدر اعظم في مثل هذه الظروف لمجرد قول احد الافراد أللهم ان هذا لا يوافق عليه عقل عاقل

ان الناظر الى ما حدث في عاصمة الخلافة من التغيير والتبديل والعزل والنصب والاقدام والاحجام لاصلاح أحوال الدولة وايصالها الى أوج الكمال يرى ان ما حصل تعجز عن معرفة أسراره قدرة المخلوق ولعل في هذه المسألة ايضاً سراً أستعيذ بالله منه

فقد قال تعالى « واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » وفي قوله جل شأنه عبرة للمعتبر تثبت ان حياة الامم ومماتها لا تقوم باتعاب الفكر ومواصلة العمل

كانت هذه الخواطر تجيش في صدري وكنت أتدرع بالصبر موكلا أمري الى مدبر الكائنات ثم رأيت ان من الحكمة والسداد سرعة تنفيذ أمر السلطان فقمت وودعت الحضور وبينما انا على تلك الحال حضر سعيد باشا (الصدر الاعظم الآن) وبلغني سلام السلطان قائلا ان جلالته يعدك بالرجوع الى الاستانة في القريب

العاجل فشكرت له وقلت : انى أتأسف لاني اذا عدت لا أرى السلطان في هذه القصور ولا أرى جلال الملك وعظمته الحاضرين ولا أتمكن من رد المفقود فارجوكم ان تبلغوا اقوالي بنصها وفصها الى جلالة السلطان قلت هذا وركبت الوابور

وفي اليوم المذكور وجه مسند الصدارة الى أدهم باشا رئيس شورى الدولة وحل محله قدري باشا واشتغل الناس في الاستانة وفي الولايات وفي الخارج بمسألة نفيي وخافوا على القانون الاساسي لاني أعلنته بعد الجهاد الطويل ولما رأى المابين تطلع الشعب الى استجلاء الحقيقة اعلن بواسطة جرائد الاستانة انه قد ضبط أوراقاً أثبت بها خيانتي فعزلني وابعدني عن الاستانة

ولم يتعود الاهالي قراءة الاكاذيب الرسمية في الجرائد الى ذاك اليوم فخدعتهم الاباطيل وصدق ذلك أكثرهم ولكن جرائد أوربا الشهيرة نشرت الخبر على علاته حيث قالت ان مدحت باشا لم يخدم افكار السلطان فابعده عن دار الخلافة فذاع الخبر بين سكان عاصمة الخلافة ورأى المابين ان مصلحته تقتضي اختلاق فرية جديدة ليشغل الناس بها فاستكتب مدحت افندي الصحفي (مدحت افندي حي لليوم) مقالة أمره فيها ان يقول انه سمع مني ما يثبت طمعي في رئاسة الجمهورية وكتب الشاعر كاظم باشا الفريق قصائد هجاء أرضى بها المابين وتقرب الكثيرون الى السراى بذمي

والعاقل لا يحلم بقلب الحكومة الى جمورية ولكن مدحت افندي الصحفي قد تربى منذ نعومة أظفاره في بيتي فاعتنيت بأمر معيشته وتعليمه وأخذته معي الى بغداد والى (الطونه) فكيف نسى نعمي عليه واختلق هذه الاكاذيب التي لا تنطلي على احد فالناس واقفون على حقيقة المسألة والكذب لا ينفع في مثل هذه الظروف

والذي يضحك الشكلى هو ان جرائد الاستانة كانت قبل أربعة أيام تصوغ لي المدائح فانقلبت بين يوم وليلة الى صحائف هجاء فاذا كان مدحها قد نفعني بالامس فهجوها يضرني اليوم أما مدحت افندي فقد باع شرفه ببعض الدراهم وكان الشعراء يتوقون الى النضار فهدوا هديه

وتوجهت الى برندزى ومنها الى نابولى و بعد شهر زرت اسبانيا وأقمت بها شهرين وعدت الى باريس ومنها الى لندره وأقمت في الاخيرة مدة من الزمن

وصل خبر عزلي وابعادي الى بترسبورج فارسلت حكومة الروسيا الجنرال (ايغناتيف) الى لندره لفتح باب جديد للمطالب البلغارية فلم ينظر الباب العالي الى المسألة بعين الاهمية والغى بعض المواد المتفق عليها وعزل الموظفين الذين قد عينتهم ورفض اعطاء الاراضى المتفق عليها لسكان (الجبل الاسود) فاصروا على عنادهم ونظرت حكومة الصرب الى أحوال الجبل الاسود والى مطالب البلغار فندمت على الصلح

فرح الجنرال (ايغناتيف) بابعادي واصبح الباب العالي يأتمر باوامره اما الحكومة الانكليزية فقد تأثرت غاية التأثر وحاول الجنرال ايغناتيف تنفيذ مطالب المؤتمر فلم تساعده الظروف لان اجتماع مجلس المبعوثين قد أثر في الافكار العمومية في انكلترا فعدلت حكومتها مطالب الروس وقدم الروس پروتوكولا الى الباب العالي وأعلن مراراً في الاستانة

طلبت الروسيا في هذا البروتوكول من تركيا الاسراع في ارسال سفير الى بترسبورج بعد ان عدلت مطالبها وجعلتها قابلة الاجراء وطلبت ترك اراضى (نيقشيك) للجبل الاسود ولم يكن تنفيذ بقية مطالبها بعيد الامكان ولكن الاستانة قد رفضتها فاضطرت الروسيا الى اعلان الحرب

كانت قوة الدولة العلية فى ابتداء الحرب أكثر من ٥٠٠٫٠٠٠ مقاتل كاملي العدد والعدد وكان عندنا غير القوة السالفة الذكر عدد غير قليل من المتطوعين المدربين على حمل السلاح فلما أعلنت الحرب وحمل علينا الروس من جهة نهر (الطونه) وصدرت الارادة السنية قاضية بعزل عبدي باشا قومندان جيشنا المحارب ورديف باشا (السرعسكر) اختلط الحابل بالنابل لانهما كانا قد رسما الخطة الواجب اتباعها والغى السلطان ايضا طوابير المتطوعين وكانت خزينة الحكومة فارغة والمال من لوازم الحرب الاساسية والحكومة عاجزة عن ايجاد ما يلزمها منه للقيام بالنفقات

الحربيـة خصوصاً بعد ان سقطت قيمة الاوراق المـالية (القائمة) لاني كنت قد خصصت لهـا ضماناً مالياً من ايرادات معلومة فصرفت الحكومة الايرادات في غير وجهها وحصلت الاموال من الاهالي بانواع التهديد والوعيد

اما الاوامر الحربية فكانت تصدر من أماكن متعددة وزاد الطين بلة سرعة تبديل القواد ونظار الحربية فكان الناظر الجديد يتبع غير خطة سلفه ومثله القومندان وتعرض بعضهم للحركات الحربية وهو لا يدري عن أمور الحرب شيئاً فكان اجتماع هذه الامور وغيرها مقدمة انتصار للاعداء وعنـد تجاوز الجنرال (غرقون) البلقان خفت العساكر الموجودة تحت قيادة سليمان باشا من جهة (زغره) وانتصرت وانتصر عثمان باشا على العدو مرات فحـامت حوله الامال ولكن تعدد الاوامر واختلافها عرض سليمان باشا للخطر في جهـة (شبقة) وأرسل الروس جيشاً جراراً الى بلاونه وتوجه اليها امبراطورهم بنفسه لان انهزامات عساكرهم المتوالية لم تثنهم عن الحرب بل اضطرتهم الى جمع عددهم وعددهم للقضاء على القوة العثمانية وهذا ما كان يجزم به رجال الحرب في أنحاء العالم

اشتغلت بعد ايابي من اسبانيا بالوقوف على أفكار ساسـة باريس ولوندرة فرأيت الناس في البلدين يميلون الى تركيا كل الميل بيد أنهـم يقولون ان الواجب كان يحتم على الدولة العلية ارسال سفير للروسيا لتخفيف مطالبها قبل رد البروتوقول واعلان الحرب

وكانت الحكومة الانكليزية تحتج بمـا قدمته قائلة انها لا تساعد تركيا في الحرب اما فرنسا فكنا لا ننتظر منها مساعدة فتأثرت وأيم الله غاية التأثر اذ علمت أن الحرب ستجر على قومي رزايا ومصائب لا قبل لهم بها وعزمت على التوجه الى المـانيا مع ان خدماتي لدولتي قد قدرها الفرنسيون والانكليز حق قدرها وقابلوني بالحفاوة وكان يدور في خلدي ان ساسة المـانيا والنمسا سيقابلوني بكل رعاية أيضاً ولكن وصمة النفى الملتصقة بي كانت تمنعني عن عقد محالفة رسمية مع دولة من الدول

فأرسلت الى المـابين تلغرافاً طلبت به تخليصي من هـذا الاسم وركبت الوابور متوجهاً الى (فينا)

وهذه هي صورة تلغراف آخر أرسلته من فينا

قد اشتغلت مدة اقامتي في عاصمة بلاد الانكليز بمـا يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا وحاولت السعي لعقد صلح يحفظ شرف الدولة وعظمتها وافتخر لانني قد وفقت بعض التوفيق وأنا اليوم في فينا أبذل الجهد لترويج نفس المساعى فأرجو ان حركاتي وأفعالي ترضى جلالة ولي نعمتي الاعظم وآمل اخباري بمـا يوافق مصلحة الامة لاستعين به على أمنيتي الوحيـدة وقد وقفت حياتي لتخليص حكومة الخلافة من ورطتهـا وانا قادر على القيام باعباء ما يطلب مني لان مصلحة الوطن يضطرني اليه

ركبت القطار متوجهاً الى فينا فوصلني جواب المـابين قبل وصولي بالقرب من «استرازبورغ» بامضاء باشكاتب المـابين قال فيه ان جلالة السلطان سيرسل التفصيلات بالارقام الى سفير الدولة في فينا و بشرني بان جلالتـه سيقوم بأداء كل مطالبي فقابلت بعد وصولي الى فينا ناظر خارجيتهـا الكونت (اندراسى) وأخذت فكره في مسألة البوسـنه والهرسك ونيات حكومته في شأنهما وحررت الى المـابين تلغرافاً بالارقام شرحت له به المسألة وحررت عنها مكتوباً أرسلته الى الصدر الاعظم

كان توجهي الى (فينا) لاثارة خواطر المجريين ضد روسـيا والاسـتفادة من أهالي (لهستان)

وقد وعدنى الكثيرون بالمساعدة وكانت النمسا عازمة على أخذ البوسـنه والهرسك غير انها كانت تعاوننا اذا انسلخت بلغاريا وصربيا عن جسم الدولة لان انسلاخهما يعود عليها بالضرر والمجر قد اشتهروا ببغض روسـيا ولو انتهزوا فرصـة وجود فيالق الروس وامبراطورهم على شاطئ الطونة وامام استحكامات (بلونه) وأرسلوا فيالقهم الى جهة (الافلاق) لقطعوا عنهـم الأمداد وكانوا قد وعدوني بالاقدام على هذا الفعل قبل اليوم فقابلت عظماءهم وطلبت منهم التعجيل بانجاز الوعد فاحضروا

ما يلزم من العساكر والمدافع وانتظرت جواب الاستانة عشرين يوماً فلم أحظ بطائل واشتد الحصار على (بلونه) فانقطع حبل رجائي وعدت بخفي حنين الى نابولى وأقمت بها مدة

وبعد أيام استولى الروس على (بلونه) وأسروا عثمان باشا فقال الناس ان جيش العدو سيصل الى الاستانة

وكان الانكليز مصممين على عدم مساعدتنا ولكن حب الوطن ألجأني الى مغادرة (نابولى) والتوجه الى لندره

وهنا أصرف النظر عن ذكر وصول العساكر الروسية الى استامبول وارسال الاسطول الانكليزي الى مياه الاستانة ومعاهدة سان استفانو لانها من الوقائع التي يسجلها المؤرخون

وقد سمعت بخبر عزم الدول على عقد معاهدة برلين لتصحيح مواد معاهدة (سان استفانو) فاردت ان اخدم دولتي واخلص مسلمي بلغاريا من الدخول تحت حكم حكومتها الجديدة بابقائهم تحت سيادة الدولة العثمانية فكتبت كتاباً شرحت به عدالة سلاطين آل عثمان وحسن معاملتهم للمسيحيين من اول ظهور دولتهم الى اليوم ونشرت الرسالة باللغتين الانكليزية والفرنسية ووزعت نسخها في أوربا واعطيت واحدة منها لرئيس المؤتمر (بيقونسفيلد)

من يوم سفري الى اوربا وانا أتنقل من بلد الى بلد وكان الانكليز قد قابلوني بالحفاوة فعولت على الاقامة في لوندره ولكن اشتياقي الى أولادي كان يتزايد على تمادي الايام فكنت لا أرى لذة للحياة وفي شهر أغستوس دعاني (الدوق دي سادولاندى) الى مصيفه في (اسكوسيا) وبينما انا في ذاك المصيف صدر لي العفو السلطاني فخضرني سفير الدولة موسروس باشا وبلغني تلغراف جلالة السلطان وخلاصته ان جلالته قد أجرى لي مرتباً شهرياً قدره ٢٠٠ ليرا وامر ان اقيم في جزيرة كريد مع عائلتي وانه احسن الي بألف ليرا وان عائلتي سترسل على وابور مخصوص الى كريد وان جلالته قد أحسن عليها بمبلغ خمسمائة ليرا فشكرت السلطان

على نعمه، ووصلت الى خانيا فى غرة شوال من سنة ٩٥ ووصلت اليها عائلتى على وابور مخصوص فوجدنا منزلاً خارج المدينة واقمنا بها شهرين كاملين وفى هذه المدة أرسل المابين تلغرافاً فحواه ان احد رجاله سيحضر الى كريد لاعطيه التأمينات اللازمة فتعجبت غاية العجب وبعد هنيهة وجهت الى ولاية سوريه

﴿ مدحت باشا في ولاية سوريه ﴾

كنت لا أميل الى الوظائف لاني قد وصلت الى سن الشيخوخة وتعب فكري وانتهكت قواي فطلبت من السلطان اعفائي من هذه الوظيفة فاجابني (صفوت باشا) الصدر الاعظم قائلاً ان هذه الوظيفة قد اختارها لك جلالة السلطان وأرسل لك وابوراً مخصوصاً فقبلت الوظيفة تأدباً وتوجهت الى سوريه

أصلحت ولايات الطونه و بغداد ولكني قد هرمت وضعفت ومع كل هذا فقد عولت على اصلاح ولاية سوريه لان حب الاصلاح قد اختلط بدمى فكان كالمرض المزمن وولاية سوريه هي من الولايات المشهورة بذكاء سكانها وخصب أراضيها

وأول ما وقع عليه نظري في تلك الولاية هو أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل ما عدا العلماء والسبب في ذلك سياسة الدول الاجنبية فى مصر وفى الشام لان تلك الدول تفتح المدارس بأموالها وتمدها بقوتها فيتعلم فيها أبناء المسلمين فكان عدد طلاب العلوم في مدارس بيروت ١٠٦٠٠٠ من الذكور والاناث وكانت مدارس الافرنج تتقدم كل يوم تقدماً يلمس باليد وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الاحداث القرآن فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين واصلاح مدارسنا

قدمت اصلاح المدارس على كل اصلاح وشكلت جمعية من العلماء وجمعت الاعانات من ذوي المروءة فأصلحت بها بعض الجوامع وجعلتها مدارس للاحداث وأدخلت في كل مدرسة ١٥٠ تلميذاً أو ٢٠٠ وقررت ان يجازي ولي الطفل اذا

بلغ ولده السادسة ولم يرسله الى المدرسة وخصصت عدا الاعانة جزءاً من ايراد الاوقاف وعممت المدارس في الملحقات وكان أهالي الشام يميلون الى بث روح التعليم فألفوا جمعية سموها (جمعية المقاصد الخيرية) وانتشرت شعبها في انحاء الولاية

واشتغلت ايضاً باصلاح المدينة وترقية التجارة والزراعة . و بينما كنت مشغولا باصلاح احوال الولاية كانت الاستانة قائمة قاعدة لان السلطان قد أبعد الصهر محمود باشا عن عاصمة الخلافة وعينه والياً لطرابلس الغرب ونفى رشدي باشا الكبير الى (مغنيسا) ونفى شيخ الاسلام الاسبق حسن افندي الى الحجاز ونفى القاضي عسكر قاسم ملا الى كوتاهيه وأمين افندي الى قونيه وحسن افندي زاده قيصر ملا الى اطنه وسيف الدين افندي الى حلب وشرواني زاده احمد افندي الى ديار بكر وعينهم قضاة في البلاد التي أرسلهم اليها أما شيخ الاسلام الاسبق فقد عينه شيخاً للحرم الشريف وأرسله الى المدينة وأرسل بعض رجال العسكرية الى جهات مختلفة وأغلق مجلس المبعوثين والغى القانون الاساسي (الدستور) وكان ناقماً عليّ مع انى قد قضيت ثلاث سنين خارج الاستانة واشتغلت طول المدة التي أقمتها في أوربا بما يعود على الدولة بالنجاح ولم يكن ثمة ما يوجب الحقد عليّ وقد عدت من سياحتي بعد ان أحسن اليّ والى عائلتي ولم يبق ما يوجب سوء الظن بي

وكان محمود نديم باشا قد اشتهر بمعاداة الوكلاء (النظار) اذ ذاك وصدرت ارادة سنية الى الصحفي مدحت افندي (مدحت المذكور هنا حي لليوم) فطبع كتاباً اسمه (اس الانقلاب) ونشره وعدد فيه مثالب الصهر محمود باشا وكان يقيم في جزيرة مدللي فأرسل اليه السلطان احد الموظفين واحضره الى الاستانة وعينه ناظراً للداخلية وعين جودت باشا المشهور بذمى ناظراً للعدلية وعين سروري افندي الذي قد عزلته من وظيفة قضاء (روسجق) بينما كنت والياً لولاية الطونة معاوناً لناظر العدلية ورئيساً لمحكمة الاستئناف ومن هؤلاء أيضاً الدلى نصرت (كلمة دلى معناها المجنون) باشا وهذا قد قربوه من السراى وقدموه على غيره ولم يتركوا أحداً من أعدائى بعيداً عن المابين

كان نديم باشا قد أصدر قراره المختص بمسألة السهوم العمومية ولما عاد الى الاستانة كان اول همه القاء تبعة القرار على عاتق الوكلاء (النظار) والصاق الجريمة بي فحرر مضبطة وختمها بخواتم رفاقه ونشرها بواسطة جريدة الصحفي مدحت افندي ولم يقف الامر عند هذا الحد بل قدم نديم أيضاً أوراقاً الى المابين قال فيها ان سفراء الدول قد وافقوه على اصدار القرار فخدع بما كتبه السلطان وهيئة النظار ونشر التقرير في الجريدة ولم يفطن الى هذه النقطة هو ولا صاحب الجريدة ولا غيره فوقع نديم في مصيبة كبيرة لانه حاول التخلص من جريمته فوقع فى أ كبر منها بارتكابه هذا الكذب الفاضح وفهم الناس سر المسألة بعد ان كان اكثرهم يجهلها ولكن الرجل قد انتصر عليّ بقوة منصبه الجديد. وقد جرت العادة في بلادنا ان العدو يعاكس عدوه في وظيفته فاستعمل نديم نفوذه في نظارة الداخلية وعرقل مساعى الاصلاحية في ولاية سوريا وجعلت نتائج أعماله تظهر فى انحائها وانتشرت الاراجيف والاكاذيب المفتراة عليّ مرة أخرى

كنت لم أدخل الاستانة منذ ثلاث سنين فانقطت اشاعات القائلين بأنى سأكون رئيساً للجمهورية واني ساقلب الملكية الى جمهورية وأشاع اعدائى عنى انى سأستقل بولاية سوريا ونحو هذا من الاشاعات وكان بهابك مكتو بجي ولاية سوريا قد كتب على باب المدرسة الصناعية سطرين ذكرني فيهما بأنواع المدح وذكر قبل كلمة التاريخ لفظة خديو (كلمة خديو معناها الصاحب او المالك وهي فارسية وتستعمل في التركية للتعظيم) فأذاع اعدائى انى أريد الاستقلال واحاول ان اكون خديوياً لسوريه وأشاعوا الخبر في الاستانة ونشروه ايضاً بواسطة الجرائد الاجنبية والاجانب لا يعرفون ان كلمات (خديو) و (آصف) و (داور) تستعمل لتعظيم الوزراء لان الاولى تستعمل للقب مليك مصر فغلب على ظنهم ان كتابة كلمة خديو على باب مكتب الصنائع تعد كاعلان رسمي لاستقلال الولاية وتوليتي خديوياً ولذلك قد خبطت الجرائد الافرنجية فى هذه المسألة خبط عشواء وكتبت الفصول المضحكة

وكنت قد أنشأت حديقة عمومية فتوجه اليها بعض الاجانب ونادوا باعلى

صوتهم قائلين (ليحيي مدحت باشا) وكان احد الضباط حاضراً فسل سيفه وهددهم وهو فى حالة السكر وقال ان كلمة (ليحيي) لا تستعمل الا في مقام الدعاء للسلطان وبينما هو يضربهم قبض عليه البوليس وسلمه للمعسكر وكان الضابط من أرباب السوابق فسجنه رؤساؤه وبعد ثلاثة أيام حضر من الاستانة تلغراف توبيخ الى احمد باشا وطلب الملازم الى الاستانة لمكافأته

وهذه المسائل ولو انها من الامور العادية ولكن تكرارها وارسال عدد من الجواسيس لمراقبة حركاتي وانتهاز موت أحد الجراكسة في السجن لانه أكل جبناً من اناء نحاسي قديم فتسمم وقد أثبت الاطباء موته بسم النحاس ولكن جودت باشا انتهز فرصة موته وأجرى تحقيقاً معي فعلمت أن الاستانة تضمر لي الشر وتثبطت همتي وبينما كنت في حالة اليأس أقدم الفرنسيون على أمور غير محمودة لان الحكومة العثمانية كانت قد أعطت جبل لبنان امتيازه وخصصت له مؤقتاً خمسة وعشرين ألف جنيه من ايراد جمارك الشام فحررت مكتوباً الى الصدارة طلبت به قطع هذا المبلغ فثار ثائر الفرنسيين

وكان نشر التعليم وانشاء المدارس قد أثر في نفوذهم الادبي وصادف ذلك أن رستم باشا متصرف لبنان قد توجه الى الاستانة وعاد وأذاع اني احاول تبديل نظام الجبل واحواله فأثرت اشاعاته أيضاً في افكار الفرنسيين . وصدر أمر الاستانة باعطاء المبلغ ٢٥ ألف جنيه من أموال الولاية ولكن فراغ الخزينة قد اضطرني الى تأخيره فقال أعدائي انه يريد تقهقر أمور الجبل وكانت الحكومة قد أبقت لنفسها حق استغلال مقدار من الاراضي وقدرت قيمتها بخمسين ألف جنيه ولم تدخلها في نظام الجبل بل أبقتها تحت تصرفها ولكنها قد نسيتها ولم تحصل ايرادها السنوي البالغ قدره ٤٠٠٠ جنيه وكتبت الى الباب العالي طالبا المحافظة على حقوق الحكومة فوصل الخبر الى سفارة فرنسا وتعرض رئيس احد الاساكل لاحد الوابورات الفرنسية لان قبطانه قد ارتكب أموراً لا يساعد عليها نظام البحرية فادعت حكومة فرنسا انني قد امرته بمعاكسة مصالحها على ان الموظف قد اجرى ما اجراه بغير علمي

وكان احد الفرنسيين قد اشترى من الحكومة مقداراً من الاراضي بمائة الف قرش ورفع دعوى على الحكومة وربحها فاخذ جودت باشا اراضيه أيام كان والياً لسوريا واعطاه ما يساوي عشرة آلاف ليرة من الاراضي جهة نابلس وكانت تلك الاراضي في يد اصحابها فمنعت تنفيذ هذا القرار فرفعت السفارة الفرنسية امر تلك الاراضى الى الباب العالي

فاجابها بان الحكومة تأمر ومدحت باشا يؤخر اوامرها لاغراضه فروجت الحكومة الفرنسية مفتريات اعدائي واوجدت اشخاصاً لرفع الشكايات

توالت عليّ هجمات الاعداء في الاستانة وفي سوريا وفى الخارج فرأيت ان ترك الوظيفة وحده يخلصنى من مخالبهم وقدمت استعفائي الى المابين وقلت فيما كتبته ان وصولي الى سن الشيخوخة وضعف قواي يمنعاني عن القيام باعباء الوظيفة فاجاب على فؤاد بك باشكاتب المابين قائلاً انك في السن الذي يمكنك من خدمة حكومتك ولذا فان جلالة السلطان لايوافق ابداً على استعفائك فيتحتم عليك البقاء في وظيفتك و بلغني ايضاً ثناء السلطان

وكانت الدسائس تدس ليل نهار وجرائد فرنسا تساعد اعدائى على نشر الاراجيف وصادف ذلك ان موسيو (لايرد) قنصل انكلترا قد حضر الى سوريا بقصد السياحة فاتخذ اعدائى حضوره فرصة بنواعليها الاراجيف وامتعض الفرنسيون وعزمت اذ ذاك على تقديم استعفائى مرة ثانية ولكن حدوث مسألة الدروز قد اضطرنى الى التأخير

و بينما انا مشتغل بهذه الامور ارسل اليّ المابين تلغرافاً قال فيه

ان خديو مصر المخلوع اسماعيل باشا قد توجه الى اوربا وارسل ولده الى الاستانة فقدم الاخير طلباً الى الحكومة راجياً منها الترخيص له بالاقامة مع عائلته في دار السعادة وقصد الرجل دخول الاستانة للفساد وقد قرر مجلس الوكلاء المنعقد تحت رئاسة السلطان رفض الطلب وقرر ايضاً اخذ رأي الصدور العظام المعزولين فاذا كان عندكم رأي غير الذي قرره الوكلاء فاكتبوه وارسلوه الى المابين

وكان يجب على موافقة الوكلاء على قرارهم لارضاء السلطان لانهـم قد فعلوا ما امرهم به فامتثل اسماعيـل باشا اوامرهم واخذ اولاده ونساءه وتوجـه الى ايطاليا واقامة نساء المسلمين في اوروبا لايبيحها الشرع ولذا فقد اتبعت الصراحة في قولي وكتبت للمابين مكتوباً قلت له فيه ان ابعاد الرجل عن الاستانة خطأ لان القائلين انه سيشتغل بالفساد قد بنوا قولهم على مجرد الوهم وستكون اقامتـه في اوربا سبباً للقيل والقال ولنفرض ان اسماعيل سيسلك مسلكاً مغايراً لمقاصد السلطان فوجوده في الاستانة تحت رقابة دائمة خـير للدولة من بقائه في اوربا على ان احتراس الحكومة العثمانية من امثاله لا يتفق مع عظمة الملك وهيبته . فاسخط هذا الجواب جلالة السلطان لانه قد ظن ان لي مقاصد أخرى وما اردت الا الخير

وظهرت حادثة الدروز وخلاصة هذه الحادثة هي ان بعض سكان جبل الدروز قد هاجموا قرية (بصر الحريري) وقتلوا بعض القرويين فحاولت الحكومة القبض على الجانين وطلبتهم من رؤسائهم وأمرت العساكر بتنفيذ أوامرها وكانت حوران معمورة ذات اراض منبتة وكان عدد القرى التابعة لها ٨٠ وكان اهلها مشتغلين بالزراعة ولكنهم كانوا يغيرون على اهل القرى المجاورة ويفتكون بسكانها وهكذا فعلوا باهالي قرية بصر الحريري وكان ما فعلوه بأمر رؤسائهم فامتنع الرؤساء عن تسليم الاشقياء لعساكر الحكومة ووقفوا في وجهها فاضطرت الى القبض على الجـانين بالقوة وأرسلت من الشام عدداً من الطوابير فاستعد الدروز للدفاع وكبرت المسألة

أما قبيلة الدروز فقد اشتهرت بالشجاعة وهم منتشرون في أطراف الولاية فقسم منهم يسكن الشام وقسم يسكن لبنان وقسم منهم يسكن حوران ويحافظ على عوائد سكان لبنان وغيرها ولكن سكان جبل الدروز يعتمدون على ارتفاع جبلهم واحاطته بالمحل المشهور باسم (اللجة) ويخالفون أوامر الحكومة ولمـا كانوا تحت ادارة (المصري) قابلوا القوة المرسلة اليهم واتحدوا مع أهالي اللجة وانتصروا على أعدائهم ولمـا توجه اليهم محمد باشا القبرصلي بقوة عسكرية هزموه أيضاً وقد اغتروا بقوتهـم في هذه

المرة وجمعوا جموعهم وقابلوا الحكومة فأرسلت اليهم جميل باشا بطوابير متعددة وقلت لمشير الفيلق انى مسئول عن كل تبعة تحدث

وكانت فرنسا تحاول دائماً كسر نفوذ انكلترا فكانت تحمي جماعة الموارنة وكانت انكلترا تتحيز للدورز فقام قنصل انكلترا بوظيفة الدفاع عن الدروز وكتب الى المابين والى الباب العالي فكانت الاوامر التلغرافية تردنى كل يوم قاضية بحسم هذه المسألة وكان قنصل الدولة الانكليزية يلح عليَّ في كل يوم فشمخ الدروز اذ رأوا هذه الحركة فامرت العساكر باستعمال السلاح وامرت القومندان فشتت شمل الدروز بعد معركة قتل فيها ٦٠٠ من افرادهم وحضر رؤساؤهم الى مركز الولاية واحضروا معهم اربعة اشخاص من الجناة وهكذا انتهت هذه المشكلة بعون الله وعنايته

و بعد اعادة الامن الى نصابه عين سعيد بك التلحوقي احد اعيان لبنان قائمقاما لجبل الدروز وعين له مأمورو الشرع والضابطة وكنت عازماً على بناء قشلاق للعساكر وتعيين من يلزم لجباية الاموال وانشاء الطرق ولكن دسائس اعدائى كانت مستمرة فرضيت بوصول المسألة الى هذا الحد وكنت قد كتبت الى الاستانة جملة برقيات فلم يصلني عنها جواب واحد

ولما وصل خبر انهزام الدروز الى الاستانة نشر الصحفي مدحت افندي في جريدته ترجمان حقيقت (وهي تصدر لليوم) يقول ان مدحت باشا قد فتح باب حرب على الدولة واثار الدروز بلا سبب ولما علم ان باب الثورة لا يرتج عزم على الاستعفاء فلم يقبل استعفاؤه فلما قرأت هذه العبارة عرفت انهم قد اوحوا الى مدحت افندي بكتابة ما كتبه في جريدته فقدمت استعفائى واجاب المابين بان محاسن توجهات السلطان التي يحتمها كمال لطف جلالته ومرحمته قد اقتضت ارسال رجل اليّ عند ما كنت فى جزيرة كريت وهذا الرجل لليوم مشغول ببعض امور الدولة في الخارج فيجب على ارسال رجل امين الى السراى السلطانية ليعطيه بعض اوراق ليوصلها الي وكان سبب استعفائى معلوماً ولم يؤثر في تأخير حضور

الشخص ولكن الادب قد اضطرني الى ارسال رائف افندي متصرف بيروت

ولما وصل رائف افندي الى الاستانة كانت الاشاعات الرسمية وغير الرسمية تنبئ بان حسين فوزي باشا مشير الفيلق السادس السابق واحد ياوران السلطان قد توجه الى ولاية سوريا ليبلغ مدحت باشا بعض الاوامر و بعد اسبوع وصلت اليَّ اخبار من بعض اخصائي خلاصتها انى اتظاهر بمعاداة احمد ايوب باشا (مشير فيلق الشام اذ ذاك) وانه يتظاهر بعداوتى للغير مع اتفاقنا باطناً وقد قدم بعض الجواسيس بذلك تقريراً الى جلالة السلطان فصدق اقوالهم وارسل حسين فوزي باشا فقابل الاخير رستم باشا متصرف جبل لبنان واجرى التحقيقات اللازمة ولما وصل الى الشام صدر الامر بعزل احمد أيوب باشا واحلاله محله لتسهيل امر عزلي بعد الاستيلاء على القوة العسكرية

وكانت هذه الاقوال تخالف العقل والمنطق فنظرت اليها بعين الاستهزاء وكانت متفقة مع الواقع لان حسين باشا قد وصل الى بيروت وتوجه الى دير القمر تواً لمقابلة رستم باشا واشتغل فى دير القمر وفي بيروت ببعض الامور العسكرية ولكن العاقل لايصدق روايات الاستانة ولا يحلم بها

و بعد وصول حسين باشا الى الشام بيوم قابلني و بلغني سلام جلالة السلطان وطلب مني تقديم عهود ومواثيق لجلالة السلطان ثم قال ان هذه هي وظيفته التي قد ارسله لاجلها جلالة السلطان فأسفت وتحيرت ثم قصصت عليه ما اجريته من يوم جلوس السلطان الى الآن وقلت له ان هذه الامور لاتحتوي على ما يوجب اخذ التأمينات واذا كان فيها ما يوجب التفكر فاخبرنى عنه فقال لي انك ستحول ولاية سوريا الى حكومة مستقلة وقد اجريت ما يحقق هذا الظن ولما ساح المسيو (لايرد) في الولاية قابلتموه باكرام وحفاوة زائدين ويقولون انكم تريدون الحاق جبل لبنان بسوريا فقلت له ان جلالة السلطان قد طلب منى التأمينات قبل هذه الاذاعات يوم كنت في اوربا و بعد وصولي الى جزيرة كريت وهذه الاكاذيب قد انتشرت بعد حضوري الى سوريا وهى عبارة عن خيالات وخزعبلات لا اصل لها ولا

يوافق عليها من عنـده ذرة من الانصاف فقال لي انه لايعرف ايضاً ما هو سبب طلب هذه التأمينات ثم افترقنا وفي اليوم التالي ورد امر تعيينه مشيراً للفيلق الخامس وعزل احمد ايوب باشا و بعد ثلاثة ايام جاءني تلغراف من الاستانة فحواه انى قد عينت والياً لازمير وان واليهـا حمدي باشا سيخلفني في وظيفتي وان حسـين باشا (مشـير الفيلق الخامس المرسل من المـابين للتحقيق) سيقوم باعباء امور الولاية الى يوم حضور حمدي باشا وان الاخير قد تحرك من ازمير على وابور مخصوص فيجب على الاسـتعداد لركوب الوابور الذي سيحضره الى بيروت للتوجه الى ازمير وقد ارسل المـابين ياوراً خصوصياً لتنفيذ هذا الامر

فقمت من الشام وقابلت حمدي باشا في بيروت وركبت الوابور متوجهاً الى ازمير فوصلت اليها في اواسط رمضان سنة ٩٧

﴿ مدحت باشا في ولاية أيدين « ازمير » ﴾

كنت اريد التخلص من الاشغال ولكن استعفائي لم يصادف قبولاً فكنت أمني النفس قائلاً ان استعفائي من ولاية سوريا سيوقف اعدائى عنـد حدهم ولا بد من انتهاز الفرصة الملائمة لتقديم الاستعفاء وستكون مدة اقامتي في ازمير غير مقرونة بالمتاعب كما كانت في سوريا ولكن حب الاصلاح قد امتزج بدمي كالعلة والعلة لا يقدر المريض على التخلص منها وكانت ولاية ازمير محتاجة لاصلاحات كثيرة أولها تطهيرها من الاشقياء وقطاع الطريق وخصوصاً نفس المدينة فقد كثر فيها اشقياء الاجانب والوطنيين ولم تكن هناك وسيلة لاعادة الامن الى نصابه غير ايجاد عدد من عساكر الضابطة فأحـدثت فرقاً من البوليس والجاندرمة واستعنت بهذه القوة على اعادة الامن في مدة قصيرة في مدينة ازمير وفي ملحقاتها

وكان حمدي باشا قد بذل الهمة في انشاء مدارس ابتدائيـة واحدث مدرسة للصنائع فاتممت نواقصها وفتحت جادة كبيرة عرضها عشرون ذراعاً وأسست شركة ترام برأس مال قدره ٦٠٦٠٠٠ جنيه واستحصلت على رخصتها وفتحت طريقاً من ازمير الى (أورله)

وبينما كنت مشغولاً باجراء هذه الاصلاحات في ازمير كانت الجمعية المعلومة في الاستانة تواصل الليل بالنهار لاذاعة الاكاذيب والمفتريات وأخذ بعضهم يذم أعمالي في ازمير واستردت الحكومة فرمان الطريق والترام المزمع انشاؤهما في ازمير وأرسلت السراى عدداً من الجواسيس لمراقبة حركاتي وحركات رشدي باشا المقيم بجهة (مغنيسا) وكانت جرائد اليونان قد شنت الغارة على تركيا فادعى مدحت افندي (مدحت افندي صاحب جريدة ترجمان حقيقت) في جريدته ان مدحت باشا قد أوعز الى تلك الجرائد بكتابة ما كتبته ثم أردف اشاعتـه بخبر فحواه انى قد جننت فنشرت كل جرائد الاستانة هذا الخبر

وقد عرف العقلاء ان القصـد من هـذه المفتريات تعويد الناس على سماع الاكاذيب والمفتريات ولكنهم كانوا يألمون من هـذه الاراجيف عالمين انها تغير آداب الامة وتؤثر في اخلاق الافراد لاسيما وانى كنت قد اشتهرت بالغيرة على الوطن ولا يصـدق عاقل في داخل البلاد ولا في خارجها انى اشارك اعداء الدولة كاليونان وكيف يصدق وقد عينت والياً لولاية كبيرة كولاية ازمير وكل ما يلصق بي من التهم بعود على الحكومة ايضاً وكان الصدر الاعظم سعيد باشا (هو الصدر الحالي) يحمي جريدة ترجمان حقيقت فكتبت اليه مكتوباً ولكني لم احظ بجواب

كانت هـذه الهجمات تحصـل فى شهر نيسان وانتشرت في ازمير حوادث منشأها الاستانة وخلاصتها ان السلطان عبد العزيز لم ينتحر ولكن البهلوان مصطفى ورفاقه المرسلين من سراى السلطان مراد لخدمة عبد العزيز قد قتلوا الاخير وانهم قد اقروا بجنايتهم عند استجوابهم وان الصهر محمود جلال الدين باشا والصهر نوري باشا واحد مابينجية عبد العزيز وغيرهم قد وقفوا على جلية الامر وعاونوا الجناة على فعلتهم وقد سجنهم السلطان في سراى يلدز

قطع عبد العزيز شريانا من شرايين ذراعه بينما كان مقيما في سراى (فرعيه) بين افراد عائلته وقد علم الخاص والعام كيف انتحر ولم يشك احد في امر انتحاره فكيف بعثت هذه المسألة من قبرها بعد خمس سنين

تعجب الناس من هذه الاشاعة وتأسفوا وكانوا ينتظرون النتيجة بفروغ صبر
وكتب اليَّ أحد أصدقائي يقول ان السلطان قد ابعدني عن الاستانة وابعد ايضاً
محمود جلال الدين باشا ورشدي باشا لانه يشك في اخلاصنا ومع هذا وذاك فسيمحو
اثرنا ويخدع الناس مدعيا اننا قد ارتكبنا جناية كبرى وان محمود نديم باشا وجودت
باشا والدلى نصرت باشا وسروري افندي ومحمود بك احد اعضاء شورى الدولة
وغيرهم من رجال السلطان قد ألفوا لجنة لترتيب هذه الفرية وقد آن أوان العمل
ولذا فقد نقلوا سروري افندي من رئاسة محكمة الجنايات الى السراى للتحقيق
وجلبوا مصطفى البهلوان ورفاقه الى يلدز فقالوا ان التهمة لا أصل لها ولكن
سروري افندي ورفاقه أعضاء الجمعية قد أمروا بتعذيب مصطفى ورفاقه وفخري بك
المابينجي فتركوهم اياماً بلا نوم ووضعوا على رؤوسهم الحديد الملتهب وتحت
آباطهم البيض المحمى في النار وفعلوا بهم ما لم نسمع به في الاعصر الخالية فلم يغيروا
اقوالهم ولكن مصطفى البهلوان لم يتحمل شدة العذاب وجاراهم على افكارهم قائلا
ان السلطان المرحوم قد قتل بامر الصهر محمود باشا ورفقائه فاذاعوا بين الناس انه
قد اقر بالحقيقة و بعد هذا المكتوب كانت الاشاعات تتلو الاشاعات وكان الاجانب
وغير الاجانب يحضرون من الاستانة الى ازمير على الوابورات مزودين باخبار هذه
المسألة مفصلة

وكنت اتعجب من اختيار السلطان لعمله رجالاً يشك في اخلاصهم وكيف
يفتري عليهم الكذب مع قدرته على ابعادهم وحبسهم بل كيف يتخذ قصر السلطنة
سجناً للجناة و يعذب الناس في سرايه ويأمر باجراء ما يخالف القوانين ويحط من
قدر الدولة. وكنت لا أصدق ما احتوت عليه المكاتيب ظاناً ان السلطان لا يرضى
بمثل هذه الامور وصادف ذلك ان وقع زلزال في جزيرة ساقز فجمعت مقداراً من
الاعانة وأرسلته لاهلها البؤساء فارسل السلطان الي يظهر امتنانه وكانت رسائل
الثناء والمدح ترسل الي من المابين كل يوم فكنت اظن ان الاخبار السالفة الذكر
غير خالية من المبالغات

وبعد أيام أرسل الي احد اصدقائي المقربين من السراى الواقفين على اسرارها رسولا يقول ان رجال الحركة الحالية في الاستانة يرومون ايقاعى أنا ورشدي باشا في فخ وان بعض ذوي الضمائر الحرة لايؤيدونهم ويبذل لي النصح قائلاً (فاخرج اني لك من الناصحين)

وحضرني احد اصدقائي الاجانب وقال لي انى قد أحضرت وابوراً مخصوصاً لركوبك وارسالك الى اوربا فرفضت طلبه غير مكترث بهذه الاشاعات الكاذبة وقلت ان ذهابي الى اوربا يكون كحجة قوية لاعدائي وكيف ارتكب جريمة الفرار لمسألة لانصيب لها من الصحة ومع هذا فاذا كانت مسألة قتل عبد العزيز تتعلق بي وبرشدي باشا فلم لم يسألنا أحد عن أسرار هذه المسألة لليوم ولم لم يجلبونا الى الاستانة سوالنا عن التهم المرتبة ضدنا

وفى يوم الاثنين ٤ مايس وليلة الثلاثاء بينما كنت نائماً في دار الحكومة في دائرة الحرم بين أفراد عائلتي احاطت بدار الحكومة ثلاثة طوابير من العساكر بعد نصف الليل

(المترجم) لم يدر احد كيف اخذوا المرحوم مدحت باشا الى السراى وكيف حكموا عليه وعلى رفيقه المرحوم محمود جلال الدين باشا ولذا فسنترجم كتاب محاكمته وننشره بين قراء العربية ليقفوا على أسرار المسألة تمام الوقوف ونشرح اليوم قصة خلع عبد العزيز نقلاً عن مذكرات المرحوم

﴿ لم خلع عبد العزيز ﴾

ان خلع السلطان عبد العزيز قد تم باتفاق افكار الامة لسلامة الدولة وكان جلوس السلطان عبد الحميد نتيجة طبيعية لهذا الخلع وبعد ان جلس جلالته على تخت أجداده عزل الوكلاء (النظار) الذين قد سببوا خلع عبد العزيز لسبب لا نعلمه واسقط مدحت باشا من منصب الصدارة ونفاه من الاستانة الى اوربا

ولكن تذمر الشعب وتطلعه الى اسباب عزل مدحت باشا وابعاده قد اضطر

عبد الحميد الى تخدير أعصاب الامة فأذاع بواسطة اعوانه وجرائدهم ان اوراق مدحت باشا قد ضبطت وانه ضد اعضاء البيت المالك وانه قد الغى الارادات السنية

و بعد هنيهة ارسل رشدي باشا الى مغنيسا (هي بلدة قريبة من ولاية ازمير) وارسل خير الله افندي الى الحجاز وكان قد ارسل السردار عبدي باشا ورفيقه رديف باشا الى رودس بغير حكم قانوني وظهرت له براءة سليمان باشا وادانة رؤوف باشا ولكنه قد اصدر الحكم على الاول ونفاه ونفى عدداً كبيراً من الضباط وطردهم من الجيش

وعلى كل حال فان عبد الحميد لم يبق في الجيش ولا في وظائف الحكومة رجلاً تداخل في خلع عبد العزيز فابعد بعض العلماء و بعض رجال الجيش و بعض رجال السراى في مدة قصيرة فعرف الناس قصده

وكان يريد بهذه الافعال تسكين افكار رجال السراى ولكن سوء نتيجة الحرب الروسية قد أكثر التقولات بين الناس وانتشر ايضاً خبر شفاء السلطان مراد وظهرت واقعة السعاوي فوقع رجال السراى الحميدية في كارثة وظنوا ان رجال الحركة الوطنية المسببين لخلع عبد العزيز وسجن مراد لا يتركون السلطان الجديد حرا ما داموا في قيد الحياة وكان رؤوف باشا قد توجه الى روسيا بعد جلوس السلطان وعاد وقد حمل وصية من امبراطور الروس فحواها وجوب ابطال القانون الاساسي (الدستور) للمحافظة على استقلال السلطان ونصح لعبد عبدالحميد اخصاؤه أيضاً باتباع هذا الرأي والانتقام من مسببي خلع عبد العزيز ولكن انتحار عبدالعزيز قد حصل في وسط نسائه وجواريه وخصيانه ولا سبيل الى عزو امر قتله الى اساطين الدولة وعظمائها الا بتصنيعه بمسوغات قانونية وتنفيذها بواسطة قضاة المحاكم الحديثة العهد اذ ذاك لان رجال سراى عبد العزيز قد علموا انه انتحر ولا يتصور احدهم انه قد قتل بأمر السلطان مراد ولكن جودت باشا ناظر العدلية قد تعهد

باسناد هذه الجناية الى مسببي الخلع واثباتها بواسطة القوانين الجديدة ورجال القضاء الاحداث

ولما كان التزوير باسم الحكومة يصغرها في أعين اهل الانصاف أحضر محمود نديم باشا جماعة الى الاستانة من جزيرة مدللى ومن الخارج اذ لم يجد في الاستانة من يساعده على تزييف البهتان وافتراء الكذب على أرباب الشرف واهل الانصاف وكون منهم جمعية .

وقد اشتغلت الجمعية تحت ستار الخفاء سنة في الاستانة وهيأت الاسباب ورأت الفرصة سانحة وقال افرادها ان الصهر محمود باشا لم يشترك في أمر خلع عبد العزيز ولكن محوه خير من وجوده لان باب الاتهام واسع ولا بأس من ادماجه في زمرة المتهمين وادخلوه مع غيره من الابرياء وفي الختام أصدر قومسيون الفصل المضحك ـ المجتمع في السراى تحت اسم قومسيون التحقيق ـ قراره باعدام احد عشر شخصاً منهم السلطان مراد ووالدته والبشوات رشدي ومدحت ومحمود ونوري وحبس شخصين عشر سنين وصدر الحكم باسم نظارة عدلية الدولة (المترجم) وسأشرح أسرار هذه القضية في كتاب محاكمة مدحت باشا بالتفصيل :

عرف الوكلاء أن هذه الاحكام غير صحيحة فلم يوافقوا عليها فبقى في الاستانة من المحكوم عليهم السلطان مراد ووالدته ولم يتحمل رشدي باشا تهديدات الحكومة بعد هذا الحكم فمات على الاثر وأرسلت الحكومة بقية المحكوم عليهم الى الطائف وألحقت بهم خير الله أفندي (وكان قد أرسل الى مكة) قبل أن توجه اليه سوالاً ولا جواباً . قضى الامر وجف القلم وانتهت المسألة التي اشتغل بها المابين زمناً طويلاً وحصل له المطلوب وصدقت المحكمة الرسمية على القرار وأصدرت حكمها طبق ارادة المابين بانية اسبابه على جناية كبرى لا يتصور ابن آدم اجتراح أكبر منها ولم يبق لاحد مجال قول خصوصاً بعد ان صدر على الجناة حكم الاعدام واشفق السلطان عليهم فخفف الحكم وحوله الى النفي المؤبد

ولكن هذه الظواهر لم تخدع الرأي العام لان تهديد البهلوان مصطفى ورفاقه

في محكمة يلدز قد ذاع وملأت اخباره الاسماع ووقف القاصي والداني على ما هنالك من الاسرار خصوصاً بعد المحاكمة وقد ملأت جرائد اوربا اعمدتها بذكر تلك الاعمال الوحشية فشوهت سمعة الحكومة بين أهل الاستانة وبين الاجانب وندم مرتبو المسألة فلم يجسروا على اعلان صورة الحكم ومنعوا صحف الاستانة عن الخوض في جزئيات المسألة وكلياتها ولم يسمع احد من يوم خلقة آدم الى ذلك الوقت أن محكمة تفتري الكذب وتصدر أحكاماً على رجال أبرياء من العظماء قاضية باعدامهم ولذا فان الاجانب لم تساعدهم قلوبهم على اخفاء تلك الاهوال

وقد ضيقت الحكومة الخناق على المحكوم عليهم بالنفي الى الطائف واستعملت معهم أنواع الشدة وضروب التعذيب ومنعت عنهم عائلاتهم رغماً عن وعود السلطان بارسالها وليت الامر قد بقي عند هذا الحد فقد خافوا افتضاح أمرهم فحبسوا كل واحد في مطمورة بقلعة الطائف ووضعوا على باب الحجرة عدداً من الحراس ومنعوا المحبوسين عن مكاتبة أولادهم وقد جرت العادة من قديم أن يخابر السجين أهله وأصدقاؤه بعد صدور الحكم عليه ولم تمنع قوانين أي دولة المجرم السياسي من مخابرة أهله بعد نفيه واجلائه عن بلاده ولكن رجال السراى كانوا يريدون اخفاء جنايتهم عن الجمهور وقد عرف الشعب خفاياهم ولم تخدعه ظواهرهم وكان عبد الحميد يركب عربته ويذهب الى بعض منتزهات الاستانة في كل عام مرة او مرتين فلزم سرايه بعد هذه الحادثة واتسعت شقة الخلاف بينه وبين الامة

غلت مراجل الصدور فلم يفه رجال السراى ببنت شفة فعلم الناس ان المقيمين في سجن الطائف قد ابتلعتهم الغول التي قد فغرت فاهاً في الاستانة وسكت رجال السراى وحظروا ذكر اسم مسجوني الطائف على العامة والخاصة ولم يبيحوا لاحد ذكر اسم السلطان مراد ثم عزوا الى مسجوني الطائف بواسطة جرائدهم وسماسرتهم أموراً لا تدخل تحت حصر لذر الرماد في أعين البسطاء قائلين ان مدحت باشا قد حاول تحويل الحكومة من ملكية الى جمهورية وأراد الفتك بأعضاء البيت المالك ليكون رئيساً للجمهورية وكرروا الاشاعات التي قد أشاعوها قبيل ابعاده الى اوربا

وأردفوها بمفتريات جديدة قائلين ان مدحت باشا قد سبب حرب الروس واوقع الدولة في كوارث لا طاقة لها باحتمالهـا ولم يتركوا في دوائر الحكومة سيئة او خطأ الا وقد ألصقوه بمدحت باشا ولم ينسوا الصهر محمود باشا اذ اختصوه بقسم من هذه المفتريات

ونشرت جريدة الجوائب العربية في سـنة ٩٩ هجريه مقالة بايعاز السراى قالت فيها ان غوائل الدولة الداخلية والخارجيـة هي نتيجة سوء تدبير الصهر محمود باشا ورفيقه مدحت باشا لان الاول كان يصدر في زمن الحرب الروسـية الاوامر الى الفيالق وهو في سريره ففشل بسبب أوامره القواد وأما الثاني فقد حاول تحويل الدولة الى جمهورية واتفق مع الاول فاوقع الدولة في كوارثها الحالية

لجأ عبد الحميد الى جريدة الجوائب العربية لنشر مفترياته لان جرائد اوربا قد عجمت عوده ووقفت على سر المسألة فلم تنخدع باقوال السراى ولذا فقد نشر هذه المرة مقالة طويلة في الجوائب ووزع ألوفاً من نسخها على عربان البوادي

ومن العجيب ان قواد الفيالق وضباطها كانت الاوامر تصدر لهم من السراى السلطانية وقد نشرت هذا الخبر جريدة زبدة الحقائق فكيف يلصقون هذه التهمة بمحمود جلال الدين باشا ويقولون ان القواد قد انهزموا بسبب الاوامر التي اصدرها لهم ولم ينشروا أمراً واحداً من الاوامر التي أصدرها

أما مدحت باشا فكان قد سافر الى اوربا قبـل اعلان الحرب بأربعة أشهر وبقي هناك الى ان انتهت فكيف يكون مقيما في اوربا ويتحد مع الصهر محمود باشا في الاستانة ويشير عليه باعطاء الاوامر للقواد سبحان الله

اذا اختلف اثنان من الافراد وعجز أحدهما عن اثبات حجتـه عزا الى رفيقه أمورا تافهة ظاناً انه يتبرأ من تبعة جريمته بعزو الجريمة الى غيره وقد رأينا أمثال هذه الوقائع من الافراد فلم نتعجب ولكننا لم نر دولة تفتري الكذب ولا قرأنا مثل ذلك في أساطير الاولين لان الدولة يتكون مجموعها من جماعة الرؤساء والعظماء والوكلاء وهم مسئولون عن احوال الملة واذا قام فرد او فردان بعمل ينتج انقراض الدولة

فكيف يسكت العظماء والاكابر وأي عجز يضطرهم الى السكوت وما الذي يمنع الحكومة عن مجازاة الجناة وما الذي اضطر الحكومة الى جلب مدحت باشا من اوربا بأنواع الاعزاز اذا كان قد ألقى الدولة في أزمة هو والصهر محمود جلال الدين باشا وكيف سلمت اليه الحكومة ولاية كبيرة كولاية ازمير وسلمت الى رفيقه ايضاً ولاية طرابلس الغرب وكيف احتاجت الدولة اليهما وفي أية حكومة تلقى تبعة خطأ الحكومة على عاتق شخصين غائبين وقد عرف صبيان المكاتب براءتهما مما عزى اليهما فهل برأت الحكومة نفسها من وصمة العار وظهرت مرفوعة الرأس امام الشعب بعد الحكم عليهما

عزوا الى الصهر محمود باشا والى مدحت باشا ما وقع فى أمور الدولة من الخطأ منذ سبع سنين وفتحوا باب الوشايات و بذلوا الاموال للشعراء ولارباب الصحف الذين لا شرف لهم

فأذاع بعضهم ان مدحت باشا قد عامل البلغار بقسوة أيام كان والياً لولاية الطونة فتغضب لمعاملته الروس ولولا قسوته لتخلص العثمانيون من غائلة الحرب وقال بعضهم ان مدحت باشا قد أنشأ الطرق فسهل للرسول دخول الاستانة وذهب بعضهم الى ان مدحت باشا سبب الحرب برفضه طلبات اعضاء المؤتمر المنعقد في الاستانه

وكانت مثل هذه الاقوال تؤثر في عقول البسطاء وكان مدحت باشا ورفاقه اذ ذاك في قلعة الطائف محرومين من وسائط الدفاع عن أنفسهم ولم يكن احد يجسر على التلفظ باسمائهم في الاستانة ولا في الولايات

ولنبدأ الآن بتزييف أقوال أعداء الحقيقة الذين قالوا ان مدحت باشا كان يقصد تحويل الحكومة من ملكية الى جمهورية وكانت نفسه طامحة الى رئاسة الجمهورية فكيف تحول الحكومات اذا كان المراد من التحويل اعلان القانون الاساسي (الدستور) فهو ممكن وجيه لان الدستور يحول ادارة الحكومة من الاستبداد الى الشورى وينقل رعايا الدولة من الاسر الى الحرية ويحدد وظائف

رجال الحكومة و بذلك يغير شكل الحكومة وهيئتها وقد أعلن عبد الحميد الدستور لتحسين حالة الامة واصدر اراداته القاضية باعلانه

أما الجمهورية فلا سبيل الى ذكرها عند اعلان الدستور والناس لا يجهلون ان الجمهوريات تكون بلا ملوك على ان مواد القانون الاساسي محتوية على ما يوجب ادارة الشؤون تحت رئاسة احد اعضاء البيت المالك وتسمية مجموع رعايا الدولة بالعثمانيين وهذان الشرطان هما روح القانون الاساسي واذا فقدا فقد الدستور واذا ثبت ذلك فكيف يتصور عاقل ان مدحت باشا الذي قد اشتغل كل هذه المدة وعرض حياته للخطر قبل اعلان القانون الاساسي يسعى تحت ستار الخفاء لقلب الحكومة الى جمهورية وابطال الدستور والحكومة الاسلامية محتاجة الى امام ووجود هذا الامام من شروط الدين الاساسية فكيف يذهب عاقل الى اسقاط الملكية واقامة الجمهورية مقامها

ولنصرف النظر عن كل هذه الادلة ونفرض المحال قائلين ان مدحت باشا كان يمني نفسه برئاسة الجمهورية وقد جلس السلطان مراد على أريكة اجداده واعتلت صحته و بقيت امور الحكومة ثلاثة أشهر في قبضة رشدي باشا ومدحت باشا وكانا قادرين على اخراج كل نية الى حيز الفعل ولكنهما قد اشتغلا بما يعود على الدوله بالفائدة ليل نهار ولم يلاحظ احد عليهما ما يوجب الشك في اخلاصهما واذا لاحظ فما هي براهينه وكيف حاول مدحت باشا قلب الحكومة الى جمهورية بعد اجلاس عبد الحميد على أريكة اجداده

عرف الناس كذب هذه المفتريات ولكن اذاعتها بين الناس والتحدث بها كان يحصل لاسباب لا يجهلها الواقفون على سياسة الروس لان دهاء هذه الدوله يفوق قواها البريه والبحريه وقد استولت بهذا الدهاء على (اللهستان) و (القريم) و (أسيا الوسطى) وسلخت بلاد البلغار عن جسم الدوله

وقد عرف الروس عوائدنا واخلاقنا ودس الجنرال (ايغناتيف) دسائسه لعزل مدحت باشا من ولاية الطونه واذاع عنه انه يريد احداث ثورة ويحاول تغيير

شكل الحكومة وأوصل الاشاعة الى الحرم السلطاني وملأ بها اذن بعض البسطاء وكان السلطان عبد العزيز يعرف منشأ هـذه الاشاعات واسبابها فلم يأبه لهـا ولكن أثرها قد بقي في اذهان بعض البسطاء ولمـا تولى محمود نديم باشا امور الصدارة للمرة الثانية حاول الانتقام من مدحت باشا وترويج افكار الجنرال ايغناتيف لارضاء حكومة الروس فدس دسائسه وافهم رجال السراى ووالدة السلطان و بعث هذه المفتريات من قبرها

ولمـا خلع السلطان عبد العزيز وظهرت مسألة القانون الاساسي واجتمع مجلس المبعوثين وفارق السراى السلطانيـة ١٢٠٠ سائس و١٠٠٠ (طبلكار) و (طاه) (الطبلكار هو الذي يحمل طبـلات الطعام) و٦٠٠ (قواربي) وأمثالهم من الخدم والخفراء وغـيرهم ولم تخصص الحكومه لاحدهم مرتباً بسبب الضائقة المـالية فحقدوا على الحكومه هم وغـيرهم من رجال حاشـية عبد العزيز وحاربوا القانون الاساسي (الدستور) بكل قواهم ونشروا بين الناس أقوالاً لا يصدقها الا البسطاء منها أن الدستور سيحدد سلطة السلطان ولم يكتفوا بهذه الارجوفة بل قالوا ايضاً ان القانون الاساسي سيلغى ويقلب شكل الحكومه من ملكيه الى جمهوريه ويكون مدحت باشا رئيساً لتلك الجمهوريه

ولمـا تولى مدحت باشا أمور الصدارة للمرة الثانية وأعلن القانون الاساسي دبت في الدوله روح الحياة الجديدة وأجاب رجال الدوله روسـيا عن مطالبها في مسألة الروميلي ووافقت الدول الاوربية على ذلك وبدأ رجالهـا بالاصلاحات لاسكات الروس وشكلوا عدداً من العساكر المتطوعه في بعض الولايات فكان النـاس يميلون الى الاصلاح ويحبذون افعال حكومتهم وتفاءل محبو الاصلاح بقرب انفراج الأزمة التي قد استمرت ثلاث سنين

كل هذه الاعمال لم تؤثر في خط حركة الروسيا بل استمر الجنرال (ايغناتيف) في طريقه وأذاع الاراجيف الاولى فاثرت في رجال السراى وقالوا ان مدحت باشا قد حاول قلب الدوله الى جمهورية ليكون رئيس الجمهورية في المستقبل وقد رتب

جيشاً من متطوعي الاهالي في الولايات وفي الاستانه لاعلان الجمهوريه واذا لم يتدارك السلطان هذا الامر بحكمته حاصر هذا الجيش السراى واسقط الملكيه واحل الجمهوريه محلها

وقد انتجت هذه الاشاعات نتائج مشهورة منها جلب مدحت باشا الى السراى واخذ خاتم الصدارة منه وارساله الى اوربا والغاء طوابير العساكر المتطوعه في الولايات وفي الاستانه والغاء القانون الاساسي (الدستور) بعد وعد الدول باعادة نشره في اول فرصة وايصاد أبواب مجلس المبعوثين وفضه

نعم انتجت اذاعة الاراجيف هذه النتائج وظن مذيعوها انهم قد ربحوا ولكن من الرابح ومن الخاسر

نصح الجنرال (ايغناتيف) للسلطان وكانت نتيجة نصائحه حضور عساكر الروس الى (سان استيفانوس) فكيف ربحت الدوله في معاهدة (سان استيفانوس)

رأى الناس بأعينهم نتيجة هذه الحيل وعرف الذين في قلوبهم مرض نيات الروس ولكن لات حين مناص واشتغل الناس عن ذكر ما عزى من المفتريات الى مدحت باشا بعد ان نفى عبد الحميد عبدي باشا ورديف باشا ورشدي باشا وسليمان باشا وغيرهم من العلماء والعظماء ورجال الجيش وأغلق بيوتهم وترك عائلاتهم في حاجة الى القوت ظاناً انهم قد اشتركوا في خلع عبد العزيز وكان العوام والخواص يشهدون ان هؤلاء غير مسئولين عن تبعة هذا الامر وكان عبد الحميد يريد ابعاد عظماء الدوله لان شيطانه كان يوسوس في صدره فرتب رجاله فرية قتل عبد العزيز واعادوا ذكر المفتريات القديمة ولكن سكان الولايات لم يصدقوا هذه الاكاذيب

اما بلاد العرب فان سكانها لا يشتغلون بسياسة الدولة واخبار الاستانه لبعد الشقة بين بلادهم و بين الاستانه ولذا فقد نشر رجال السراى في هذه المرة مفترياتهم في جريدة الجوائب فكتبوا ما خلاصته ان مدحت باشا سيقلب الدولة الى جمهوريه ليكون رئيساً وان محمود باشا الصهر كان يصدر الاوامر الى قواد

الفيالق وهو راقد في سريره وهذا هو الذي سبب هزيمة الجيش العثماني وانتصار الروس

رتبوا الاراجيف وقالوا ان مدحت باشا يبغض أعضاء البيت المالك ولا يتصور عاقل ان هذه العداوة تكون شخصية لان مدحت باشا لا يعرف فرداً من أعضاء العائلة المالكة فلا سبيل اذاً الى العداوة الشخصية واذا كانوا يبرهنون على صدق دعواهم بمسألة عبد العزيز فهذا غلط لان خطأ الفرد لا يشمل المجموع نعم ان عبد العزيز قد خلع لوقاية مصالح الدولة وجلس السلطان مراد على أريكة الملك وتبعه عبد الحميد فهل الاخير من غير أعضاء البيت المالك واذا كانت هيئة الوراثة باقية على القديم فكيف يدعي أعداء الحقيقة ان بعض الوكلاء حاقد على أفراد العائلة المالكة وأي فائدة تنتج من هذا الادعاء وكيف يقدم شخص أو أشخاص على خلع ملك جليل القدر لعداوة شخصية

ولنذكر الآن مسألة الخلع وهي من المسائل التي قد عرف أسبابها الجمهور فلا حاجة الى تكرارها ورجال عبد العزيز قد أحفظهم أمر خلعه لانهم من المخلصين لسيدهم وهم يقولون انه برئ مما عزى اليه واذا كان قد ارتكب ذنباً فلم لم ينبهه الوكلاء (النظار) ولم قدموا خلعه على النصيحة

هذا ما يقوله خواص عبد العزيز ورجال حاشيته وهم غير ملومين بيد ان بعض أرباب الاغراض كانوا يستعملون هذه الاحدوثة كسلاح انتقام فيقولون ان نصيحة السلطان المخلوع لم تكن خارج الامكان وقد خلعه اربعة اشخاص لمنفعتهم الشخصية وقد حضر عدد غير قليل من رجال الاستانة الى الوكلاء بعد خلع عبد العزيز واثنوا عليهم ثم عادوا فجاروا المنافقين على افكارهم فكثر عدد المداهنين فرأينا من الواجب شرح هذه المسألة في الاسطر الآتية

ونسأل اولاً هل ارتكب عبد العزيز من الامور ما يوجب خلعه في أواخر أيام حكمه ولو نظرنا الى أحوال الدولة الداخلية والخارجية نظر انصاف لحكمنا أن السلطان عبد المجيد المرحوم لم يترك من الديون سوى خمسة وعشرين مليوناً ولكن

عبد العزيز قد أسرف و بذر فوضع الدولة تحت عبء ثقيل من الديون فبلغ دينها في زمنه مائتي مليون من الليرات وكانت الدول الغربية قد ساعدت الدولة في حرب القريم مساعدة مادية و بدنية

وقررت في معاهدة باريس باتفاق الآراء حفظ مجموع الدولة بيد أن عبد العزيز قد وافق الروسيا على أعمالها وأخر الخطوط الهمايونية القاضية باجراء الاصلاحات المطلوبة فضاعت ثقة اوربا بنا وولى محمود نديم باشا مهام الصدارة بعد عالي باشا فأضاع نديم شرف الدولة بأعماله وزاد الطين بلة بمسألة السهوم العمومية التي أظهر بها فراغ مالية الدولة واضاع مجد الامة القديم واقترض باسم مصر مقداراً من الاموال وحاول عقد معاهدة مع الاجانب فلم يقبل الوكلاء طلبه ورفضوه رفضاً باتاً واصدر خطاً همايونيا قبل اخذ رأي الوكلاء خالف به قوانين الدولة ونظاماتها المتبعة وكان يأخذ الاموال من خزينة الدولة ويوزعها على أخصائه واباح لبعض رجال سرايه عمل أوراق مالية وتوزيعها على الناس بلا فائدة واعلن ان الحكومة لا تعطى فائدة لحاملي الاوراق المالية وأخذ هو فائدة سبعة ملايين من الجنيهات وسرق محمود نديم باشا مائة ألف ليرا من اموال الحكومة فعفا عنه ونفي عدداً غير قليل من الوزراء والعظماء بلا محاكمة لغير سبب قانوني وجازى موظفي الحكومة الموجودين في بلاد البلغار زمن الثورة البلغارية ولما ثار البلغاريون تأخر عن ارسال عدد من العساكر لقمع الثوار والمحافظة على ارواح المسلمين فذبح البلغار عدداً من المسلمين.

وكانت سيئات عبد العزيز ظاهرة لا يقدر على احصائها كاتب منها انه أخذ سنداً بمليون من الليرات من ظريفى بازركان في مسألة تحويل الديون والقرض الذي قد عقد عقيبها

ونحن نريد تدقيق هذه المسألة بلا تحيز الى أحد الفريقين فنسأل عن الامور الآتية وهي :

أولاً هل جرت الامور السالفة الذكر

ثانياً من الفاعل

ثالثاً   اذا أثبتت هذه الامور فهل تقع الدولة في خطر

ان الذين لم يقفوا على حقائق الاحوال او الذين في قلوبهم مرض لايعترضون على هذه المسائل لان المسألة ليست من المعنويات بل من الامور التي قد ظهرت للناس وأثرت في عظمة الحكومة وعرفها القاصي والداني في انحاء بلاد القطر وفي الخارج واذا ظهرت هذه المسائل ولمست باليد ظهر ولا شك فاعلها واذا فرضنا المحال وقلنا ان هذه الكبائر لم تصدر من عبد العزيز وجب ان نفرض وجود سلطان غيره وهذا من المستحيلات واذا كانت بعض الفظائع قد صدرت من محمود نديم باشا وأسعد باشا لخيانة أحدهما وعجز الآخر عن القيام باعباء وظيفته فهذان الشخصان قد توليا امور الدولة لترويج مآرب عبد العزيز فظهرت مثالب محمود نديم باشا وفظائعه في صدارته الاولى ورغماً عن كل ذلك فان عبد الحميد قد أعاده الى منصب الصدارة غير ناظر الى استغاثة الشعب فأوقع الدولة في أزمات أشد من الاولى ولا يظن عاقل ان أفعاله كانت مغايرة لمقاصد السلطان عبد العزيز

واذا نظرنا الى وقوع الدولة في أزمات وميلها الى الانقراض بسبب هذه المسائل ونظرنا الى القاعدة الكلية القديمة وهي : ان مدار حياة الدولة على المال والرجال : وعرفنا فقدان هاتين الواسطتين من بلادنا بسبب تبذير عبد العزيز الذي ادخل الامة العثمانية تحت اعباء الديون واضطر الحكومة الى اعلان الافلاس فنزلت من درجة عظمتها الى دركات حضيض الذل وابتعد اصحاب الشرف والاباء عن خدمة الحكومة وتقرب اليها الاوغاد الخاملون الذين يطأطئون رؤوسهم للعظماء ولا يهتمون بأمور الحكومة وكانت الروسيا تحاول ترويج مقاصدها من يوم حرب (القريم) فكان رجال الدولة يظاهرونها فاحفظ ذلك دول الغرب والخلاصة ان رجال السراى كانوا يروجون مقاصد الجنرال (ايغناتيف)

وقد ظهرت نتائج أفعالهم ومقدماتها وحق على عبد العزيز سخط الامة

ما الذي كان يجب على النظار عمله ازاء هذه الاحوال وهم المسئولون امام

الشعب بعد الخليفة هل كان يجب عليهم السكوت وايقاع الامة في هاوية الخراب واذا فعلوا ذلك فمن يكون المسئول

ان كل رجل مكلف بوقاية وطنه من المخاطر ووكلاء الدولة تحتم عليهم وظائفهم درأ الكوارث واذا لم يفعلوا خانوا الوطن والامة واستحقوا اللعنة الى يوم الدين

ان ما تقدم يثبت ان الذين قد عرضوا أرواحهم للخطر لتخليص الوطن قد أحسنوا ولم يخونوا بلادهم وهذا ما يقوله المنصفون وهنا حقيقة ثابتة وهي ان بعضهم قد قال ان اصلاح أحوال السلطان المخلوع كان متيسراً فلم خلعوه ولم ينصحوا له قبل الخلع ولكن رجال الدولة قد أجهدوا أنفسهم و بذلوا له أنواع النصائح فقدم لجلالته عالي باشا بعد عودته من كريت لائحة قال فيها ان حالة الدولة توجب الالتفات وتقتضي الاصلاح فلا ينبغي اغفال الاصلاحات ويجب اجراء ما يلزم للمساواة بين أصناف الرعية فلم تؤثر اللائحة في أعمال عبد العزيز ولم يقف تيار أعماله بل زادت غلطاته زيادة محسوسة وحقد على عالي باشا ثم انتهز فرصة موته ووجه مسند الصدارة الى محمود نديم باشا فأوقف نديم سير الاصلاح وفعل أفعالاً لايصدقها العقل ولا يحبذه عليها من عنده ذرة من الغيرة على وطنه وتسبب نديم اذ ذاك في نفي حسين عوني وشرواني لانهما كانا من محبي الاصلاح

وكنت في صدارتي الاولى قد قدمت لائحة للسلطان أظهرت له فيها اضرار القروض التي تقترضها الايالة المصرية وقلت له انها ستفتح للاجنبي باب المداخلة في شؤون مصر الداخلية وتقضي على استقلالها وتخرجها من ادارة الدولة العثمانية فأصدر عبد العزيز أمراً قاضياً بعدم القرض وعاد فاسترده بعد اعتزالي منصب الصدارة

وكان نديم قد سرق من المالية مائة ألف جنيه فاظهرت سرقته وكانت نتيجة اظهارها عزلي من مسند الصدارة

وقد وعد بعضهم شرواني في أيام صدارته بمبلغ كبير هو ورفيقه عوني باشا

لاعطاء خديو مصر بعض امتيازات فلم يقبلا ولكن الامتيازات قد أصدرها غيرهم وجمع شرواني رفاقه في مصيفه وحادثهم في أمر تبذير أموال الدولة وقال يجب أن نضع حداً لهذا التبذير ونساوي بين افراد الامة وكانوا يخافون عظمة عبد العزيز وكبرياءه ولا يجسر أحدهم على ذكر الدولة والامة والحرية والعدل في حضرته فرتبوا لائحة طالبين الاصلاح وعرضوها عليه بواسطة والدته وكنت قد كتبتها بخطي فصدر أمر عبد العزيز قاضيا بعزلي من نظارة الاحكام العدلية وأرسلني الى سلانيك وعزل شرواني من الصدارة ونفاه الى حلب فهل نسى أرباب الغايات هذه الافعال

عاد محمود نديم باشا الى مسند الصدارة للمرة الثانية وتسبب في نفي عوني باشا الى بروسه للسبب السالف الذكر وسبب بخيانته استعفاء مدحت باشا من نظارة الاحكام العدلية لان الباشمابينجي محمد بك قد أرسله السلطان الى مدحت باشا وطلب منه تقديم لائحته المعلومة فقدمها وصرح بالاسباب التي قد أوقعت الدولة في أزمتها وقال ان تأخير الاصلاح أربعة أشهر سيودي بحياة الدولة فلم يسأله السلطان عن محتويات اللائحة ولم يطلب حضوره ولو مرة الى السراى

والحقيقة ان نديم باشا أوقع الدولة في مشاكل داخلية وخارجية وظهرت نتائج أعماله فطلبت والدة السلطان من مدحت باشا تقديم لائحة بواسطة أغا دار السعادة فقدمها فلم يقبلها عبد العزيز

هذا ما فعله الوزراء وأساطين الدولة وهو ما يمكن صنعه مع رجل قد اشتهر بالعظمة فلم يجسر احد على ذكر الاصلاح والوطن والامة والدستور في حضرته فما الذي كان يجب فعله معه أكثر مما قدمناه

عزل عبد العزيز نديماً بعد ظهور مسألتي البوسنه والهرسك وعين رشدي باشا لمسند الصدارة وعوني باشا للسر عسكرية ومدحت باشا بوظيفة في مجلس الوكلاء واظهر للناس انه قد سلم اليهم أمور الدولة والحقيقة غير ما اظهر لان رجال الدولة لايجارونه على استبداده ولا يظاهره غير محمود نديم باشا وقد أثبت عبد العزيز ذلك بأفعاله المتتابعة ولكن الظروف قد اضطرته الى عزله وقد قال عبد العزيز

لرشدي باشا الصدر الاعظم الجديد ولشيخ الاسلام وللسر عسكر يوم قابلوه ووجه اليهم مناصبهم : ان الامة تريد أن أوليكم هذه المناصب وسأنظر في أعمالكم

و بدأ محمود باشا بدسائسه من يوم عزله فكانت والدة السلطان تعاونه في داخل السراى وكان الموسيو (ايغناتيف) وأذنابه يروجون مقاصده في الخارج لاعادته الى مركز الصدارة فثارت مراجل غضب الناس بعد سكونها وقوى تيار الرأي العام بعد سكوته لعلمهم انه اذا عاد الى مركز الصدارة في هذه المرة لا يرضى بنفي أعدائه بل يحاربهم بانواع التهديد والاحتقار

هكذا استولى اليأس على النفوس وعلم الناس ان عبد العزيز لا يغير مسلكه فاتفقوا على خلعه عالمين ان فيه لا في غيره خلاص الامة من ربقة الاستعباد

وقد عاد عوني باشا من ولاية بروسه وصمم على اجراء الخلع وهيأ أسبابه فتم الامر وجلس ولي العهد السلطان مراد على تخت أجداده عملا بنظام الوراثة المتبع

كان بعضهم يفكر في خلع عبد العزيز وينظر الى شخصه ولا يراعى مصلحة الامة فيقولون انه خلع بلا سبب ويعزون اسقاطه الى ثلاثة او اربعة اشخاص قائلين ان هؤلاء الاشخاص قد خلعوه لان مصلحتهم الشخصية كانت تقتضي ذلك وكان غرضهم من هذه الاذاعات الصاق التهمة بالوكلاء

على ان خلع السلطان لا يتم الا باتفاق أراء الوكلاء ورضى الامة ولا سبيل الى اسقاطه باتفاق ثلاثة او اربعة ولو خلعه اشخاص معدودون لازدرى الناس مقام الخلافة فلم لا يراعى هذه النقطة المفترون النمامون المنافقون

رموا القول على عواهنه وقالوا ان الوكلاء قد سببوا خلع عبد العزيز فاذا سلمنا جدلا ان الوكلاء قد خلعوا عبد العزيز او اشاروا على الناس بخلعه وجارتهم الافراد على أفكارهم فأين المصلحة الشخصية التي يعزيها سماسرة السوء الى الوكلاء واذا كان المقصود من خلع عبد العزيز اخذ رتبة او سلب مال فقد كان رجال الحركة من الصدور ومشايخ الاسلام والوزراء يأخذون مرتبات كبيرة وكان الصدر الاعظم في زمن عبد العزيز يقبض مرتباً شهرياً قدره ٢٥٠٠ ليرا وكان يأخذ من

مصر ١٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ جنيه في كل سـنة وكان باب اخذ الاموال مفتوحاً لرجال الحكومة في زمن عبد العزيز فكيف يدعي أرباب الغايات ان رجال الحركة الوطنية كانوا يودون خلع عبد العزيز لمنافع شخصية وقد كانت أبواب الرشوة مفتوحة في زمنه

وضع النظار سلطتهـم بين ايدي اعضاء مجلس المبعوثين واعلنوا القانون الاساسي فكيف يتصور عاقل ان واضعي هذا القانون قد قصـدوا باعلانه ترويج مصالحهم الشخصية واذا كان القصد من اذاعة هذه الاباطيل ترويج افكار القائلين بأن الغرض من اعلان القانون الاساسي قلب الدولة الى جمهورية والاستيلاء على امورها فهذا ممـا لا يصدقه عاقل

كان بعضهم يقول لو كان عبـد العزيز حياً لنجت الدولة من هـذه المصائب ولكن هل تصح هذه النظرية ولو انتظمت الادارة وانتصرت الدولة على اعدائها في الحرب فهل كان أحدهم يجسر على مثل هذه الاقوال

لم لم يذكر اسم عبد العزيز عنـد انتصار العساكر العثمانية في زمن السلطان مراد وفي أوائل سلطنة السلطان عبد الحميد وظهور الناس بمظهر السرور يوم اعلان القانون الاساسي (الدستور) واستحسان الرأي العام ما فعلتـه الحكومة في مسائل البلغار والجبل الاسود والصرب

وكيف فكر عبد الحميد في هذه المسائل ونفي الصدر الاعظم في تلك الظروف وأعلن الحرب ضـد الروس ولم عزل السردار الذي قد رسم خرائط الحرب بعد اعلانها وعزل السر عسكر ولاي سبب فض مجلس المبعوثين وما هو سبب نفي آلاف من رجال الدولة الامناء

ادعى أصحاب الغايات ان هـذه المصائب قد جرها خلع عبد العزيز للفرار من تبعة أفعالهم وهى في واد وأفعالهم في واد

وقد قال مدحت باشا في اثناء محاكمته : اذا كان السلطان عبـد العزيز قد مات فان مدافع كروب التي قد اشتراها و بنادق مارتيني التي قد ابتاعها لم تمت معه

ولكن الحكومة لم تحسن استعمال هذه البنادق وتلك المدافع ولو مات عبد العزيز قبل الخلع فما الذي كان يقوله اعداء الحقيقة في شأن وفاته

هذه هي الاسباب التي قد حتمت على الامة خلع عبد العزيز وقد أثبتنا بعضها وعزونا اثباتها بالادلة والبراهين فمن شاء ان يقف على تفصيلها فليراجع أوراق الحوادث المطبوعة في ذاك الزمان وعلى الذين يريدون معرفة درجة سرور الامة من خلع عبد العزيز ان يتذكروا عدد الجموع المحتشدة في ميداني باب السرعسكرية و بايزيد وكان بعضهم يقول ان المتظاهرين قد اظهروا سرورهم في ميداني با يزيد والسر عسكرية لارضاء الوزراء والعظماء ومداهنتهم وخداعهم

وقالت بعض الجرائد المأجورة ان مدحت باشا لم يرض الروسيا ولو أرضاها لتخلصت الدولة العثمانية من غوائل الحرب الروسية ولو لم ينشئ الطرق لما قدر الجيش الروسي على اجتياز البلقان وهذه الاقوال تدل على جهل قائلها ومن الاسف ان بعض موظفي الدولة كانوا يروجون هذه الاكاذيب

يقولون ان تركيا كانت قادرة على اجابة مطالب أعضاء المؤتمر للتخلص من الحرب والقائلون هم الذين لم يقفوا على كنه مطالب الروس . وأقوالهم ولا شك تؤثر في أذهان الذين قد اصابتهم الحرب بمصائبها

ما هي مطالب روسيا في المؤتمر؟ هي سلخ بلاد البلغار عن جسم الدولة لالحاقها ببلاد الروس في المستقبل وقد وضعت هذه المسألة على بساط البحث فى وزارة رشدي باشا وامتدت الى زمن مدحت باشا فما الذي كان يجب على مدحت باشا فعله لاسكات الروس، هل كان يجب عليه ترك هذه البلاد الجسيمة المعمورة بلا حرب ولا قتال لاسكات روسيا واذا كان ذلك ففي أية دولة وقعت مثل هذه الامور . هل يقدر رجل من محبي الوطن على تسليم مثل هذه البلاد او أصغر منها للعدو

هل قال قائل بوجوب تسليم هذه البلاد للروس يوم اجتمع رجال الدولة ورؤساء الاديان وأعيان الاهالي واتفقوا على رد مطالب الروسيا باجماع الآراء

وما الذي كان يجب اجراؤه في هـذه الحـالة . وقد عقد مدحت باشا الصلح مع الصرب عمـلاً بنصائح دولتي انكلترا وفرنسا وحاول ابطال مفعول المؤتمر فأرسل بعض الموظفين الى الروميـلي وبدأ في مخابرة الجبل الاسود لعقد شروط الصلح فأبعـده السلطان الى اوربا وترك اعماله عقيمة وقامت قيامة ذوي الاغراض على مدحت باشا فقالوا انه أراد اعطاء بعض الاراضي لسكان الجبل الاسود

ما أسخف قول القائلين لو قبلت مطالب المؤتمر لبطلت الحرب وما أبعد قول بعضهم عن الحقيقـة حيث قال ان مدحت باشا قد استعمل القسوة مع البلغار يوم كان والياً لولاية الطونه فاثار بافعاله غضب الروسيا وسبب اعلان الحرب

أما محمود نديم باشا فلم يسبب عداوة الروسيا بل جلب اليه قلوب الروسـيين واتبع نصيحتهم فترك البلغار في ثورتهم أحراراً فكيف كانت النتيجة

هل كان يجب على مدحت باشا ترك أشقياء البلغاريين الذين حضروا من بلاد روسيا واتحدوا مع اشقياء البلاد احرارا ليفعلوا اذ ذاك ما فعلوه بعد عشر سنين وهل ما بذله مدحت باشا من الخدم يعد جرما

والخلاصـة ان مدحت باشا ورشـدي باشا وعظاء الدولة وعلماءها وأساطينها الذين خدموا الدولة وفدوها بحياتهم قد نفاهم عبد الحميد وابعدهم عن عائلاتهـم فباتت عائلاتهم بلا مجير ولا عائل وخربت بيوتهـم بلا سبب سوى ان بعض الجواسيس قد قالوا له انهم سببوا خلع عبد العزيز وأفهموه انه لايستريح الا اذا نفي هؤلاء وابعدهم عن وطنهم

ولنترك الاسـباب التي اوجبت خلع عبد العزيز ونقول مع القائلين ان بعض النظار قد اتفقوا على خلعه . فلم نفي عبـد الحميد الالوف من العلماء والعظاء وقضى على حياة عائلاتهـم ولم ينظر الى اطفالهم بعين الرأفة فاصبح عدد غـير قليل من ساكني الاسـتانة يرفع يديه الى السماء طالباً للسلطان النقمة فهـل احسن هؤلاء الجواسيس واراحوا السلطان بهذه الفعلة الشنعاء

أمات عبد الحميد عددا غير قليل من الاهالى عملا باشارة الجواسيس وأرضى الروس ثم عزا مصائب الدولة التى لم يقدر على تلافيها الى غيره فما هذه الدناءة

ابتعد مدحت باشا عن الاستانة وعن الوظائف ست سنين وعرف ابتعاده الخواص والعوام ولكن أرباب الغايات يقولون عن كل ما من شأنه تأخير الوطن هذا فعل مدحت باشا وقد سبب هذا مدحت باشا وهو قول فاسد لا يصدقه من عنده ذرة من العقل

ان القانون الاساسى (الدستور) يجعل الوكلاء مسئولين ويمنع المسئولية عن جلالة السلطان ولكن الاوامر التى قد صدرت من سراى يلدز الى القواد في ابان الحرب قد سببت انهزام العثمانيين فقال مدحت أفندى الصحفى فى الكتاب الذى قد أمره المابين بكتابته ان السلطان مسئول عن كل شئ ثم أراد تبرئة ذمة السلطان من تبعة الاغلاط التى قد اقترفها المابين فوقع فى حيص بيص ونشر كتابا اسمه (اس الانقلاب) بعد أن صدرت له الارادة السنية وقال فيه ان محمود نديم باشا هو ناظر الداخلية ومستشار السلطان عبد الحميد وكان نديم قد أعان السلطان المخلوع على اغتصاب أموال الشعب وعلمه أنواع الاستبداد فكيف يعين مثل هذا الرجل مستشارا للسلطان الجديد

وأغرب من هذا وذاك قول بعضهم « لو كان عبد العزيز حيا لما حصلت هذه المصائب » واعلانهم في الوقت ذاته على صفحات الجرائد أقوالا تدل أن هذه الاحوال هى نتيجة سوء ادارة الدولة منذ عشرين سنة فأى القولين صحيح وكيف يقول ذلك قوم و يدعون الصدق لعبد الحميد واذا كانت هذه المصائب نتيجة سوء الادارة القديمة فلم يقولون ان خالعي عبد العزيز قد أخطأوا

واذا نوى احدهم نقل الدولة من ملكية الى جمهورية فذلك لا يتم الا بموافقة الامة وقول الاعداء (ان مدحت باشا سيصيرها جمهورية) يؤثر فى مركز السلطان ويوسع شقة الخلاف بينه و بين الامة ولذا فقد سجن نفسه فى قلاع يلدز فمن الذي قد أضرته تبعة نفي مدحت باشا ورشدى باشا هل أضرت الامة أو السلطان أو البلاد

لانريد أن يفهم العالم قضيتنا معكوسة لاننا لانقول ان مدحت باشا منزه عن النقائص لان نقائص الانسان كثيرة ولكن مبحثنا قاصر على أمور الدولة ولا يجب أن نمزجها بالصفات الشخصية وقد خدم مدحت باشا الدولة أربعين سنة بلا انقطاع ولم يرتكب جريمة واذا كان قد اجترح ما يغاير شعار الصداقةفليذكرنا بهالمشعوذون

ولا يحيك فى صدر أحد أن الناس يصدقون ما أذاعه أعداء مدحت باشا عنه من الاكاذيب بعد سجنه لان ذلك يحط من قدر الناس

ونفى مدحت باشا وابعاده عن عائلته وسجنه فيقلعة الطائف بغير مسوغ قانونى وقتله خنقا . كل هذه الامور لا دخل لها فى بحثنا

﴿ نفي مدحت باشا الى الطائف ﴾

صدر حكم محكمة يلدز وصدق عليه وكلاء الدولة ورجال الحكومة اذ ذاك وحملته الحكومة هو ورفاقه على وابور عز الدين وعاملوهم معاملة وحشية وأوصلوهم الى جدة ومنها الى مكة مخفورين ومنها الى سجن قلعة الطائف وكان الميرالاى سليمان وشقيق حسن الشركسى القول اغاسى عثمان بك يتوليان أمر نقلهم من بلد الى بلد لاعطاء الاوامر لاعوانهم وهم أحد جاويشية المعية وثلة من العساكر الشاكى السلاح فلم يتركا نوعا من أنواع الظلم الا اقترفوه

وسنذكر فيما يلى من الصحائف مكاتيب مدحت باشا الدالة على ما لاقاه من الشدائد وما عاملوه به من القسوة في السجن

وقد سببت هذه المكاتيب شقاء عائلته فاستغاث أفرادها ببعض ذوى المروءة وتوجه اللورد دوفرين سفير انكلترا الى المابين واعترض على أفعاله فقال له رجاله اننا سنصدر الى الطائف أمرا ليعتنوا بأمر معيشة مدحت باشا

وسيعرف القراء صدق وعد المابين من مكاتيب مدحت باشا ومن مكتوب شيخ الاسلام الذى أرسله الى عائلته يعزيها به بعد وفاة عميدها

صور بعض المكاتيب التى أرسلها الفقيد من منفاه

اصاحبات العفة السيدات نعيمة وشهر بان هانم

أرسلتم اليوم لى رسم الاولاد مع بعض الملابس وقد كنت كتبت جوابات بعض المكاتيب فارسلوا مكاتيبكم دائما الى مكة لانى قد أرسلت لكم أكثر من ستة مكاتيب فلم تصلكم كما يظهر من عبارات مكتوبكم وقد فارقت ازمير ووصلت الى استامبول فارسلوني الى كوشك (شادر) بسراى يلدز وسجنوني ومحمود باشا ونورى باشا كل واحد في حجرة وقالوا ان السلطان عبد العزيز لم ينتحر ولكن السلطان مراد ووالدته قد أمرا فصدرت التعليمات من محمود باشا ونورى باشا الى ثلاثة اشخاص فقتلوه وادعوا ان لنا علما انا وخير الله افندى ورشدى باشا بهذه الجناية ووجهوا ضدنا تهمة القتل ايضا و بناء على هذا استجوبونا مع ان الرسائل كانت تردنا تباعا مكذبة هذا الخبر يوم كنا في ازمير . اما عبد العزيز فقد ارسل اليه ثلاثة اشخاص لخدمته احدهم مصطفى البهلوان والثانى الحاج محمد والثالث مصطفى الجزائرى وكان الثلاثة قد جلبوا من بلادهم ويقولون ان اثنين منهم قد اتفقا مع المابينجى فخرى بك وقتلوه وقد عذبوا هؤلاء الاشخاص مع ان موت عبد العزيز قد وقع قبل وصولهم الى السراى فقد كانوا فى القراقول الى ساعة موته وقد انتحر المرحوم عبد العزيز وفى سرايه والدته واولاده ونساؤه وجواريه وعددهم ٣٠٠ من النساء ولم يقل احد لليوم كلمة تدل على موته بهذه الصفة فاخراج هذه القضية من العدم يثبت ما قاله لنا بعض الاصدقاء قبل اليوم ولنفرض ان عبد العزيز قد اغتالته يد أثيم فليس ثمة ما يثبت التهمة ضدي وضد رشدى باشا وقد أفهمتهم كل ذلك واطلت الكلام في المحكمة ففهم اعضاؤها ان المسألة مفتراة ولما كان القصد اتلاف الاشخاص الذين يخشى من وجودهم فقد تصنع محمود نديم باشا وجودت باشا هذه الفرية وعلى كل حال فقد حكموا على محمود باشا ونورى باشا وعلى ١١ شخصا باحكام قاسية فلم يصدق العلماء و بعض الوكلاء على هذه الاحكام فقرر المابين نفيهم والحقنا بهم ولم تتيسر لى ملاقاة السلطان فى كوشك (الشادر) ولكن

بعض المابينجيـة و بعض الحرس كانوا يحضرون كل ثلاثة ايام بأمره لتسليتي على زعمهم ويبلغون اليّ بعض اراداته

وقد حضروا آخر ليـلة وقالوا لي ان محمود باشا ونوري باشا قد أعطيا أوامر للجناة وان الجناة قد اقروا وان الآمر الاصلي هو السلطان مراد وقد نفي السلطان بعض الرجال ورأى من اللازم نفينا ايضاً ونحن احرار في جلب عائلاتنا الى منفانا وامروني ايضاً باعطاء مكاتيب لمن اختاره لايصالهـا اليكم ولم يخبرونا عن المكان المزمع ارسالنا اليه فلم اعول على احضار عائلتي الى محل مجهول وكنت اظن انهـم سيرسلوننا الى مثل رودس وعكا وغيرهما فكتبت لكم مكتوباً وعزمت على ارساله اليكم ولكن بعض موظفي الحكومة قال لي نحن نرسلهم واخذ حقيبتي ايضاً فلم يرسلهـا لليوم وحبس الموظفون خادمي عارفاً في احدى حجرات الوابور فلم اره وقد بقيت في الوابور بملابسي التي حضرت بها وانتظرت الحقيبة فلم اظفر بها ولما وجدت خادمي عارفاً في الوابور وجدت ايضاً خادمي يوسف ومعه قميص نوم وعراقيـة فأخذتهما منـه ولبستهما ولكني لم اجد غيرهما من الملابس فغلست ما عنـدي من الثياب وانتظرتها بحكم الضرورة الى ان جفت وقد كرهت الدنيا بسبب ما رأيتـه من سوء المعاملة في كوشك (الشادر) وكنت قد اصبت بمرض فكتبت وصـية ووضعتها في الحقيبة وفهمت اليوم انكم قد ارسلتم الحقيبـة مع طيفوز اغا ولكنكم لم تشيروا الى هذه الاوراق وعندي انهم قد حجزوها في السراى

ركبنا وابور عز الدين ولم يعلم واحد منا اين يذهب به وقد وضعوا محمود باشا في حجرة قذرة ووضعوني ونوري باشا في مثلها من الحجر واغلقوها فوصلنا الى جدة وكانت حرارة البحر الاحمر تؤثر في اجسامنا لان فصل الصيف شديد الحر كما لا يخفى عليكم وكانت المراحيض قريبة منا فلم نتحمل رائحتها الكريهة وقد جن نورى باشا وهو للآن سجين ولم يفق من جنته ولمـا وصلنا الى جده اتضح لنا ان الغاية هى ارسالنا الى الطائف وكان يحرس كل واحد منا ثمانية او تسعة من العساكر فلم يحادث واحد منا الآخر لان احد المأمورين بنقلنا هو شفيق حسن الشركسي

المعلوم وقد اذاقونا انواع الذل والتحقير ولما وصلنا الى مكة اقمنا بها يومين وكانت اقامتنا في احدى دوائر الحرم الشريف فلم نتمكن من الزيارة مرة واحدة ولما وصلنا الى الطائف سجنوا كل واحد منا في حجرة من حجر (القشلة) العسكرية ووضعوا على باب الحجرة جماعة من العساكر شاكي السلاح فلم ير واحد منا صاحبه ولا قدر على فتح احدي النوافذ و بعد مدة رأوا ان منعنا عن محادثة بعضنا غير ممكن فنحن اليوم نتحادث

وقد وجدنا بعض الاقمصة وارسلت لنا حرم صفوت باشا المصري بعض الملابس وقمصان النوم فلبسناها الى هذا اليوم

وكتب المابين الى الشريف والى الوالي امراً قال لهما فيه ان هؤلاء قد نفوا والمابين يخشى فرارهم فلا تغفلوا امر مراقبتهم فأمر الشريف بوضع قيود الحديد في ارجل رفاقنا ثم امر برفعها فأخذت لان مرضهم قد اشتد وقد سدوا النوافذ بالحديد

وامر المابين قد اجاز للمسجونين مخابرة اقاربهم وعائلاتهم على شرط ان تكون مكاتيبهم مفتوحة وقال ان بوستتهم ستروح وتجيء مع بوستة الشريف فكتب بعض رفاقنا مكاتيب لعائلاتهم وذويهم ولم اعرف انا هل تقيمون في ازمير او فى الاستانة ومع هذا فقد حررت لكم ستة مكاتيب ولشقيقتي ايضاً وارسلتها الى الحكومة بواسطة (طيقوز اغا) لتوصلها واتضح انها لم تصلكم ولذا فقد وجدت رجلا من ذوي الشهامة في الخارج اعنى اني قد وسطت اليه بعض ذوي الشرف وكتبت للشقيقة مكتوبين وارسلت مع احدهما مكتوباً يخص شقيقة محمود باشا ولما وصلني خبر وصول مكاتيبي اليكم اخبرت رفاقي فبكوا بكاء يفتت الاكباد لان لكل واحد منهم نساء وصبية تتوق نفسه الى مشاهدتهم ويتطلع الى اخبارهم ولو كان لاحدهم مثقال ذرة من الجرم لقلنا هذا جزاؤه فليتحمله وتسلينا بمثل هذا القول

لا تذكروا في مكاتيبكم شيئاً عن سجننا بل عرفونا عن صحتكم وعن مصالحكم

العائلية وارفقوه بمكتوب للوالي فانى اظن انه يرسله اليَّ بعد قراءته

ولنعد اليوم الى حالنا اي الى احوالنا الشخصية . ان رفاقي في غم شديد بلا شك ولكن درجة كدري اخف منهم ولا ادري ان الحالة صعبة كما يتصور مثلي والسبب في ذلك انني قد جاوزت الستين فكم سنة يعيش الانسان بعد هذا العمر ولا يخفى عليكم اني قد عزمت على المعيشة منفرداً في السنة الماضية وقلت هل من سبيل الى العزلة وتقضية بقية العمر بالعبادة والاشتغال بالآخرة وقد كررت هذه العبارة مراراً

وطالما تمنيت اشغال ذهني بتلاوة القرآن فالحمد لله الذي هدانى الى حفظ كتابه من جديد فقد وصلت الآن الى جزء (قد سمع الله) وانا احافظ على الصلاة ايضاً واستعيذ بالله (ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) هذه الآية هي اكبر عزاء لي وما هذا الهجاء والافتراء سوى عزاء لي ايضاً فانا متوكل على ربي ومسلم له أموري فتوكلوا عليه وسلموا له اموركم واذا كتبتم جواب هذا المكتوب فقولوا ان مكتوب التوكل والتسليم قد وصل (يشير عليهم بالاشارة الى مكتوبه وعدم التصريح بذكر ما احتوى عليه خوفاً من الجواسيس) وقرأناه فاذا قلتم ذلك علمت ان مكتوبي قد وصل اليكم ولا تكثروا من التفصيلات والحاصل اني لا اذكر شيئاً سواكم ولا يضيق صدري الا اذا ذكرت بعدي عنكم وعن الاولاد فانا اطلب من الخلاق العظيم جمع شملنا.وقد كسرت اسنانى الصناعية ولا يوجد من يصلحها هنا ولذا فانى أتحمل مشقة لا تطاق وقت الطعام وقد طلبت مقداراً من التبغ في احد مكاتيبي الى (طيقوز اغا) وطلبت ايضاً (جزءين من تفسير البيضاوي وتفسير روح البيان لاسماعيل حقي وجزأ من الاربعة الاجزاء الفرنسية ذات الجلد الاصفر التي كنت اطيل قراءتها وكلها بين كتبي في ازمير فاذا امكنكم ارسالها فلا تتأخروا وقد علمت من مكتوبكم انكم مهتمون بتعليم الاولاد وسررت غاية السرور . الثم عيني على حيدر ووسيمه وصابره (لثم العين تعبير تركي يستعمل للسلام على الغائب المحبوب) واسلم على دريه هانم وعلى الاغوات والجميع

عزمت على اداء فريضة الحج بعيد حضوري الى هنا فرضي الشريف وعزم على اخذي معه ولكن داء الكوليرا قد انتشر في مكة فعدلنا عن هذه النية وقد حررت للمابين منذ اسبوع مكتوباً وامضيته وامضاه ايضاً محمود باشا وقلنا فيه ان هذه البلدة لا يؤمها احد في الشتاء وقد وعدنا السلطان باستصحاب عائلاتنا واولادنا فاذا بدل منفانا لنتوصل الى احضار من يقوم بخدمتنا من السيدات والجواري كنا له من الشاكرين وانا لا أظن ان السراي تجيب على هذا المكتوب بيد انى انتظر الجواب

كنت قد تركت صندوقين محتويين على سندات ونياشين عند مدير شركة أرصفة ازمير وكتبت له من هنا مكتوباً بواسطتكم قلت له فيه ان يسلم اليكم الصندوقين ويأخذ منكم ايصالا فلم يصلكم مكتوبي المحتوي على مكتوبه ولم تشيروا ايضاً الى وصوله فاذا كانت الصناديق لليوم عند هذا الخائن وكان الخائن في ازمير فأفيدونى عنه لاكتب له واخبرونى عن ايراد اراضينا وايراد كرومكم واقبلوا دعاءنا

صاحبة العفة هانم افندي حضرتلرى

لم يصلني مكتوب بعد الذي اخذته قبل رمضان مع الملابس ولذا فقد تأسفت غاية الاسف وحزنت اشد الحزن لانقطاع اخباركم واخبار الاولاد ولا بد ان تكونوا قد ارسلتم لليوم نقوداً ومآكل ولكنها لم تصلني لانقطاع المواصلات فاحتياجنا الى النقود قد زاد لان الخمسين ليرا التي قد ارسلتموها في العام الماضي والمبلغ المرسل من الاستانة قد صرفناهما وما ذاك الا لان الحكومة كانت قد عينت لنا وكيلاً وطاهياً (طباخاً) وفراشاً بيد انها منعتهم عنا في هذه الايام وضيقت علينا الخناق فلم تعط واحداً منا ما يلزمه من المأكل فاحتجنا الى الدراهم وعاونا اخواننا المسجونين معنا لانهم في احتياج شديد وقد اعطينا بعضهم ملابس انا ومحمود باشا ورأينا من الواجب مراعاة احوال الخدم لانهم قد دخلوا السجن بسببنا فصرفنا ما في يده ولم يبق الا القليل ولقد احتجنا الى استرداد ما اعطيناه للخادم من مرتبه وكنت قد ذكرت لكم في مكتوب ارسلته في العام الماضي اننا لا نحتاج الى الدراهم زمناً طويلاً لان الحكومة في ذاك الوقت كانت تطعمنا ولكن الحال قد تغيرت منذ

زمن فأصبحنا في غاية الاحتياج الى الدراهم وكنت اريد ان احول عليكم مبلغاً بواسطة احد التجار فلم ترخص لي الحكومة قائلة يجب الاستئذان من دار السعادة والظاهر انهم لا يجسرون على مخاطبة الاستانة

بين رفاقنا هنا جماعة برتبة البكباشي والملازم والميرالاى وقد أقرضناهم بعض دريهمات فاشتروا قماشا من السوق وهم يخيطونه انفسهم ومع هذا فهم محتاجون الى ما يشترون به غذاءهم و بعضهم يقضى ايامه بالصوم فيجب ان نشترى لهم مقدارا من الزيتون والزبيب ونعينهم به على عبادتهم ففي كل البلاد يجود اصحاب الخير على الفقراء ولكن هؤلاء البؤساء لاسبيل الى جمع اعانة من احد لهم فيجب علينا معاونتهم خدمة للانسانية فارسلوا لنا اربعين او خمسين جنيها بواسطة الحكومة واخبرونا ايضاعن حالتكم فى ازمير وكنت قد ذكرت لكم ضرورة ارسال مايدعى بالكاوتشو لانه لازم لاسناني الصناعية فارسلوه مع مقدار من التبغ والثموا لي الاولاد من اعينهم وسلموا لى على الجميع

اذا سارت الامور على هذا النمط ولم ترد النقود اضطررنا الى بيع اناء الماء الفضي الذى ارسلتموه و بيع الساعة وكلما مر هذا الفكر بخاطرنا علمنا ماسينتجه بيعهما من القال والقيل واضطربت افكارنا

سجن قلعة الطائف فى ٢٥ اغسطس سنة ٩٨ مدحت

صاحبة العفة زوجتى هانم افندى حضرتلرى

.... قد حصلت هنا منذ ليلتين واقعة عجيبة وغريبة وهي ان امير مكة كان في الطائف كعادته فى موسم الحج ففى ليلة الثلاثاء بينما هو نائم فى بيته بين اولاده وافراد عائلته حاصره ثلاث طوابير فى نصف الليل وكانت معهم اربعة مدافع وفى الصباح احضروه الى محل محبسنا بملابس النوم وجعلوه تحت حفظ العساكر ويقولون ان ذنبه هو مخابرة الانكليز وسيرسل الى استامبول او الى غيرها وعلى كل حال فقد آذانا هذا الشخص لارضاء استامبول وقد جازاه الله فاذاقه ما نقاسيه من العذاب وهي عبرة للمعتبر . وقد وصل الرجل الى المابة من

سني حياته وهو عمر يحمل الانسان على الاشفاق عليه خصوصا اذا نظر الى اتصال نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شابهت هذه الحادثة ما فعلوه بنا في ازمير بيد ان المدافع كانت ثمة زائدة فسبحان الملك المتعال

سجن الطائف فى ١ ايلول سنة ١٢٩٩ مدحت

صاحبة العفة نعيمه هانم افندى حضرتلرى

لم يصلني من رمضان خبر عن صحتكم ولا عن صحة الاولاد ولم اكتب لكم التفصيلات اللازمة عن احوالنا وسبب ذلك ما انا فيه من التضييق فقد وعدنا السلطان بأخذ عائلاتنا يوم نفينا ولم ينفذ وعده و ياليته وقف عند هذا الحد فقد أمر فأحرمونا من مخابرة اولادنا فهم يحرقون ما نكتبه من المكاتيب وقد لجأنا الى الشريف عبد المطلب والى بعض رجاله فكانوا يأخذون بعض مكاتيبنا لارسالهم الى اصحابهم وقد سد هذا الطريق فى الايام الاخيرة وقبل خمسة اشهر ابعدوا عنا خدمنا وحضر رجل برتبة الميرألاى من دار السعادة اسمه عمر بك لا كمال مانقص من انواع التعذيب وضروب الاستبداد فلم يترك باب جور الا طرقه لازهاق أرواحنا وهو رجل كبير السن ناقص العقل ولكن افعاله لاتوافق من عنده ذرة من الانصاف وقد كافأوه فى الايام الاخيرة برتبة الميرلواء وهو يحاول قتلنا فى هذه الايام لأن اوامر الاستانة تقتضيه او لنيل رتبة اكبر من الاولى وفى مذهبه ان عمرنا سيطول اذا حاولوا قتلنا بالجوع فهو يسعى فى ايجاد طريقة للاسراع بقتلى انا ومحمود باشا وخير الله افندى ولا يريد اطالة مدة سجننا فيقول للخدم انكم تريدون ولا بد الذهاب الى بلادكم وما دام البشوات فى قيد الحياة فثقوا ان خلاصكم من المستحيلات فاعينونى على قتلهم ليتم لكم مبتغاكم وقد دعا اليه بكر أغا خادم نورى باشا وكان البكباشى بكر افندى حاضرا واغلق باب الحجرة وقال له : ثق ان الخدم لايخلصون من هذا السجن الا بموت ساداتهم : ثم اردف كلامه قائلا ان مولاك نورى باشا مصاب بدخل فى عقله وقد حاول القاء نفسه من النافذة مرارا فلم لا تساعده لتخلص حياتك من هذا السجن واذا اردت معاونتى فسأرسل لك برادا لنزع حديد النافذة

والخلاصة فان الرجل قد اوصى الخادم بقتل سيده للخلاص من السجن وامره بتبليغ هذه النصائح الى بقية الخدم لحدت بنا اقواله الى التفكير والاوهام وقد خالف الخدم اوامره فمنعهم عن الخروج منعا باتا واذاقهم انواع التعذيب والارهاب فلم يوفق الى مطلوبه واخيرا ارسل صهره اليوزباشى المدعو مصطفى افندى لقيادة العساكر المنوط بها امر حراستنا فتداخل الاخير فى امور مأكلنا ومشربنا ولم يترك فرصة الا طرقها لتسميمنا بفعل الباشا وصهره هذه الافعال لنيل المكافأة الدنيوية ولم يتركا المكافأة الاخروية ايضا بل توجها الى مكة لاداء فريضة الحج فتخلصنا من شر غائلتهما ولم تكن هذه الاعمال متوقفة على وجودهما لان التعذيب مستمر لليوم وقد مضت سنة ونصف سنة ولم ير احدنا الباب ولا رأى اجنبيا بل لم ير احد افراد عائلته ولم تبح له الحكومة مكاتبتهم وكان عندنا طباخ اجنبي فاشاروا عليه بتركنا وخوفوه وهذا مما يظهر اننا سنفارق الدنيا فى القريب العاجل

اذا كان القصد من تعذيبنا وتشديد الحجر علينا كتم مفتريات المابين فقد ظهرت دخائلة للصغير والكبير وعلمها الافرنج فكتبت عنها جرائدهم الفصول واذا كان تعذيبنا يسر رجال السراي فكيف تسرهم حالتنا المحزنة نسأل الله تعالى وهو الحاكم العدل اجراء حكمه انه على كل شيء قدير سلامى على الجميع وعلى الاولاد واذا لقيتم احد اهل الانصاف فاخبروه عما نقاسيه من الاهوال

سجن الطائف فى ٥ محرم سنة ١٣٠٠ مدحت

﴿ صورت المكتوب المرسل الى عثمان باشا الاعرج والى الولاية ﴾

رأيت بعض فقرات فى مكتوبكم الذى ارسلتموه الى الميرالاى محمد بك وتلك الفقرات تشيرون بها الى انى قد اخبرت قنصل الانكليز عن اعمال عمر باشا وتوبخوننى مع انى لم احرر الى القنصل مكتوبا ولم ارسل اليه احداً بل لم أتصور شيئاً من هذا القبيل. اما تلقينات عمر باشافقد عرفها الجمهور واذاوصلت الى قنصل الانكليز فقد اوصلها اليه التجار وغيرهم من آحاد الناس هنا وفى مكة واقوالى لاتحتاج الى برهان فالظروف تؤيدها ولكنكم قد كتبتم مرة ثانية الى محمد بك تقولون مثل

قولكم الاول وتوبخوننى ظانين ان في المسألة شيئاً من الصحة ولذا فقد اضطرتنى الظروف الى اظهار الحقيقة

ان عمر باشا يتظاهر بان حضوره هو لتسميم السجناء وقد اثبت ذلك باعماله وحركاته واقواله وزاد الطين بلة باشارته الى الخدم بقتل ساداتهم نهارا جهاراً على مسمع من افراد العساكر والضباط وقد فشت اقواله بين الناس وحملوا امره الخدم بلزوم السجن على هذا السبب

أما وصول المسألة الى مسمع الاجانب فلا حاجة الى تأويلها لان قناصل الانكليز يتنسمون الاخبار ويرسلونها الى حكوماتهم وهو امر تحتمه عليهم وظائفهم فاذا كان هذا حالهم ولم يكن لنا احد في الخارج نعتمد عليه في المهمات فكيف تصدقون هذه المفتريات

ان خدمنا يخرجون مرة واحدة فى الاسبوع مخفورين بعدد من الضباط والجاويشية ولا يخالطون أحدا

فلا يتصور عاقل اننا نخابر قنصل الانكليز ولا ادرى كيف ساعدكم قلبكم على توبيخنا

اذا حرم الانسان من حريته واولاده وامو اله فى حياته وسجن فى مطمورة كالتى نحن فيها ومنع عن مخابرة اولاده وعائلته الامر الذى لاتجيزه القوانين والشرائع والعادات فكيف تكون حاله

اذا كان الغرض من افتراء هذه الفرية هو منعنا عن مخابرة ذوينا فقد حرموا من كل لذة دنيوية بسبب سجننا المبنى على امثال هذه المفتريات

تقولون فى مكتوبكم انى قد لجأت الى قنصل فرنسا فى ازمير وهذا القول يثبت جهلكم حقيقة المسألة لانى قد خدمت الدولة خمسين سنة بلا فاصلة ولا قصور ووصلت الى الثانية والستين من سنى حياتى وارضيت السلطان باعمالى فكتب لى برقيات اظهر بها سروره غير مرة وهذه البرقيات هي اليوم بين يدي وبينما كنت اتولى امور ولاية كبيرة كازمير احاط بمنزلى ثلاثة طوابير من العساكر

واخذونى الى السجن غلسا فكنت اسمع بكاء نسائى واولادى واسمع اصوات البنادق ايضا فكيف تكون حالتى في ذاك الوقت انى اراجع انصافكم واذا قصدتم محا كمتى وادعاء الحكومة فقد سألوا واجبت ودعوا فلبيت ولم اشق عصا الطاعة في وجه الحكومة بل وجه الى مسند الصدارة مرتين ومكثت في منصب الوزارة زمنا و بعد كل ذلك احاطوا منزلى بعدد من العساكر وحاولوا زجي في غيابة السجون فهل الام اذا لجأت الى قنصل انكلترا او فرنسا او غيرهما . ان القلب لايساعد الوطنى على الالتجاء الى مثل هؤلاء القناصل ولكن التبعة لاتقع الا على الذين يجبرون الانسان الى مثل هذه الافعال : تقولون في مكتوبكم انكم لا تتركون مجالا لقائل ونحن اليوم نذعن لاوامر الضباط والافراد فيأمرنا النفر والضابط والجاويش والملازم وغيرهم فنحن مغلولى الايدى وانتم قادرون على اجراء مايساعدكم عليه ضميركم وقد لقبتمونا بالجناة مراعاة للظروف ولا نرى لنا حق سؤالكم عن تسميتنا بهذا الاسم بيد اننا نسألكم عما قلتموه حين قابلناكم في سراى الحكومة فقد ذكرتم الانسانية والمروءة والنخوة فهل هذه التسمية توافق هذه الصفات

والخلاصة فان ما قاسيناه في سنتين من المصاعب والمتاعب لم يعامل به أحد ولم نسمع بمثله في أساطير الاولين وحامي القوانين ومنبع العدل جلالة السلطان المعظم لا يرضى بهذه الامور بيد اننا لا نلجأ الى غير الصبر في الاحوال الحاضرة فنحن نوكل أمرنا الى خالق الخلق جل وعلا وقد وصل هذا العاجز الى سن الشيخوخة وطلق الحياة الدنيا وصار يطلب الموت صباح مساء فأمثالنا لا يعاملون بغير الانصاف ولا يأملون منكم غيرذلك ونحول هذا الامر الى صفة الحمية الممدوحة التي قد اتصفتم بها والامر لكم

سجن الطائف في ٧ صفر سنة ١٣٠٠ — مدحت

صاحبة العفة زوجتي هانم أفندي حضرتلرى

۰۰۰۰۰۰۰ أشاعوا في هذه السنة اني فررت الى الهند أو الى أوروبا واستكتبوا الجرائد والغريب في هذه المسألة هو ان جريدة الطان الباريسية قد كتبت الى

الاستانة تلغرافاً تسأل به عن حقيقة الخبر ونصيبه من الصحة فرددت صدى تلغرافها جرائد الاستانة وكذبتها بعدما نشرته بأيام جرائد مصر

ولما كنت في أزمير قالوا اني قد جننت وأذاعوا مثل هذه الاذاعة فسبحان الله كيف يجرأون على تزويق الزور اليوم ويكذبونه غداً وما هي فائدة هذه الاراجيف

٢٣ صفر سنة ١٣٠٠ مدحت

(صورة المكتوب المرسل الى الشيخ سليمان افندى)

عالي الهمم شيخي العزيز أفندم حضرتلرى

ان القدر قد حكم علينا بالابتعاد عن أموالنا وأهلينا السنين الطوال وحرمنا من حريتنا الشخصية بلا سبب

وهذه الاحوال هي أقصى ما يتصوره الانسان من العذاب وخالق الخلق خالد أما بقية المخلوقات فمصيرها للزوال

لا يغرنَّ امرأً عيشه كل حي صائر للزوال

فالحياة المعدودة الايام كألعوبة بل هي كمفازة يجتازها الانسان ومن العبث ان يجهد النفس ويقاسي المصاعب وهذه الاحن يكافئ الرب عليها عبده ونحن نعتبر بما حصل للانبياء والاولياء من الاحن فقدمات أكثرهم في السجن ولنا اسوة حسنة بالامام الاعظم والامام موسى الكاظم واذا سألتم عن أحوال صديقهم الخصوصية فاني أتمثل دائماً بقول القائل كن في الدنيا كانك غريب وأضع هذا القول نصب عيني وقد وصلت الى آخر مراحل الحياة فجاوزت حد الستين فيجب علي انتهاز الفرصة للتقرب الى ربي وبين يدي اليوم بعض الكتب وفيها كتابكم مجموعة الرسائل وهو يعينني على العبادة والانسان لا يقدر على القيام بأنواع العبادات منفرداً فأرجوكم أيها الشيخ الجليل ارشادي الى ما يجب اتباعه للقيام بأعمال طريقتكم وأقوم بلثم يدكم عن بعد لان العلائق المعنوية لا تخالف الجسمانية فاكتبوا لي مكتوباً ارشدوني به الى أقوم طريق اولا فاحضروا لمشافهتي وعلى كل حال فقد توسلت اليكم بهذه

العريضة راجياً الاجابة الشفهية أو التحريرية والسلام

سجن الطائف في ١٩ شوال سنة ١٣٠٠ مدحت

لصاحبات العفة زوجاتى

كنت قد أرسلت لكما مذ شهر مكتوباً بامضاء سعيد بك المستعار وكان ذاك المكتوب آخر مكاتيبي وقد بينت لكما فيه نمر المكاتيب التي سبقته وفهارسها و بعد تحريره باسبوع مرضت بخراجين الزمانى الفراش اذ ظهر احدهما في الظهر والثاني على الاضلاع اليمنى ولا يوجد هنا سوى شاب حديث عهد بالطبابة وقد دهش اصدقاؤنا وهالهم امر مرضي فكتبوا الى مكة وطلبوا من الوالي طبيبا ولم يطلعونى على ما كتبوه فلم يجب الوالي بسطر و بينما كنت اقاسي الاهوال كان المابين يكتب الى الوالي الاوامر القاضية بقتلى وقتل اخوانى السجناء فقد حضر احد الياوران حاملا فرمان الوزارة التى وجهت الى الوالي في هذه الايام ومعه هذه التعليمات فمنعوا عنى الطعام وابعدوا خدمنا وحضر البكباشى و بلغنى الامر وانا على فراش الموت قائلا ان طعامكم سيكون مما يأكله بقية السجناء فلا تشتروا شيئاً من السوق واكتفوا بالاناء الذى سيقدمه لكم موظفو السجن وليغسل كل واحد منكم ملابسه في السجن ولا يرسلها الى الخارج ثم اخذ الاقلام والكاغد والنقس وانصرف وكنت قد احرقت مكاتيبكم والحمد لله وهي لاتحتوي على شيء ولكنهم كانوا يتذرعون بوجودها الى القيل والقال هكذا فعل البكباشى واخذ خادمى وولد خير الله افندى الذى لم يتجاوز الثانية من عمره وزوجته وكانت تقيم في منزل خارج القلعه وطهاته (طباخيه) وتوجه معهما في تلك الليلة الى مكة

وهذه الاعمال هي نوع من التسميم لان الواحد منا قد اعتاد اكل المطاعم الشهية واذا اكتفى بتناول طعام العساكر مات موتا ابديا ولا يتم لهم قصدهم باجبارنا على التغذى بهذا الغذاء ولكنهم سيعاملوننا بأنواع الظلم وضروب التعذيب ولا اقدر على وصف ما آلت اليه حالة اخوانى بعد سماع هذا الحادث الجلل فقد لجأوا الى الله تعالى رافعين اصواتهم بانواع الابتهال

أما أنا فقد كنت في حاجة شـديدة الى خادمي بسبب مرضي فأخذوه عنوة وتركوني وحيـدا ولم يكتفوا بفعلتهم بل لم يرسلوا طبيبا وزاد الطنبور نغمة حضور البكباشي وحملته علي بأقواله المؤلمة الامر الذي قد شدد مرضي وأوقعني في براثن الموت فكنت أجد في مفارقة الحياة لذة ولكن حيني لم يحن ولا سبيل الى اطالة العمر أو تقصـيره واذا أراد الله نفاذ أمر سبب الاسباب وهيأ العوامل ولذا فقد رتب رفاقي مرهما ووضعوه على الخراج فانفجر والتأم في نصف شهر وقلت آلامه في هذه الايام

أخذ البكباشي خادمي وحرم خير الله افندي وولده الصغير وارسلهم الى جده لايصالهم الى الاسـتانة ولكن الاستانة أرسلت اليه الامر باعادتهم فأعادهم الى السجن فأسفت لان خادمي البائس كان قد تخلص من هذا المأزق هذه حالنا فلا سبيل الى المخابرة ولا الى غسل الثياب فاذا ارسلتم نقودا اوماْكولات أومكاتيب فوصولها من المستحيلات اللهم الا اذا تغيرت الاحوال فاذا كانت اسناني الصناعية قد احضرت وارسلت فقد اتدارك واسطة لايصالها الى يوم وصولها فلا ترسلوا لا نقودا ولا مأكولات لان النقود لا تجدي في هذه الاحوال بعد ان حظروا علينا شراء ما يلزم من الغذاء

ألثم عيني ممدوحة هانم وأعين الاولاد وأسلم على الجميع

٨ جماد الآخر سنة ١٣٠١ مدحت

(حاشية) ان الطعام المقرر لنااليوم اناء واحد من الشور بالكل ثمانية أشخاص في الصباح والشوربا مصنوعة من الماء وورق الفجل وهم يقدمون هـذا الطعام في المساء أيضاًوقد ارتفعتأصوات رفاقي بالضجيج وأنهك قواهم الجوع والذين عندهم نقود يشترون الصابون والفحم و يغسلون أثوابهم والفقراء يغسلون أثوابهم بالماء وحده ولما كانت أسناني الصناعية غير موجودة فأنا أصنع من الشوربة ثريداً وآكله وقد اقترب الجرح من البرء بيد ان ضعفي في ازدياد وقد رتبوا هذه الامور لاماتتنا ولا ندري من الذي يزور القبر قبل رفيقه

الي حليلاتى المحترمان نعيمة وشهر بان و بناتى ممدوحة ووسيمة ومسرورة ونجلي المكرم علي حيدر

سيكون هذا المكتوب آخر مكاتيبى على ما أظن لانهم قد قطعوا عنا الطعام واخذوا الاقلام والنقس والكاغد وضيقوا علينا الخناق كما اخبرتكم فى مكتوبى السابق وقصدهم من ذلك تسميمنا واحدا بعد واحد وقد ظهرت نيتهم ظهور الصبح لذى عينين فمنذ عشرة ايام اشترى خادمى عارف لبنا بواسطة احد افراد الضابطة فوضعوا في اللبن سما فوقف عارف على دسيستهم واراق اللبن و بعد اربعة ايام اشترى عارف مقدارا من اللحم وطبخه ثم تركه في الحجرة فملأوا الاناء سما فأراق عارف الاناء أيضا و بعد ايام وضعوا السم في جرة الماء التي نشرب منها كل هذه الامور ظهرت بفراسة عارف وحسن عنايته ولكن بكر افندى الشركسى المرسل من الاستانة لحراستنا والذى قد اعطوه رتبة البكباشى قد أقر هو وثلاثة من العساكر بان رتبة المشيرية قد وجهت الى عثمان باشا ليسعى في قتلنا وان الاوامر تصدر له بذلك تلو الاوامر من الاستانة وقد حضر من مكة الميرالاى محمد بك الشركسى من يومين لهذه الغاية ونحن لانقدر على حفظ ارواحنا امام هذه القوة ولا بد ان يصلوا الى ضالتهم المنشودة وربما وصلكم خبر وفاتى قبل وصول هذا المكتوب فلا تتكدروا ولا تأسفوا لانى اتعشم من المولى جل وعلا غفران ذنوبى فقد مت فداء للوطن المقدس أما وصيتى اليكم فهي : انهم سيساعدونكم على دخول الاستانة بعد وفاتى و يعطونكم مرتبا شهريا فارجوكم البقاء في بيتكم والاتحاد والوئام واخذ شقيقتى صديقه هانم الى المنزل واعطائها شيئاً من التركه واترككم امانة للخلاق الباقى

١٠ رجب ١٣٠١ و٢٤ نيسان ١٣٠٠ مدحت

(المترجم) كان هذا آخر مكتوب كتبه شهيد الوطن الى عائلته التى قد بقيت في ازمير الى يوم اعلان الدستور وكان الجواسيس والولاة يقدمون ضد افرادها التقارير (الجورنالات) الى يلدز للتقرب من عبد الحميد ولم يعطها الاخير مرتبا بعد قتل زعيمها في سجن الطائف :

مكتوب طيقوز افندي

اصاحبات العفة حضرات سيداتى

وصلنى مكتوب سيداتى رقيم ٢١ نيسان سنة ١٣٠٠ وفهمت مغزاه واذا سألتنى عن احوال البشوات فارجوكن مراجعة المكتوب الذى كتبه محمود باشا الى بعض اصدقائه وخلاصته هي ان حامل فرمان رتبة المشيرية قد حضر وهو من الشراكسة اقران حسن الشركسى واسمه بكر افندى وتوجه الى البشوات واخذ خدمهم وطرد الطاهى (الطباخ) وكانت افعاله مصادفة لايام مرض الباشا المعلومة وقد حاولوا أخذ طبيب الباشا وارسال غيره فلم يقبل الباشا وتحمل المتاعب فى مرضه اما اعوان السلطان فاعادوا الخدم الى ساداتهم بعد ان قدم هؤلاء عرضحالا الى الوالي طلبوا به ابقاءهم اعادوهم على شرط الا يغادروا السجن وقد شفى سيدنا الباشا من مرضه بعناية الله لان محمود باشا قد أوجد مرهما شفى به الخراج فصحته اليوم على ما يرام ولكن شوربة العساكر التى يأكلها قد اضعفته فقطع الامل من الحياة وقد قرأت هذه العبارات في مكتوب الصهر محمود باشا فتلزمكن اذا مراجعة من تلزم مراجعتهم لتخفيف ويلات الباشا وغيره وارجوكن تمزيق مكتوبى هذا بعد قراءته وحرقه لانهم قد وصلوا الى اقصى دركات الاستبداد فى هذه الايام والامر لكن :

٢٦ نيسان سنة ١٣٠٠ خادمكم طيقوز

مكتوب خير الله افندى شيخ الاسلام

صاحبات العصمة السيدات

اهدى عصمتكن سلامى وادعو لممدوحة ولعلى حيدر بك بطول البقاء وأعزى الجميع بوفات زعيمهم عملا بما اوجبته الشريعة الغراء طالبا لهم الصبر الجميل ما دام شهيد الوطن في قبره ولا بد ان تكونوا قد وقفتم على ما جرى له رحمه الله لانه لم يمت من الخراج كما اعلنت الجرائد نعم انه كان يشكو من الخراج ولكن مرضه كان قد شفي منه تمام الشفاء وقد خنقوه في ليلة واحدة هو والصهر محمود باشا رحمهما الله رحمة واسعة

اما امواله فقد باعوا ما بقي منها في السوق بعد ان نهب الموظفون منها ما نهبوه ورتبوا بها جدولا وارسلوه الى الاستانة ولم يصل عليه احد ولا وزعوا عنه صدقة والذى يكتب كثير ولكنى اخاف شر الظالمين واذا اخبرتمونى عن وصول مكتوبى كنت لكن من الشاكرين ولا تكتبوا اسم مرسل المكتوب واذا سألتننى عن بعض المسائل اجبتكن

اطلب من الله ان يتركوا الاغوات بعد وفاة البشوات في السجن لان عارف خادمكم قد خدم سيده واستجلب حبه فاعطاه سندين مقابل ما تراكم من مرتباته احدهما بماية ليرا والثانى بخمسين وهو اليوم سجين وليس معه ما يسد به رمقه فاذا تفضلتن بارسال بعض دريهمات الى هذا البائس حرمة لفقيدكم كنت لكن من الشاكرين وعلى كل حال فاللطف والكرم لكن افندم

١٥ ذى القعده سنة ١٣٠١ السيد حسن خير الله

﴿ المكتوب الذى ارسله المرحوم مدحت باشا ﴾

(قبل استشهاده بيوم الى على وصفى افندى)

المكتوب المرسل الى (العنوان) قد بعثنا به اليكم وقد اتممنا جزءا من ترجمتنا وارسلناه اليكم فاقرأوه ثم ارسلوه (للعنوان) وابقوا عندكم الخمسة عشر واصرفوا مافي الصندوق عند وقوع الحال الذى لابد منه لم يبق لنا امل في الحياة لانهم سيراجعون طريقة غير طريقة السم لقتلنا فنطلب من البارى جل وعلا الرحمة والرضوان فاذا مت قبل ان اكاتبكم فتصدقوا بعشرة ليرات على الفقراء واذا صرفتم اكثر من هذا المبلغ وطلبتم نقودا من ازمير فانهم لايتأخرون عن ارسالها الى يدي الشيخ سليمان واطلب دعاءه لا تأمنوا الدرويش صلاح الدين لان اخلاقه معلومة بل داهنوه واذا لم يحتم الاضطرار كتابة شيء فلا تكتبوا لي وانا لا اكتب لكم شيئاً لان الحالة حرجة

(نقل هذا المكتوب البلوك امين حافظ عبد القادر افندى من اهالي كوتاهيه)

(والاسماء التى فيه مستعارة لايفهمها الا المتخابرون فمعنى كلمة العنوان مدينة ازمير)

(وكلمة قيطان كانوا يكنون بها عن الواسطة فيقولون ارسلت لكم او سأرسل لكم)
(مكتوبا مع قيطان اى مع واسطة وكان الطبيب صالح افندى يعاون السجناء على)
(ارسال مكاتيبهم)

وقد اتعب هـذا الشهم نفسه مرة فاحضر مكتوبين احـدهما لمدحت باشا والثـانى للصهر محمود باشا بنفسه الى الاستانة وازمير وسلمهما لاصحابهما وقد عرفت الحكومة ميله الى السجناء فابعدته عنهم وعينت غيره مكانه ولـكنه لم يتأخر عن مساعدتهم في الخارج ويلى هذا الشهم عبد القادر افندى السالف الذكر

الاسماء المستعارة

مدحت باشا .. الشيخ محمد : محمود باشا .. الشيخ محسن : خير الله افندى : سيد خالد .. فخرى بك : شيخ فاضل : عزت بك : عزيز : سيد بك سليمان : على بك نجل نامق باشا : شيخ عبد الله : نجيب بك البكباشى : شيخ نجم الدين : الطبيب صالح افندى : ميرزا : عبد القادر افندى امين البلوك : خطيب : السلطان عبد الحميد : شيخ كريم (بين الناس) و (عقرب) بين المحبوسين : عثمان باشا الاعرج : الشيخ قاسم : جميله سلطان : جعفر بك : المدينة المنورة : ماجد: مكه : مكلا : القلعه : زاويه : جده : جابر: الطائف:طاهره : ازمير : العنوان:استامبول: استفان : ابراهيم أغا : كنذر

ولم نقف في هذا الاثر على غير هذه الـكنى وقد اغفلنا بعضها طلبا للايجاز ولانها غير مفيدة في هذا الصدد

﴿ الجناية الـكبرى ﴾

(خنق مدحت باشا والصهر محمود باشا)

كتب شيخ الاسلام خير الله أفندي الذي فارق الحياة في ٢٤ جماد الآخر سنة ٣١٦ في قلعة الطائف فصلا مطولا وصف به تلك الجناية وترك للناس عـبرة تاريخية يتمثلون بها خلفاً عن سلف فاعتمدنا على روايتـه وأضفنا الى أقواله عبارات فخري بك الشفهية

يعلم القاصي والداني ان عبد الحميد لم يجسر على اعدام مدحت باشا بسبب سورة الرأي العام في تركيا وفي أوربا بل اكتفى بنفيه الى الطائف ونوه على البسطاء مدعياً ان شفقته وحنانه قد ألجآه الى العفو عنه وتبديل حكم الاعدام بالنفي ولم يستح من هذه المفتريات

كان عبد الحميد يحاول الفتك بمدحت باشا رغما عن وعوده التي خدع بها أوربا لانه لا يقدر على وضع الملة العثمانية تحت قدميه ما دام الاخير في قيد الحياة ولذا فقد طرق أبواب الحيل للايقاع به واخماد أنفاسه فتوصل الى بغيته

دخل الباشا قلعة الطائف وأقام بها هو ورفاقه ثلاث سنين وفي آخر السنة الثالثة أصيب بخراج فأشار عليه طبيب العسكرية باجراء عملية فأبى عالماً ان شيخوخته وضعفه لا يساعدان على اجرائها فأشار الطبيب باجراء العملية بواسطة الجراح المدعو محمد أفندي فأصر الباشا على ابائه لعدم اعتماده على حذق الطبيب والجراح وكتب محمود باشا الى والي الحجاز مكتوبا طلب به منه ارسال طبيب حاذق على حسابه واعداً بدفع مصاريف سفره وأجرته (ولم يخبر مدحت باشا بما كتبه) فلم يرسل الوالي طبيبا بل لم يجب بكلمة

وكان الطبيب ناشد أفندي يزور المريض مع اليوز باشى ابراهيم أغا فلم يعتمد الباشا على الطبيب وداوى الخراج بمرهم بسيط فكان المابينجي فخري بك يغسل الجرح كل يوم ويربطه فالتأم الجرح وكان الجواسيس يرفعون كل يوم تقريراً الى الوالي فيكتب تلغرافاً للسلطان يخبره به عن أحوال المريض

ودخل الطبيب ناشد أفندي يوماً على مدحت باشاومعه اليوز باشى ابراهيم أغا وكانوا قد أحضروا ما يلزم لتبديل أربطة الخراج فقال الطبيب بلا سبب : ان الاعدام في أوربا لا ينفذ علناً بعد اليوم بل يكتفي الاطباء بوضع جزء من الكلوروفورم في أنوف الجناة فاذا ناموا خنقوهم : فلم يفقه أحد سر هذا القول

وكان بكباشي الطابور الثالث من الآلاي العاشر المكلف بقيادة عساكر خفر المسجونين والمدعو بكر أفندي الشركسي الاصل قد توجه مذ أشهر الى مكة ومنها

الى المدينة وعاد فجأة ثم توجه تواً الى حجرة مدحت باشا هو وناشد أفندي وابراهيم أغا لرؤية الخراج فسأله بعضهم عن سبب عودته الفجائية فقال : عدت لتنظيم أحوال عساكر الطائف ولتحصيل الضرائب من أهالي قرية (طربه) ومجاوراتها لانهم لم يؤدوها مذ سنين وقد أخذت أمراً من المشير لاحضار لوازم السفر :

عاد البكباشي بكر أفندي الى الطائف وفي اليوم السادس توجه خدم الباشوات الى جامع عبد الله بن عباس لأداء صلاة الجمعة برفاقة أحد الموظفين كما هي عادتهم وتأخر عن الصلاة عارف أغا خادم مدحت باشا بسبب مرض سيده فلما خرج الجماعة من الجامع حجز البكباشي الخدم والطهاة وأرسل الى القلعة رسولا لاحضار عارف أغا فلم يلب الخادم طلب الرسول قائلا انَّ الباشا مريض في فراشه فبلغوني ما عندكم من الاوامر فذهب الرسول وعاد قائلا ان الاوامر توجب ذهاب عارف الى البكباشي فقال الباشا للرسول قل للبكباشي احضر أنت الى القلعة وبلغ اوامرك الى الخادم فحضر البكباشي بعد نصف ساعة وتوجه تواً الى حجرة خير الله أفندي وقال « ان أوامر الاستانة تقضي بابعاد الخدم والطهاة وقطع مرتبات الحكومة عن السجناء وتغذيتهم بما تعطيه الحكومة لافراد عساكرها ومنعهم عن شراء مايلزمهم من الاطعمة سوى التبغ والفاكهة وأخذ الاقلام والنقس والمداد وابعاد زوجة خير الله المقيمة في خارج السجن الى الاستانة . فوقع الناس في حيرة وعرفوا سوء النتيجة ولكن ما الحيلة . وكان محمود باشا حديد المزاج فقال للبكباشي بكر كلاماً مؤلماً فلم يفد كلامه فائدة تذكر ولكنهم أباحوا للخدم الحضور الى القلعة لرؤية حسابهم فحضروا برفاقة احد الضباط وحاسبوا ساداتهم وأخذوا الاقلام والنقس والكاغد عملا بهذا الامر وسجنوا الخدم في حجرة خارج القلعة وادعى البكباشي انه يحضر لوازم السفر ثم عاد في تلك الليلة الى القلعة وأقام بها الى الصباح

تولى مدحت باشا أمور الصدارة مرتين وخدم الامة خدمات لا ينكرها أحد فلم ينظر الظالمون الى خدماته ولا الى شيخوخته وتركوه على فراشه مريضاً بعيداً عن الاهل والاولاد والاقارب وأخذوا خادمه بلا سبب وأناطوا بخدمته أحد

العساكر فزادوه آلاماً على آلامه لأن الجندي محتاج الى الوقت الطويل لتعلم القيام بخدمة الرجل وقد قام رفاق مدحت باشا بما يجب له من الخدم فكانوا يحضرون له الطعام ويضمدون جرحه ولم يتركوه وحده بل كان علي بك ينام معه

اشتهر مدحت باشا بالثبات فلم تؤثر في همته هذه الظروف فكان يحافظ على الصلاة ويقرأ الاوراد ويقرأ سور القرآن مرة في الاسبوع وكان يقرأ تفسير البيضاوي وكتاب الشفاء وكان يقول في نفسه ليفعلوا ما شاءوا فنحن والحمد لله في الاراضي المقدسة وقد خلصنا من الادران فلا يمكنهم سوى قتلنا وهو يعد نعمة لنا في الدنيا والآخرة ويتوكل على الباري تعالى في كل أعماله

عزم البكباشى بكر على التوجه الى مكة في يوم السبت الثامن من شهر مارس لنقل حرم خير الله أفندي وخدم السجناء وقابل مدحت باشا لاخذ بعض أقواله ونقلها الى الظالمين لارضائهم مدعياً انه قد حضر لوداعه فقال له الباشا ألا تسافر اليوم فأجاب البكباشى قائلا نعم يامولاي أسافر اليوم فاذا كان عندكم أمر فأنا مستعد لانفاذه فقال له الباشا نعم سأكلفكم بتبليغ رسالة الى الوالي فاصغوا لاقوالي وانقلوها له بالحرف الواحد قولوا له ان عبد الحميد قد وجه اليك رتبة المشيرية وان خدمات مدحت باشا واعماله ظاهرة كالشمس وأنت ترى حاله اليوم والاحوال تثبت انهم يضمرون له الشر وقد جعلوكم واسطة للحصول على مآربهم وقد وصل الوالي الى رتبته وغدا تصل أنت أيضاً الى أعلى الرتب ويصل رفاقك الى مآربهم فاذا متم قبل عبد الحميد كتبوا رتبكم وألقابكم على احجار قبوركم واذا متم بعده فأنا لا اعرف ماسيكون من أمركم ففكروا أنتم في هذه النقطة لان عبد الحميد قد أنعم على سروري أفندي رئيس المحكمة التي حكمت علينا برتبة القاضي عسكر ولكنه قد أبعده الى ماغنيسا بعد فترة من الزمن وعزل جودت باشا ساعده الايمن في الحكم علينا وأمره فأقام في بيته محتقراً مهانا فانظروا في هذه الامور بعين الامعان لاني أرى في الامر ريبة والآية الكريمة تكفيكم مؤونة البحث . . ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما :

ثم استطرد الباشا بعد قراءة هذه الآية فقال ولا يفوتكم ان الحسن بن علي رضي الله عنهما قد قتل بأمر بعض الملوك وهو نور عين المسلمين وقاتلوه يذكرون باللعنة الى يوم القيامة وسيعذبهم الله بنار جهنم فانقلوا للوالي عباراتي بنصها وفصها فأجاب بكر أفندي قائلا سيدي انني قد شهدت الحروب ولم أقتل دجاجة خارجها ولا أريد ان أرتكب جريمة ثم ودع ومضى وتوجه الى (جبل كرا) للذهاب الي مكة مستصحباً حرم خير الله افندي وخدم السجناء

وبعد سبعة أيام عاد الرجل في يوم سبت ومعه الخدم بين المغرب والعشاء قائلا قد أعدناهم الى ساداتهم وترك خادم خير الله افندى المتزوج خارج السجن وكانت زوجة خير الله أفندي قد توجهت الى جدة مع خادمتها فعادت بعد عودة الخدم بأيام ووصلت الى الطائف واستأجرت منزلا واقامت به هى وخادمتها وكان خادم زوجها ابراهيم أفندي يقوم بخدمتهما بناء على أمر سيده

أما البكباشى بكر افندى فقد حضر الى السجن بعد يوم وقال ان التلغراف الوارد من المابين يقضى باعادة الخدم والطهاة والمأكولات وبلغ الى مدحت باشا سلام الوالي قائلا انه يصرح لكم بشراء ما يلزمكم من الطعام وانه لايريد اجراء مثل هذه الاشياء ولكن ما الحيلة لانه ضابط وتجب عليه اطاعة الاوامر قال هذا وذهب الى الحجرة المحاذية لباب القلعة

وكانت صحة مدحت باشا تحسنت وجرحه قد قارب الشفاء

اشتهت نفس مدحت باشا اللبن فارسل الى اللبان المدعو اشرف جنديا فتقلد الملازم نورى سيفه والتحق بالجندى وتوجه معه الى بيت اللبان وقال له اعندك لبن فقال ان بكر افندى طلب مني مقدارا من اللبن ولذا فقد ابقيت ثلاث اقات وليس عندى غيرها فاذا وافقكم أعطيت احداها لمدحت باشا فوافقه نورى على هذا الرأى واخذ اللبن وارسله مع الجندى الى الباشا فاشتبه الناس من نشاطه الذى لم ير في غير هذا اليوم وكان سيد بك يراقب ما يطبخه خادم الباشا من المطاعم فى ايام مرضه فكشف الاناء ونظر الى اللبن فلم يعجبه لونه فاخذ منه ملعقة ووضعها في فمه

فاحترق حلقومه من مرارته فعرضه على السجناء وعلى الملازم محمد اغا فشرب منه بعضهم مقدارا واغمى عليهم ولزم آخرون الفراش اسابيع اذ شربوا منه جرعة

ولما نقلوا هذا الحادث الى مدحت باشا دعا اليه الملازم محمد اغا وقال له متجاهلا : ان اللبان ارسل لنا لبنا من الذى يشرب به البكباشى فاصيب شاربوه باصابات مختلفة فمنهم من لزم الفراش ومنهم من احترق فمه وحلقومه واظن ان السم سرى اليه من النحاس فهل شربت منه انت ايضا فقال محمد اغا نعم شربت من هذا اللبن وكان فيه سم فقال الباشا اذاً فاذهب الى البكباشى وحذره منه لكيلا يشرب به فتوجه الملازم الى البكباشى وعاد قائلا ان البكباشى سيحضر اللبان و يعاين اوانيه و يضرب به و يسجنه و يبحث عن المسألة بحثا دقيقا على ان الناس كانوا يقولون ان البكباشى كان يقول لرفاقه قد شربوا اللبن فهل ماتوا وهل يؤثر السم بسرعة وغير ذلك وغير ذلك

وارسل بعضهم الى البكباشى مقدارا من اللبن بقصد تحليله فردهم باستهزاء قائلا ان آلات التحليل غير موجودة

واحضر البكباشى اللبان ونظر في اوانيه النحاسية فوجدها مدهونة بالقصدير ولم يقابل مدحت باشا ويحادثه عن مسألة اللبن فزادت شبهة الناس وكان خادم الباشا عارف ينام مع سيده لسبب اعتلال صحته وكانوا يغلقون الحجرة المحتوية على اوانى الطعام و يضعون على الاوانى علامات و بعد واقعة اللبن باسبوعين فتح عارف اغا حجرة الطعام فوجد علامات الاوانى مفضوضة فنظر الى الاطعمة ووجد فيها اجزاء غريبة فاخبر سيده فدعا الاخير الصهر محمود باشا ورفاقه واراهم الاوانى فعرفوا ما احتوت عليه من المواد الغريبة ولم يعرفوا واضع هذه المواد وقد رموا ما احتوت عليه من الطعام للسنانير فلم تمت فظنوا انها محتوية على شيءٍ غير السم ولكن الملازم ممش اغا ورفيقه الملازم نورى قد أقرا بوضع السم في الطعام بعد الجناية الكبرى

وكان محمود باشا قد اصيب بقيئ واسهال فظن ذلك من تأثير القهوة فتركها وانقطع اذ ذاك الاسهال والقيئ وقد اشتبهوا مرة في طعم الماء ولونه فكسروا جرة

الماء ولم يقفوا على الفاعل فعم الخوف وكثر القيل والقال

وقد اشاعوا بان السم كان يجلب من مصر بواسطة الطابور أغاسى المدعو اسماعيل أغا فقد حضر هذا الرجل مع عساكر (عونيه) الى مكة واندمج في سلك افراد الضابطة وتزلف الى الوالي والامراء بانواع الحيل والدهاء فترقى وحاز النفوذ وكان صندوق اسرار عثمان باشا فكان يقتل بامره بيد انه لم يتجاسر على القيام بهذه المهمة منفرداً وكانوا يريدون الاسراع لاتمام هذا الامر فحضر في التاسع من رجب والثالث والعشرين من نيسان سنة ١٣٠١ بلوكان من عساكر مكة وصحبتهم مدفعان و بعض افراد المدفعية والمير ألاى محمد لطفي الى الطائف واحضر اربعين من العساكر واعطاهم الدرس اللازم والحقهم بالعساكر المقيمة في القلعة لحراسة السجناء

وقبل حضور المير ألاى لطفي الى الطائف دعا البكباشى بكر افندي الحاج شكري أغا غلسا وتحادث معه مرتين عن أمور عادية ثم اعاده الى القلعة لانه لم ير فيه ما يطابق مطلوبه

ولما حضر المير ألاى رتب العساكر كما اسلفنا واتخذ مسألة اللبن وسيلة ودعا اليه عارف أغا وقال له اني احضرت السم لمدحت باشا فاذا سممته اعطيناك مكافأة قدرها الف ليرا وقد اوجدنا شخصاً غيرك لسم محمود باشا وسنعطيه ٦٠٠ ليرا ثم نبه عليه بكتم الامر عنهما وكان عارف أغا صادقاً فلم يأبه لليرات ولا للتهديد وقال له يجب ان تحول هذه المسألة الى أربابها ثم تظاهر بالقبول وعاد الى القلعة ونقل ما سمعه الى مدحت باشا ورفيقه محمود باشا فنقلاه الى رفاقهما فتقول الناس أقوالاً مختلفة وعرفوا ما سيكون من حركات الضباط واعمالهم اليومية

كان السجناء في بحر هائج من الافكار ولم يحضر المير ألاي مرة واحدة الى القلعة فزادوا ارتياباً وكان المير ألاي يحاول الاسراع فى ايفاء وظيفته فبعد حضوره باسبوع حاصر السجن بعدد من الجنود وأعطى للعساكر الموجودة في الداخل التعليمات اللازمة فلم يوفقه القدر الى اخراج نيته الى حيز الفعل للاسباب الآتية

دعا اليوزباشى ابراهيم أغا الى حجرته عارف أغا بحضور ثلاثة من الملازمين

وقالوا له سنقضى على مدحت باشا في هذه الليلة فقد أعطيناك سماً ووعدتَ ولم تقم بايفاء وعدك وانت تنام مع الباشا فاترك الباب مفتوحاً في هـذه الليلة واذا أغلقته جازيناك فقال لهم عارف أغا: أنا لا أفتح الباب: واتم السجناء صلاة العشاء واجتمعوا في حجرة واراد كل واحد الذهاب الى مستقره فقال لهم عارف لا تتفرقوا في هذه الليلة فقد عزموا على قتل سيدي فاجتمع الباشا برفاقه واخبرهم عن سر المسألة وسمع احد الملازمين صوت عارف أغا فاخبر المير ألاي فأمر الاخير بنقل عارف من القلعة الى القشـلة وحبس السجناء كل واحد على حدة فنقل عارف الى القشـلة وحضر الملازم ممش الى الجماعة وقال لهم ان المير ألاي يسلم عليكم ويقول انكم ممنوعين عن مخالطة بعضكم فليذهب كل الى حجرته فقال له مدحت باشا ومحمود باشا نحن لا نفارق هـذا المكان واذا أخرجتنا بقوة الرمح فأنت أدرى فقال الملازم أأجيب المير ألاي بهذا الجواب فقالا له نعم به تجيب وسمعوا صوت الملازم ابراهيم فنادوه فدخـل حجرة الباشاوين هو وممش فسألاهما عن بعض الامور فعجزا عن الجواب فطلبا منهما احضار البكباشى بكر افندي فحضر وقال لهما ان عارف هذا الغر لا يجب بقاؤه هنا وقد أبقيناه فكذب كذبة لا يغسلها ماء البحر المحيط فسألاه عما يدور حولهما من الحركات الدالة على سوء النتيجة فقال لهما لم ترد لليوم أوامر بهذا الصدد ولكن العساكر والضباط لا يتأخرون عن اجراء ما يؤمرون به ويكونون معذورين اذا نفـذوا مثل تلك الاوامر واقسم بالمحرجات ان ما اذيع كذب ثم فارق القلعـة وتوجه الى القشلة

وقد عذب الضباط عارف أغا ووقف الكل على ما اجنته لهم يد القدر فكتبوا الى أقاربهم وقد نقلنا صورة المكتوب الذي كتبه مدحت باشا الى عائلته اذ ودعهم فيه وأوصاهم وصيته الاخيرة وكتب محمود باشا الى زوجتـه السلطانة مكتوباً ودعها به وودع أولاده وشرح ما يحاوله اعوان الاستبداد وذكر أسماءهم طالبـاً الانتقام وختم المكتوب بخاتمه ثم كسر الخاتم ورماه خوفاً على زوجته وأولاده لان عبد الحميد لا يمتنع عن ايذائهم اذا وصلت يده الى الخاتم والى بعض المكاتيب المختومة به

﴿ ليلة الجناية ﴾

أظهرت الوقائع السابقة اقتراب النتيجة والحقيقة ان مدحت باشا ومحمود باشا قد خنقا بعيد وصول المير ألاي محمد لطفي الى الطائف بثلاثة أيام أي في ليلة الخميس ١٢ رجب و٢٠ نيسان في الساعة السادسة ليلاً سنة ١٣٠١ هجريه

بقي تلك الليلة المير ألاي محمد لطفي والبكباشي بكر في الحجرة الكائنة على باب القشلة وحاصروا السجناء بعدد من العساكر واعطوا المقيمين داخل القشلة مقداراً من الخرطوش وتركوا اليوز باشي وثلاثة من الملازمين في داخل الدائرة وفي الساعة الخامسة ايقظوا الحاج شكري أغا خادم محمود باشا وذهبوا به الى البكباشي بكر فسجنه الاخير في حجرة هناك ثم فارق القشلة في الساعة السادسة وتوجه الى دائرة السجناء ووضع جنديين على باب كل مسجون وأوجد في عقوة السجن عدداً غير قليل من العساكر شاكي السلاح وفي يدهم الحراب والبنادق والخرطوش

وهذه هي اسماء العساكر والضباط الذين قاموا بهذه الجناية

(١) المير ألاى محمد لطفي وقد وصل الى رتبة الفريق ثم قبر

(٢) البكباشي بكر وقد بقي في حجرة الضباط ليلة الجناية وكان رفيقه المير ألاى في القشلة وفعل العساكر فعلتهم بأمر الاثنين ومات هذا البكباشى فى بيروت بعد ان عمي وكانت الحكومة العثمانية قد كافأته برتبة الفريق

اسماء قاتلي مدحت باشا

ابراهيم اغا الشركسي اليوز باشى الاول في الفيلق الثاني والألاي العاشر والطابور الثالث وقد نال رتبة القائمقام ومزقه العربان في اليمن

نوري أغا ملازم البلوك الثانى

أحمد شاويش من البلوك الثاني ومن أهالي شناق قلعه

الكوندرهجى اسماعيل من البلوك الاول ومن اهالي يوزغات

احمد من البلوك الثاني ومن اهالي كوتاهيه

محمد من البلوك الثاني ومن اهالي كوملجنه

رجب من البلوك الثانى ومن اهالي كوملجنه

عثمان من البلوك الرابع ومن اهالي قره حصار

اسماعيل الحلاق من البلوك الثاني ومن اهالي ادرنه ومحلة با يزيد وهـذا الخبيث هو الذي خنق المرحوم مدحت باشا وقضى عليه

اسماء قاتلي الصهر محمود باشا

ممش اغا الملازم الثانى ومن اهالي اسبارطه وقد جن ومات في اليمن بعد وصوله الى رتبة البكباشى

محمد أغا الملازم الاول في البلوك الثاني ومن اهالي اوده مش وهو لليوم فى اليمن برتبة البكباشى

حسن شاويش من البلوك الثاني ومن اهالي كوتاهيه

سليمان شاويش من اهالي قره حصار

وهذا ورفيقه هما اللذان قد وضعا الحبل في عنق محمود باشا وخنقاه وقد أقر بجنايتهما

محمد الاونباشى الاول في البلوك الرابع

عثمان من البلوك الاول ومن اهالي قره حصار

احمد من اهالي شوروم ومن البلوك الاول

علي من البلوك الاول ومن اهالي حمان

مصطفى الحلاق من البلوك الرابع ومن اهالي كوملجنه

علي من البلوك الرابع ومن اهالي زيله

وهذا هو احد واضعى الحبل في عنق محمود باشا

اسماعيل من اهالي ادرنه والاونباشى في البلوك الثاني

(وقد كان بين العساكر رجل عالي الهمة اسمه عثمان شاويش من اهالي كنغرى فلما طلب منه اخوانه مشاركتهم فى الجناية قال ان حميتى الاسلامية تأبى قتل الابرياء وفر الى بيت الخلاء فكدره الضباط وآذوه بعد الجناية)

(المترجم) عثمان شاويش البطل العثماني حي لليوم وهو يقيم ببلدته بعد ان ادى مدة خدمته في الجيش والبلدة تابعة لولاية قسطمونى وقد كنت هناك في العام الماضي فرأيت والي قسطموني سليمان نظيف بك يسأل عن الرجل ويذكر محاسنه ولم يكتف بالسؤال عنه بل ارسل الى متصرف كنغرى فأحضره وارسله الى الاستانة معززاً فاجرت له الحكومة العثمانية مرتباً كافياً وكافأته على صداقته وحميته الوطنية وقد ذكرت الحادثة جرائد الولاية ورأى هذا العاجز ذاك الشهم الغيور:

جمعت الحكومة هذا العدد من جنودها وسجن اعوانها عارف اغا خادم مدحت باشا فى حجرة منفردة وكان علي بك نجل نامق باشا نائماً مع الفقيد في حجرة واحدة فكسروا باب الحجرة نصف الليل واخرجوا منها علي بك ودخل الجناة على مدحت باشا فخنقوه ولم يقل لهم رحمه الله كلمة واحدة بل ذكر لهم الرب وحذرهم ونصح لهم قائلاً ان الجندي يحافظ على بيضة الوطن ولايرتكب الجنايات

وكسروا باب حجرة الصهر محمود باشا ودخلوا عليه وكان الملازم محمد أغا قد أحضر حبلاً فوضعوه في عنقه وعذبوه عذاباً اليماً فمات بعد ان كسر ممش أغا ذراعه بعصاه وكان بينهم رجل اسمه علي بابا فتعلق بخصيتى الصهر قائلاً ليمت ليمت بسرعة ولما كسر الجناة باب الحجرة افاق المرحوم من نومه واخذ الوسادة وقابلهم بها مدة ثم كلت قواه فعرف ان المقاومة لا تجدى وصاح بأعلى صوته قائلاً (امان الله) فصم صراخه الاذان ونادى الناس بعضهم قائلين أيها المسلمون ان الجناة يقتلون البشوات فلعن الله الظالمين ورفع الناس أصواتهم

ولما استشهد الرجلان وضعوهما في فراشهما ونقلوهما الى محل الغسل الموجود في القشلة (ولما نقلوا محمود باشا ظن احد الجناة انه تحرك وان فيه رمقاً من الحياة فاجهز عليه وخنقه)

ابقوهما في المغسل الى الصباح وكانوا قد أمروا بعض اعوانهم فحفروا قبريهما ليلاً ثم دفنوهما قبل صلاة الفجر بواسطة الجنود رحمة الله عليهما

وقد فتحوا دكان علي بك البروسه لى ليلاً واخذوا منه الاكفان واناطوا أمر

غسلهما بامام الطابور المدعو يونس افندي فأبى قائلا قد خنقا ورب الكعبة فدفنوهما بلا غسل ولا كفن

وكان خير الله افندي يقيم في الحجرة الكائنة حذاء حجرة محمود باشا فكان الحراس يقولون له لا تخف يا مولاى . ليس عليك بأس وستذهب غدا الى بيتك على ان خير الله افندي قد استيقظ من نومه مرعوباً وسمع استغاثه الصهر محمود باشا فرمى ما في حجرته وراء الباب خوفاً من الجناة و بقي في الحجرة كالميت وقام المابينجي فخري بك من نومه مرعوباً اذ سمع صوت محمود باشا الجهوري واراد الخروج من الحجرة فقال له النوبتجي : الخروج ممنوع : وصوب رمحه الى صدره فبقي في حجرته الى الصباح وهو يشكو الى اليوم خفقان القلب الذي اعتراه من الخوف في تلك الليلة المشأومة

ولما استيقظ السجناء في الصباح عانق بعضهم بعضاً وودع الصديق صديقه متأهباً للموت العاجل ورأى الناس جنازتي الفقيدين فعلموا سر استغاثة الليل وانتشر خبر الجناية بين الافراد

كتب الميرألاى محمد لطفي ورفيقه البكباشى بكر تقريراً (جورنالا) وصفوا به جنايتهم واخذوا من الطبيب ناشد افندي شهادة قال فيها ان مدحت باشا قد مات من الخراج و بعد اسبوع كتب الطبيب أيضاً تقريراً قال فيه ان محمود باشا قد توفى بالحمى التيفوسية وذكرت هذه التقارير جرائد الاستانة

ومن الصدف الغريبة ان الوالي قد أصيب بداء الفالج بعد ان وصل اليه خبر قتل الرجلين بأسبوع

وقد وضعوا على قبريهما حجرين كتبوا على الاول مدحت باشا توفى في ٢٦ نيسان) و (محمود باشا توفى في ٢ مايس) وهذا هو الكذب بعينه

و بقي الحجران زمناً الى ان هدمهما احمد راتب باشا في الايام الاخيرة ومحا اثر القبرين

اشاعوا ان مدحت باشا قد مات بسبب الخراج فلم ينخدع احد لاشاعاتهم

لان صوت محمود باشا ليلة الجناية قد صمّ الاذان ودفن الاثنين في الصباح واقرار العساكر قد أوقف العالم على سر الجناية فلم يأبه احد لاقوال الجواسيس

وكان مدحت باشا ينتظر الموت ويشعر بقرب الاجل وقد قال قبل موته بايام أقوالاً ننقلها للقارئ

فكر مدحت باشا بعد الصلاة برهة فسأله رفاقه عن سبب تفكره فقال (افكر في الموت الذى لايستمر ألمه اكثر من خمس دقائق ولكن اي موت اخف على الانسان أموته مخنوقا ام بالرصاص ام بالمرض هذا الذى افكر فيه لانى قد وصلت الى سن الشيخوخة وقد شفيت من المرض ولو قضى علي لرجحت الموت على الحياة ولكن ما الحيلة وقد طال العمر وقد حبسوا لأجلنا هنا بعض الابرياء وربما خلصوا بسبب موتنا) قال ذلك فتأسف الحاضرون

كسر الجناة الأبواب والمفاتيح ليلة الجناية وحضر ممش اغا ومحمد اغا فى الصباح فاصلحوا ما تكسر ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم من امتعة الشهيدين وحضروا بعد يومين فنقلوا ما بقى الى الحجرة الكائنة على باب القشله ووضعوا على بابها بعض الحرس وبعدعشرين يوما باعوا الامتعة في السوق علنا وارسلوا بها كشفا الى المابين

يقول اليوزباشي ابراهيم والملازمان ممش ونورى ان احد الكشفين قد احتوى على ستة آلاف من القروش والكشف الثانى قد احتوى على ثمانية آلاف من القروش وكان مدحت باشا يملك من النقود اكثر من ٢٠٠ ليرا و٢٠٠ من الريالات غير أمتعته وكان عند محمود باشا اكثر من ٢٠٠ ليرا غير امتعته وهذه النقود يعرف مقدارها رفاقهم فكيف تصل الى هذا القدر في كشف البيع الا بالسرقة

ان مدحت باشا قد اعطى لخير الله افندى ٤٠ ليرا وقال له (اذا مت فاصرف هذا المبلغ لتكفينى ودفنى) وكان خير الله افندى ورفاقه يجهلون مغبة حالهم فدعا البكباشي بكر وقال له ان عندى كذا وكذا نقودا فخذها لان حالتى لا تساعد على حفظها فخذها واصنع ما يلزم بواسطة القاضي والحكومة وكان هذا المبلغ يساوى وحده ستة آلاف من القروش بعملة البلدة وهو ما كتب فى الكشف

كتبوا الى المابين تلغرافا اخبروه فيه عن قتل الرجلين فلم يصدق عبد الحميد بل قال انهما قد فرا واذا كانا قد ماتا فاي مرض اصابهما فنظم الاغوات والبشوات والاطباء مضبطة و بعثوا بها الى المابين وكلفوا بعض الاهالي المقيمين بالقرب من القلعة التصديق على المضبطة فلم يوافقوهم قائلين نحن لم نر شيئاً فلا نصدق على مضبطتكم وحضر الميرآلاى محمد لطفى الى السجن بعد الجناية بايام لتخفيف حزن السجناء وقال لهم ان امر القتل قد بلغ الينا بواسطة بحرى بك بن بدرخان باشا وارسل المابين برقيات متعددة الى الوالي قائلا لو انطت هذا الامر بأحد افراد الجاندرمة لاتمه لليوم

وهنا شيء يستجلب النظر وهو انهم قد حاولوا كتم الجناية ولكن اخبارها قد انتشرت بين اهل الطائف ووصل صدى شناعتها الى اهل المدينة المنورة واهل مكة بسرعة عجيبة

وحضر بعض الهنود والمسلمين التابعين لحكومة فرنسا بقصد الحج فبلغهم هذا الحادث الجلل فاخبروا قناصلهم وكتب الاخيرون الى بلادهم عن اسرار الجناية فنشرتها جرائد اوروپا مفصلة

لم يصدق عبد الحميد خبر وفاة مدحت باشا بل ظن انه فرّ واذاع بعضهم ان الشريف عون الرفيق باشا قد ساعده على الفرار فصدق عبد الحميد وارسل رجاله مرتين لاظهار الحقيقة فبعث بحسين بك في المرة الاولى (هو الفريق حسين باشا اليوم) وفي المرة الثانية بعث الياور شاكر بك (وهو اليوم الفريق شاكر باشا التترى فرأيا السجناء وعاينا حجرتى مدحت باشا ومحمود باشا واجريا تحقيقات عميقة في الطائف وفي سنة ١٣٢٢ صدر في اوروپا كتابٌ قال فيه مؤلفه ان اوهام عبد الحميد قد تغلبت عليه فأرسل الى الطائف أمرا قاضيا بحفر قبر مدحت باشا ونزع رأسه من جسده ووضعه في صندوق وارساله الى الاستانة وقد كتبوا على الصندوق (مصنوعات من العاج لجلالة السلطان) لتهريبه من الجمرك اثناء مروره من قنال السويس ويقول بعضهم ان على وصفى افندى قد توجه الي القبر الذى يظن انه

قبر مدحت باشا بعد اعلان القانون الاساسى ونبشه فوجد الرأس ووجد بعض الاسنان باقية و بعضها منزوعة وهي تشابه اسنان مدحت باشا تمام المشابهة

ونحن لم نقف لليوم على نصيب هذه المسألة من الصحة فيجب علينا السكوت الى ان تنجلى الحقيقة التى لاريب فيها

﴿ اللائحة التي عزم الوكلاء على تقديمها للسلطان عبد العزيز ﴾

ان جلالة مولانا السلطان الذي اشتهر بكمالاته العلمية والعملية وزين الاريكة بجلوسه وشهد له العدو والصديق ببعد النظر وعلو المكانة وصدق الفراسة فجعل نصب عينيه رفع شأن حكومته المحروسة بعناية الله وسلم اليه الجمهور أمورهم منقادين مطمئنين بيد ان الطوارئ الداخلية والخارجية تؤثر في احوال الدولة الاقتصادية والسياسية خصوصاً في هذا العصر عصر الدسائس والمكائد التي لا نأمن مغبتها بسبب موقع بلادنا فيجب علينا تغيير اعمالنا الحالية

وقد صدرت ارادات جلالتكم وخطوطكم الهمايونية وصرحتم في خطاب العرش بلزوم اتباع الاصلاح المطلوب ومع هذا فقد انتجت كثرة تبديل موظفي الدولة تغيير الاحوال وضل اكثرهم الطريق ولم يسيروا وفق مطلوب جلالتكم بل خرجوا عن جادة الاستقامة وأفسدوا ما أحدثته يد الاصلاح وقد اوقع الناس في حيرة اختلال المالية وحدا بهم الى نشر الاراجيف في داخل البلاد وفي الخارج وسيؤثر في الافكار العمومية تأثيراً سيئاً على تمادى الايام فالناس يقولون اليوم ان هذه الاحوال ستنتج انقراض الدولة وهذه الدولة التي قد نجاها الله من المخاطر والازمات بقدرته وكرمه لا تخرج اليوم من الضيق الا بتدبيركم وحكمتكم فاذا لم تتلاقوا هذا الامر بسرعة وقعت في كوارث وانتم الساهرون على راحة رعاياكم ورفاه اتباعكم وقد اضطرتنا وطنيتنا الى عدم السكوت والوقوع فيما لا تحمد عقباه فلجأنا الى اعتابكم الشاهانية لان الدواء قد تعذر والشفاء قد عز ولا يخفى على حكمة جلالتكم ان الدواء الشافي لهذه العلة هو اجتثاث اسبابها التي نعرفها حق المعرفة فاذا

أزيلت الاسباب زالت العلة وخطوط جلالتكم الهمايونية وارادتكم السنية قد بينت الداءوالدواء فاذا اصدرتم خطاً همايونياً جديداً حتمتم به اتباع القوانين والنظامات والمساواة بين الغني والفقير والكبير والصغير في نظر القانون وارجعتم المحلات الخيرية الى أصلها وصرفتم الاموال في سبيل ما خصصها له الواقفون واعدتم مرجع امور الدولة الى الباب العالي فقرر قراراته وعرضها على جلالتكم ولم يستأثر بشيء من حقوق الدولة المالية والملكية ولم تصرف المالية قرشاً واحداً الا برأي الباب العالي ويجب ايضاً تحديد وظائف كبار الموظفين واصاغرهم من جديد وجعل النظار مسئولين من نتائج أعمالهم باصدار ارادتكم السنية وتحتيم اتباعها على خواصكم ورجال حاشيتكم فاذا بذل الجهد لاتباع تلك الارادات حصلت النتيجة المطلوبة بعونه تعالى ووصلت الدولة الى الطريق الذي ترجوه جلالتكم

هذه الاقوال هي نتيجة تفكيرنا وربما اخطأنا ولم نصل بها الى الغاية المطلوبة وعليه فنحن نطلب من جلالتكم تخليص الامة التي قد اصبحت مصالحها بين يديكم من ازمتها الحاضرة وعلى كل حال فالرأي لكم أفندم

(أقوال احد اكابر الانكليز)

كتب السر هانري اليوث في مجلة (نايننتنس سانشورى) التى تصدر في لندره بامضائه سنة ١٨٨٨ في عدد شهر فبراير سنة (١٣٠٥ افرنجية) قال

قابلني احد اعضاء حزب مدحت باشا ذاك الحزب الكبير الذي قد ضم تحت جناحيه عدداً كبيراً من الكبراء والامراء والوزراء وقال لي ان غرض حزبهم وهدفه الوحيد الذي يرمى اليه هو اعلان الدستور في تركيا وكان كلامه لي قبل عقد موئتمر الاستانة فالقانون الاساسي (الدستور) لم يعلن في تركيا لتثبيط همم رجال المؤتمر اذ ذاك

و بعد أيام قلائل حضرني مدحت باشا نفسه وحادثني في هذه المسألة فقال: ان التبذير في بلادنا قدبلغ درجه لا تطاق فالماليةترسل الاموال الى المابين فيصرفها السلطان في ملذاته والوكلاء (النظار) يبيعون الوظائف بيع السلع فالوالي يشتري

وظيفته من الصدر الاعظم ويذهب الى الولاية فيعامل الاهالي بأنواع الظلم وضروب الجور الامر الذي خرب الولايات وهذه هي الاسباب الوحيدة التي أوقعت الدولة في أزمة شديدة لا سبيل لها الى الخلاص منها الا بتبديل الادارة الحالية ويلزم لتبديلها أولا احداث مجلس ملي وجعل النظار مسؤولين أمامه وثانياً ان يكون المجلس ملياً بحتاً فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر وثالثاً ان يوضع الولاة في الولايات تحت رقابة شديدة

قال لي هذا الرجل الكبير المجرب هذه الاقوال وهي عين الواقع فوافقته على اصابتها و باركت له

وقد سألني مدحت باشا عن درجة تأثير هذه الاصلاحات في انكلترا وما سيكون عليه الرأي العام الانكليزى بعد اجرائها فقلت له ان الانكليز سيحبذونها ويتمنون له التوفيق لانهم مثلي يبغضون الاستبداد ويحبون الشورى قلت له ذلك بصفة خصوصية لاني أعرف ان الانكليز يجزمون بنجاح الدستور في تركيا ويفرحون اذا خلصت من براثن الاستبداد انتهى

المكتوب الذي أرسله السلطان عبد الحميد الى مدحت باشا

وزيري سمير الصداقة مدحت باشا

ان لائحة الدستور التي قدمتموها لحضورنا العالي قرأناها ورأينا في غضونها ما لا يوافق احتياجات البلاد ولما كان جل مقاصدنا هو حفظ مستقبل البلاد بل وضع نظامات جديدة لاسعاد الاهالي فنحن نحبذ ما بذله رجالنا لهذه الغاية وعليه فقد وضعنا لائحتكم على بساط البحث بين أيدي الوكلاء لتحويرها وجعلها وفق المطلوب فبلغوا سلامنا للصدر الاعظم واعرضوا عليه أمرنا هذا واقبلوا سلامنا واجعلوا المسألة مكتومة بينكم وهذا جل مطلوبي

٩ ذى القعدة سنة ٩٣ عبد الحميد

من مدحت باشا الى باشكاتب المابين الهمايوني

عطوفتلو أفندم حضرتلرى

ان العنايات التي يبذلها ولي نعمتنا المعظم تجعل هـذا العبد عاجزاً عن اداء فرائض الشكر وقد قدمت من مدة الى العتبة العليا اللائحة المختصه بالدستورفشملني جـلالة السلطان بلطفه ونظر الي نظرة لا أنساها ما كر الجديدان وتعاقب الملوان أما اللائحة التي قدمتها الى جلالة مولانا السلطان فاني أعترف بنقصها أيضاً لاني لم أقدمها بقصد الاسراع في تنفيذها بل كتبتها كمسودة قابلة للتغيير والتبديل وعرضتها على العتبة السنيه بناء على طلب سابق لجلالة السلطان

وقد صححت بعض موادها ووضعتهـا على بساط البحث في مجلس الوكلاء وجاء دورها و بلغت أمس ارادة جلالة مولاي الاعظم الى الصدر الاعظم

وأرى الاخلاص يضطرني الى تـكرار ما قلته لجلالة السلطان وهو ان لنا طريقين للخروج من الازمة الحاضرة أولهما القيام بما وعدنا به الدول الغربية واجراؤه قبل عقد المؤتمر الذي لم يبق لعقـده وقت سوى ثلاثة أيام والثاني قبول تكليف الدول والبقاء تحت وصايتها الى أبد الآبدين فاذا لم نسلك الطريق الاول أونعلنه قبل عقد المؤتمر اضطررنا الى الثاني والامر لـكم

١١ ذى القعدة سنة ٩٣ مدحت

من الصدر الاعظم مدحت باشا الى المابين الهمايوني

ان اخطارات الموسيو تييرس تحدو بنا الى تحسين ادارتنا أعني الى اظهار الافعال لان حلفاءنا يشـيرون علينـا بذلك وقد ورد اليـوم تلغراف من موزروس باشا فحواه ان اللورد دربى يعد انحلال المؤتمر ظفراً للدولة العثمانية ويبارك للدولة العلية وينصح لنا بعقد شروط الصلح مع الصرب بسرعة واعلان الدستور واجراء ما قبلناه في المؤتمر من المواد التي لا تخالف الدستور وقد نظرت الى هذه الامور نظر المعتبر وابتدأت باجراء ما يلزم من الاعمـال وصدرت ارادتكم السنية قاضية بعدم قبول أبناء غير المسلمين في المكاتب العسكرية وهي مما يثبط همم المخلصين الذين

يريدون اصلاح شؤون الامة وبناء عليه فان هذه المادة قد حالت بيننا وبين تنفيذ غيرها من المواد النافعة للوطن والتي قد سبق العزم على وضعها اليوم في مجلس النظار على بساط البحث وقد كتبت عن هذه المسألة مذ أمس فلم يصلني الجواب فحركاتنا البطيئة نحو الاصلاح تسوقنا الى مراجعة مرحمة جلالتكم الجليلة ولا نقول غير ذلك أفندم

٩ محرم سنة ٩٥ مدحت

من سعيد باشا باشكاتب المابين الى مدحت باشا الصدر الاعظم

ان لائحة سالسبورى ولوائح أعضاء المؤتمر محتوية على مواد غير قابلة التنفيذ كما أخبرتم ولما كانت اللائحة الثانية لم تصل الى عالى علمكم فاذا لم تقرر الدول الغربية قبول ما أحضرتموه من الاجوبة فانظروا في كل ذلك وضعوه على بساط البحث وفكروا في مواد القانون الاساسي ووالوا اجتماعاتكم في أيام العيد السعيد كما اقتضته ارادة جلالة السلطان والامر لولى الامر العبد

٨ ذي الحجة سنة ٩٣ في الساعة ٣ ليلا سعيد

غيره

ان ارادة جلالة السلطان قد صدرت قاضية بتبليغ العبارات الآتية اليكم بسرعة. مذ أيام حاول سفير الروسيا حمل ملك الملوك على تنفيذ التكاليف المعلومة وقد امتدت الثورة في طول البلاد وعرضها ولا سبيل الى الخروج من هذه المآزق الا باستجلاب رضاء دول الغرب واذا دامت الحال على هذا المنوال فالخطر ملحوظ والمسؤولون عن تبعته هم مسببوه بلا شك هذه هي أقوال سفير الروس وقد ظهرت على وجهه علائم الانفعال وشاهدها مخاطبوه وبعد مدة استأنف الكلام فقال ان روسيا لا تريد اعلان الحرب وانه يقابل جلالة السلطان ويحادث أرباب الحل والعقد ومديري دفة الحكومة للوصول الى نتيجة مرضية وقال أيضاً انه سيقابل سفراء بقية الدول ويحادثهم في هذا الشأن ويحثهم على الاتفاق معه لطلب نفس مطالبهم لتلافي اعلان الحرب ثم أوصى بتبليغ كل أقواله الى جلالة السلطان فقابل الوسيط الذي حادثه ملجأ الشوكة وبلغه رسالة السفير فقال له الخليفة ان العثمانيين يعرفون

من أين يأتيهم الضرر وقد اتحد المسيحي والمسلم واستعدوا لمقابلة كل قوة وثار ثائر الافكار فاتحد البلغاريون مع المسلمين على الاعداء وهم هم الذين تحاول روسيا حمايتهم وأعمالهم اليوم تثبت صدق ما قلناه فاذا أصرت أية دولة على تلك المطالب اضطررنا الى مجاراة تيار الرأي العام فرجع (ايغناتيف) عن رأيه بعد هذه الاقوال وسكنت سورة غضبه أما خطة سالسبورى فستتبدل أيضاً وقدأوصينا أعضاء المؤتمر باتباع هذه الخطة في محادثاتهم لان اتباعها لا يخلو من الفائدة والامر والفرمان لولى الامر

العبد

٢٢ ذي الحجة ٩٣ سعيد

غيره

ذكرنا مسألة القائمة فقال جلالة السلطان ان سقوط أثمانها سببه هو ان الموسيو ظريفي قد أخرج منها عدداً كبيراً بلا روية وان ناظر المالية قد أخطأ الهدف ولم يفكر في المسألة وأنا أنقل لكم حديث الامس فقد قال غالب باشا اذا كان ناظر المالية غير مقتدر فتبديله واجب بل يتحتم تعيين رجل لم يدنس شرفه في الامور المالية فصدرت الارادة السنيةقاضية بتعيين رجل بهذهالصفة وقد قرأ جلالة السلطان تلغراف أوديان أفندي فاذا قابل (الماركي دي سالسبورى) وحادثه عن الاحوال الحاضرة فيجب عليه عدم السكوت أو الجاء محدثه الى مراجعة الباب العالي بل يتحتم عليه الاستناد على الادلة التي قد اتبعها الباب العالي لرد المطالب المعلومة عملا بارادة السلطان لان القومسيون المختلط يؤثر في استقلال الدولة ويخل نظامها وأقرب طريق هو حل المسألة بغير وساطة الاجانب وهذا غير ميسور ولما كانت الغاية حفظ استقلال الدولة فيجب التفكر وقد كتبت صورة حل لاوديان أفندي بالأمس كما دل على ذلك التلغراف الذي أرسله وعليه ففي المسألة أمل يبعث على الاعتقاد بقرب النتيجة هذاما قاله المتبوع الاعظم وقد أرسلت لكم ما قدرت على كتابته في قومسيون صباح اليوم اتباعاً للارادة السنية التي صدرت لى فى هذا الصدد

العبد

٢٥ ذي الحجة سنة ٩٣ سعيد

غيره

ان ترجمة تلغراف أوديان أفندي قد وصلت الى عبدكم بعد عودته الى منزله وكان جلالة أفندينا صاحب الشوكة قد شرف الحرم الهمايوني فلا سبيل الى عرضها على مسامع جلالته وعليه فقد أبقيت المسألة للغد لاعرضها عليه وأعرض ما يصدر به أمر أبهتكم

والظاهر ان التلغراف الذي أشار أوديان أفندي الى ان اللورد ديسرائيلي أرسله قد حضر ولذا فان المسيو ليوت يقول ان الاحوال الحاضرة ستنتج الاصلاح السريع ويقول بان الدولة العثمانية ميالة للاصلاح وان المؤتمر سيتم عمله في القريب العاجل بيد انه قد بقي عنده أمر واحد هو وضع نظام قومسيون مختلط موقت قال ذلك علناً وأنا أنقل اليكم أقواله لاعتمادي على شهامتكم وليس قولي من قبيل الرسميات فقبولنا للاحكام الدستورية يبطل مساعي أعضاء المؤتمر وما قاله أوديان أفندي هو في مصلحتنا واذا راجعتم فكر أبهتكم اتضح لكم اني قد قلت لكم مثل ذلك مذ عشرين يوماً فالقانون الاساسي الذي هو من حسناتكم لا تقوم له قائمة الا بهذه الطريقة وعليه فلا سبيل الى اضاعة الوقت بالأخذ والرد والسؤال والجواب بل يتحتم الحضور الى السراي ومقابلة جلالة السلطان وارشاده الى الحقيقة للوصول الى الغاية المطلوبة وعلى كل حال فالامر لمن له الامر

العبد
سعيد

في الساعة ٦ ليلا ٢٥ ذي الحجة سنة ٩٣

غيره

فهمت ارادة أبهتكم السامية وعدت أمس من حضوركم السامي ورأيت القومسيون مجتمعاً فقلت ان معاهدة باريس قد كفلت استقلال الدولة ولا يجب ان نشقها بيدنا لان انعقاد مؤتمر في الاستانة سيفتح لنا باب المؤتمرات أما سفير فرنسا فيقول ان رئاسة المؤتمر ستكون لنا وان رأي أعضائه الاجانب يكون شورياً لا قطعياً والظاهر ان سفير الروسيا لم يبق له أمل في الباب العالي فهو يريد حل كل شيء بواسطة السراي الهمايونية وجلالة السلطان لا يظهر الا الثبات والانصاف

وقدشعرت من جلالته قبل وصول ارادة أبهتكم بانه سيحادث (المارك دي سالسبورى)
عن آمال العثمانيين وعن حقوق الدولة الشرعيـة ولا يخرج عما يقتضيه هذان
الواجبان الوطنيان فثقوا بان الذي سيحصل لا يغاير مصالح الوطن وعلى كل حال
فالامر لولي الامر العبد

سعيد

غيره

وصلت أوامركم الخديوية العاليـة ليد العبـد العاجز ولا يخفا كم ان جلالة
السلطان مصاب بألم فى أسنانه ولذا فانه لم يشرف المابين الهمايوني فى هذا اليوم
حتى ان ناظر باشا قد حضر الى المـابين الهمايوني لعرض مقررات المؤتمر وترك
الاوراق والتلغرافات واست أدري هل يمكن عرض أوراقه أم لا وقـد اشتهر
رشـدي باشا بذكائه النادر وآرائه الصائبـة بين دول الشرق والغرب واشتهرتم
بفضائلـكم و بوضع القانون الاساسي الذي سيخلص الدولة من هذه الازمة ويقول
أوديان افندي فى تلغرافه ان أعضاء الوزارة سيقدمون استقالتهم بسبب خلاف
حدث بينهـم فيجب عليكم تـكذيب تلك الاشاعة لازالة سوء تأثيرها فى سمعة
الدولة والامر لـكم أفندم العبد

٥ محرم سنة ٩٤ سعيد

غيره

ان تذكرتكم السامية المحتوية على بعض المواد المتعلقة بقبول ابناء غير المسلمين
فى المكاتب العسكرية سـتقدم الى الخاقان الاعظم وقد أرسلنا لابهتكم بعض
الارادات السنية فى هذه الاونة وكنا قد كتبناها بالامس ولكن الوقت لم يساعد
على ارسالها والسبب فى كتابتها هوما قرأه سفير الروسيا على أعضاء المؤتمر وخلاصتها:
ان جلالة السلطان قد صدق كل أقوالكم السابقة وختام المؤتمر بخطبة (ايغناتيف)
التهديدية قد آسف جلالتـه وهنا نقطة أخرى توجب الاسـف وهي ان
الدولة العلية قد اعلنت الدستور مختارة فقال هذا السفير بأعلى صوته في المؤتمر ان

دستورنا حبر على ورق ثم استطرد فذكر غير المسلمين وقال اننا لا نحافظ على عاداتهم وتقاليدهم وقال ان الفرمان المحتوي على خمس مواد الصادر في زمن محمود باشا قد أهمل ولو روعي لكان أحسن من الدستور وخرج عن دائرة وظيفة المؤتمر والذي جرأه على ذلك هو استماع الحاضرين وتركهم التصدي له وتزييف اقواله وكان الواجب علينا التأخر عن حل المؤتمر وتأخير امضاء أوراقه وكتابة لائحة تزييفاً لمفترياته واثباتها في أوراق المؤتمر فانتشار قرارات المؤتمر بهذه الصورة لا يخلو من سوء التأثير فاذا امكن انذار الرجل فقد صدرت الارادة السنية بذلك والامر لمن له الامر افندم

العبد

٨ محرم سنة ٩٤

سعيد

نمرة ٦

قرانا مكتوبكم الوارد بتاريخ ٢٤ نيسان سنة ٩٤ بكمال الاهمية وعلمنا ان الوطن قد وقع في مصائب لم تقع لغيرنا من الامم كما اخبرتم فيا اسفي على ابناء الوطن البؤساء كيف يتحملون هذه الارزاء فيلزمنا اليوم شيء واحد وهو مقابلة المصائب بالصبر والثبات ومشاورة ذوي الراي والحصافة وعليه فاجتماع اهل الروميلي في الاستانة قد شكل جمعية كبيرة وهذه الجمعية قد انضممتم اليها وهذا مما يوجب اعلاء شرف الوطن ولا يخفى علم دولتكم ان مصائب الوطن المتوالية قد تسببت عن اشتغال عظماء الامة بمنافعهم الذاتية وعدم قبولهم تبعة أعمالهم

اعتقد ان عدد الاهالي كان كافياً لمنع الروس عن اقتحام البلقان ولكن القائلين بان الروس يضمرون لنا الشر لم تسمع اقوالهم ولو جمع اهالي الروميلي جموعهم ودافع كل واحد عن ماله واولاده لما وصلت البلاد الى حالة الخراب وظن الاقارب والاباعد ان الاتراك قد اصبحوا في عداد الاموات

وقد اظهر عساكرنا والحمد لله شجاعتهم وشهد بها العالم وحمل الاهلون السلاح في هذه الايام فهاب الاعداء سطوتهم واثر منظرهم في الدول الاجنبية التي تحاول اقتسام اسلاب العثمانيين فتبدلت الاحوال وتطورت المسألة بطور غير طورها فغير القائلون

بوجوب اخراج المسلمين من الروميلي لهجتهم وقالوا بوجوب تأسيس ادارة مشتركة في الروميلي وساعدهم الانكليز وغيرهم ولا يخفى على فطنتكم ان الدول المحالفة لنا لا يمكنها المجاهرة بمساعدتنا في زمن الحرب فلا سبيل الى طلب الاعانة خصوصاً بعد مطالب الانكليز التي تشير الى احد الامرين وهما اما الصلح واما الحرب فاذا حصل الصلح وفقنا الى عقد شروط موافقة لشرف دولتنا بسبب كثرة العدد والعدد واذا اعلنت الحرب كان النصر لنا بعون الله تعالى فبناء على ما تقدم يلزم حث الذين قد خرجوا الى الجبال على الصبر والثبات وانتهاز الفرصة للتنكيل بشراذم الاعداء والامتناع عن التعرض للفيالق الكبيرة ليقع الروس في مأزق الهلاك

والمظنون ان اهالى الاستانة فى هرج ومرج فيلزمهم السكون والصبر في هذه الآونة لان العدو على الابواب ٧ مايس سنة ٩٤

نمرة ٧

ان العاجز قد سر بتوجيه مقام مشيخة الاسلام الى رشادتكم ولما كنت اول المخلصين لكم فانى ارجوكم الظفر والتوفيق في خدمة الدولة الاسلامية

وأنتم واقفون على غوامض اسرار الحقائق ولكن الخارج عن دائرة الاعمال يرى ما لا يراه الداخل والذي يلعب الشطرنج لا يرى من الدقائق في لعبه مثل الخارج عن دائرة اللعب ولذا فانى ابدى لكم بعض ارائى مع ان حالي وصفتي لا يجيزان لي التداخل في الامور غير ان حال البلاد وما وقعت فيه من المهالك والمخاطر العظيمة يضطر كل فرد من ابناء هذا الوطن الى القيام بنصيبه وانا أيضاً اقوم بهذا الواجب لاني من ابناء الوطن فبسبب هذه الوظيفة المشتركة أعرض خلاصة أفكاري وهي

اولاً ان ما كلفنا به اعداؤنا كان نتيجة انهزامنا في الحرب الاخيرة فقد رفضنا ما عرضه علينا مؤتمر الاستانة واعلنا الحرب صيانة لشرف الامة العثمانية وكان الانكليز والنمساويون والافرنسيون ينتظرون انهزامنا فاستمرت الحرب ثلاثة اشهر وآب الروس بالخزي والوبال وعرف العالم المتمدين قوة دولتنا وسطوتها ولم يقولوا

ان العثمانيين قد ماتوا وما ذلك الا بفضل قائدنا الكبير ودرايته العسكرية

وكان عدد عساكرنا في جهة الروميلي غير قليل وانتظر الناس انتصاراتنا بيد ان احوال القائد المعلومة قد افضت الى نتائج غير منتظرة فبدل بسرعة وتولد الامل في صدر كل وطني واخذت آثار التحسين تظهر وكنا كل يوم نسمع بمصائب الروميلي وهاجر الاهالي زرافات ووحداناً الى الاستانة وثار اهالي كريت وظهرت نيات اليونان فقال الناس لا بد من الصلح للخلاص من هذه الكوارث واقترب العدو من قلبه وادرنه وفي الحقيقة فان الذي اعياه التعب يميل الى الراحة بيد ان الدولة العثمانية هي حامية الاسلام الوحيدة والصلح يعود على المسلمين بالوبال اذا حصل عقيب الهزيمة وتصل حالة أهالي الروميلي الى اقصى دركات الذل ويصبح المسلمون كتتار القديم والتاريخ يثبت ان الصلح المنعقد في ادرنه ومعاهدة فينارجه قد بقي ضررهما في دائرة محدودة ولكن هذه الحرب لا تشبه الحروب التي انتجت تلك المعاهدات لانها قد أعلنت لاجتثاث أثر الدولة الاسلامية فالذين يميلون الى الصلح يجب ان يضعوا نصب اعينهم ما ستلاقيه الامة العثمانية من الذل والضعف في المستقبل وعلى هذا فالحرب لا توصلنا الى دركات الحضيض اذا قاومنا العدو بثبات وصبرنا صبر الشجعان الى امد غير بعيد

والثاني احوال نصارى الولايات العثمانية لانه لا يخفى علم رشادتكم ان الروس تتذرع بمسألة الشقاق الحاصل بين المسلمين والمسيحيين لقلب افكار اوربا واستعمالها ضدنا فهي تحرك المسلمين ضد النصارى للوصول الى بغيتها واذا تخاصم الفريقان حركت دول اوربا قائلة انظري الاتراك يقتلون المسيحيين وهذا هو سلاح روسيا ضدنا وقد دست الدسائس في الروميلي منذ ١٥ سنة ولكنها لم تتوصل الى غايتها بيد انها قد بذرت بذور الفساد في افكار اوربا بسبب حادثة فلبا التي حصلت في العام الماضي ونبهت اعصاب أهالي روسيا فهذا هو سلاحها الذي تفعل به ما لا تفعله بالسيف والمدفع واذا استولت روسيا على بعض البلاد استعملت القوزاق والبلغار لاهلاك المسلمين فثار هؤلاء وقتلوا عدداً من المسيحيين لتثير ثائر اوربا وتحرك

احقادها وسبب بقاء رعايا الروس في بلادنا هو لهذه الغاية فهم يشتغلون ليل نهار لتوليد الشقاق وحمل المسلمين على قتل عدد من الاجانب ولهذا السبب فان ما اعلنتموه من وجوب الوعظ في الجوامع يؤثر تأثيراً حسناً وليعلم المسلمون في الاستانة وفي الخارج ان الروسيا لا تغلبنا بالسلاح بل بمثل هذه الاعمال فاذا قام المسلمون في بلدة او في ولاية من الولايات ضد المسيحيين ضاعت البلاد والعياذ بالله لان التأليف بين قلوب المسلمين والمسيحيين في بلادنا هو سلاحنا القاطع فليفكر في هذه المسألة انصار الدين والدولة ويحافظوا على صداقة اخوانهم في الوطن ويغضوا الطرف عن مساويهم فذلك أولى لهم

والثالث الادارة العرفية وفي الحقيقة ان هذه الادارة تعلن في زمن الحرب كما صرح بذلك القانون الاساسي (الدستور) ولكنها قد أعلنت في الاستانة قبل اوانها فصدرت الاحكام على بعض الاشخاص وفرت عائلاتهم الى اوربا وصادف فرارهم وجود بعض افراد العساكر المسيحيين الذين فروا من قانون التجنيد الجديد فنفر الافرنج من ادارة تركيا الجديدة ونحن في موقف يجب علينا فيه ارضاء دول الغرب وهم يرون عائلات المسيحيين بلا ناصر ولا عائل وهذا هو نتيجة استئثار بعض الاشخاص بادارة الدولة بل ربما كان هؤلاء الاشخاص من صنائع الروس الذي يعملون باشارات تلك الدولة وعليه فيجب النظر الى هذه النقطة لتسكين أفكار ساسة دول الغرب

والرابع اختلاف عظماء الدولة ومشاحنتهم وكان يجب ترك الضغائن والاحقاد في مثل هذا الوقت ونظارة الخارجية هي المحور الذي تدور عليه حياة الدولة ومماتها وكان يجب على رجالها الثبات واظهار التأني امام دول الغرب فهم يديرون الامور كما شاؤا وشاءت اهواؤهم وفضلاً عن هذا وذاك فهم يقولون ماذا نفعل اذا هاجمتهم السفارات ثم يعزون تبعة اغلاطهم الى رؤسائهم قائلين اننا قد نصحنا لهم فلم يسمعوا واذا ارادوا وضع مسألة على بساط البحث اوصلوا اسرارها الى سفير الروس وكتبت عنها جرائد اوربا وانتقدتنا بقوارص الكلم وهذا مما يوجب الاسف

ولا يخفى علمكم ان امبراطرة روسيا والمانيا والنمسا قد اجتمعوا ببرلين منذ

ثلاث سنين وقر قرارهم على تقسيم قطعة الروميلي فلم توافق انكلتره ولذا فان روسيا قد اجتهدت لايجاد حكومات في البلقان ولما اعلنت الحرب في هذه المرة حاولت اخراج عزمها الى حيز الفعل أيضاً وهو عزم لا يوافق مصلحة النمسا لان تشكيل الحكومة البلغارية يجعل القسم السلاوي ميالا للاستظلال برايتها ويخرجه من تحت راية النمسا وينضم القسم الالماني أيضاً الى المانيا ولا يبقى تحت حكم النمسا سوى المجريين الذين لا يبقى لهم أثر فقرار الروس اذاً مخالف لمقاصد النمسا ولكن النمساويين يداهنون الالمان خوفاً من قوتهم و بطشهم والالمان يريدون الفتك بالنمساويين ولكنهم يخادنونهم ولذا فان البرنس بسمرك قد اشار الى النمسا باحتلال البوسنه والهرسك احتلالاً موقتاً واشار عليها بالحاقها باملاكها اذا تشكلت الامبراطورية البلغارية وهذا ما حدا النمسا الى حشد عساكرها على حدود البوسنه

فاذا تقدمت روسيا في حروبها ادخلت النمسا عساكرها الى بلاد البوسنه واعطت المانيا بوهميا في مقابل البوسنه وسلانيك واذا لم يرض الانكليز بهذه القسمة فهم لا يقدرون على الوقوف امام ثلاث دول فالمستقبل ينذر بالخطر الكبير لان انكلترا تطمح الى مصر واليونان يمنون النفس بالاستيلاء على ترحاله ويانيه والايطاليون يريدون تخليص نيس وصاوا فهم يتفقون اذا مع المانيا وربما تجاوزوا على بلاد الالبان ونحن ننظر عناية الله ليل نهار آملين النصر من عنده لانقشاع هذه الغيوم والحرب وحدها لا تكفينا للخلاص من هذه الازمة بل الذي ينقذ الدولة هو تدبير رجال نظارة الخارجية

الخامس مسألة العلم النبوي فقد نشرت بعض الجرائد خبر عزم الدولة على اخراجه لسحق اعدائها وفي الحقيقة فان كل دولة قادرة على اتباع عاداتها القديمة واخراج العلم النبوي لا يبرهن على اعلان الحرب ضد غير اعدائنا غير ان ما اذاعه الروس عنا من الترهات والاكاذيب والاحاديث المفتراة لا يساعد على اخراج العلم في هذه الايام فيجب علينا تأخير اخراجه وليكن ذلك ولكن بعد اليأس

اكتب اليكم هذه الملاحظات لتذكيركم وما حداني الى كتابة ما كتبته سوى

الغيرة الوطنية وعلى كل حال فانتم مخيرون بين الرد والقبول

نمـرة ٨

الى كامل بك ناظر التشريفات

عالي الهمم سيدي العزيز

أعرف انكم لا تجسرون على مكاتبتي في الوقت الحاضر ولكن الضرورة تضطرنى الى مخاطبتكم

سمعت ان بعضهم قد اعترض على ما كتب في جرائد الاستانة وانا اعرف ان اخوانكم يتأثرون من كتابة المنفيين لانها تؤثر في الرأي العام وأنا أعلم ذلك ولكن هذه الملاحظات تشابه الدفاع عن الروح والمال . ان محافظتي على حياتى في هذه الظروف الحرجة يعد جناية كبيرة وما كتبته في مكتوبي من العبارات لا ينكر أحد انه عين الصواب اذا نظر اليه بعين الانصاف والذين وشوا بى عند السلطان قد استعانوا بالجرائد والشعراء وشنوا علي غارة شعواء بدسائسهم ورذائلهم فصبرت على أكاذيبهم المختصة بشخصي وسأصبر أيضاً على مانسبوه الي من الخطأ والخطل ولكن ما أستحقه من وظيفة الدفاع عن الوطن المشتركة بين ٣٠ مليوناً قد أضاع صبري اذ نظرت الى ما وصلت اليه حالة هذا الوطن فلا تعجبوا

أعرف ما يكون عليه النظار من الاضطراب في هذه الظروف فأطلب من الله جل وعلا توفيقهم وأري من الواجب عدم ابداء رأيي ولزوم السكوت بيد ان الوقت قد ضاق وظهر الخطر المدلهم و باب السلطان مفتوح لابناء الوطن واذا سد في وجه أحدهم لجأ الى كل الوسائط لفتحه

الذي يقول الصدق صادق للسلطان والذي يكذب يخونه وقد جاء الزمان اللازم لفهم هذه القاعدة وظهرت نيات الخونة الذين أضمروا الخيانة لوطنهم فنأمل ان يترك هؤلاء الخونة الشخصيات و يشتغلوا بخلاص البلاد من أزمتها الحاضرة وأرجو غض الطرف عن مكتوبى الخالي من ألفاظ الرياء والمداهنة

١٧ ذي الحجة ٩٤ مدحت

من كامل بك ناظر التشريفات الى مدحت باشا

معروض عبدكم

ذ كركم السلطان منذ أيام فقلت انكم في حالة اليأس والكدر وانكم تسيرون من بلد الى بلد فسأل عن أسباب معيشتكم فقلت انه يعيش بالقروض فظهرت رقة قلبه التي يشهد بها العالم و بكى وقال ارسلوا له الآن الف ليرة ليستعين بها على امر معيشته فقلت اني سأسأل عن واسطة ارسال هذا المبلغ فقال جلالته بوجوب كتم المسألة ثم استطرد فقال : قد خدعوا المسكين : أما مستقبل حالتكم فالظروف تضمن حلها بالمكاتبة كما اقتضت ذلك ارادة جلالة السلطان فاذا وصلكم مكتوبى هذا فاسرعوا بارسال الجواب وا كتبوا عريضة تشكر الى جلالة السلطان وارسلوها مع الجواب وعلى كل حال فالامر لسيدي عبدكم

ناظر التشريفات العمومية كامل

٢٣ تشرين ثاني سنة ١٢٩٣

(حاشية) ارجوكم كتم ما احتوى عليه مكتوبى لان جلالة السلطان قد اوصانى بذلك مراراً

الجواب

عالى الهمم سيدى وعزيزي

اخذت مكتوبكم رقيم ٢٣ تشرين الثاني وكنت اتعجب من صديق لم يجسر على كتابة كلمة سلام لى من يوم مفارقة الاستانة فلما قرأت المكتوب المرسل بخطه عرفت سر المسألة وقد اجبتم السلطان حين تلطف بالسؤال عن احوالى بقولكم : انى اسير من بلد الى بلد في حالة اليأس والكدر : لجلب شفقة جلالته فأشكركم ولكن لا يخفى على علمكم ان هذا التعبير لا يوصف به الا فاقدى العقل الذين لا عمل لهم وقد ابعدنى السلطان عن الاستانة لاعادة الامن لان بقائي يثير الشعب كما زعم بعضهم وعليه فلايجوز ان تعبر عني بهذه الالفاظ بعد ان نلت اكبر رتبة ووجه الى مسند الصدارة لانه يحط من شرفي ومن شرف الدولة ولو قلتم :انه

يعيش منفرداً ويقضي وقته بالدعاء للخليفة ! لنطقتم بالصواب واصبتم الهدف الذى يرمى اليه السلطان

وما قلتموه عن اسـباب معيشتي هو عين الصواب لانى افتخر فى كل وقت بأحوالى المالية فقد ولدت عارى الجسد وسأفارق الدنيا عارى الجسد ايضاً ومع هذا فقد فارقت الاستانة واحسن علي جلالة السلطان بخمسمائة ليرة فصرفتها واقترضت من خرستاكى في نابولى عشرة آلاف من الفرنكات فنفدت وأنا اليوم مضطرالى الاقتراض لسد رمقي ورمقى أفراد عائلتي المقيمة في الاستانة وأرباب الاموال في لوندرة يقدمون لى ما أطلبه من النقود بلا فائدة وقد قضيت أيامى لليوم بهذه الطريقة

ولولا وصول حالة الخزينة الى ماهي فيه من الضيق لساعدنى جلالته بأكثر من ذلك لانه يحب عبيده الاخصاء وقد خدمته أربعين سـنة ورفلت في أثواب نعمته وعرفت جوده وكرمه وهما لا يسمحان له بترك عبده في هذه الحالة بعد وصوله الى هذا السن وقد أثبت بافعاله أخيراً صدق ظن عبده فأنا أقدم له جزيل الشكر

أما ما ورد في مكتوبكم من العبارات فانى أطلب منكم الاذن لابداء ماعندي من الـكلام في شأنه ولايخفى عليكم انى ولد المدعوحاجي أشرف أفندي ولم أنتسب الى غـير الله وقد اجتهدت لتحصيل الفضائل وتهذيب النفس فلم أوفق الى بغيتي فدرجتي اليوم أقل بكثير من درجات أقرانى العلمية أما الذي أوصلنى الى هـذه الدرجـة فهو انى لم اقل الا الحق في أيام حياتى وقول الحق هو الذي اوصلني الى ما ألاقيه من الشدائد فقول السلطان انهـم خدعونى قد يكون صحيحاً والانسان يخدع عادة ولـكنى اذا طلبت العفو اقررت بشيء غير واقعي والاقرار بغيرالواقع هو عين الـكذب والـكذب على اميرالمؤمنين كفران لنعمته وما الذي فعلته حتى أطلب العفو فقد اقتضت الظروف تولية سلطان بعد عبد العزيز فأجلسنا مراداً فمرض وقطعنا الامل فى شفائه فخلع . وجلس مكانه السلطان عبد الحميـد وكان جلوسه موافقاً لاعلان الدستور وخطت الدولة خطوة نحو الاصلاح وقد اظهر لى جلالتـه انواع الرعاية والاكرام والخلاصة ان الناس قد وصلوا الى بغيتهم فالـكافر الخائن

المنافق هو الذى ينسى كل هذه الامور ويقول غير هذا القول حسبنا الله

قدم المرحوم مصطفى فاضل باشا الى السلطان عبد العزيز لائحة قال فيها ان آخر ما يدخل قصور الملوك القول الصحيح والحقيقة هي ما قاله والكلام الصحيح يضر قائله بيد انه ينفع السلطان وينفع رعيته منفعة لا تنكر فوائدها وانا ارجح المنفعة العامة على المنفعة الخاصة ولذا فانى اذكر ما يوقع الدولة في مآزق الهلكة وما يسبب خلاصها من المآزق واعلم ان ذوي الاغراض قد استعملوا أقوالى كسلاح انتقام ضدي ولكن احوال الدولة في هذه الايام قد اثبتت صدق اقوالى فوصلت الى دركات الحضيض والذين قد اشتغلوا بأمور الدولة واستبدوا قد اوقعوا أنفسهم في هذه الورطة واوقعوا الامة ايضاً

وعلى كل حال فاني لا اطلب الا بقاء السلطان وادعو لجلالته وقد اشتغلت بذكر محاسن نيات جلالته من يوم خروجي من الاستانة الى هذه الدقائق وسأفعل مثل هذه الافعال في المستقبل يقر بذلك كل من عرفني وتثبته اقوالى الصحيحة

انا اليوم افكر فيما وقعت فيه الدولة من المهالك بعد كارثة الحرب اولا وفي نفسي ثانياً سيدى العزيز انى قد وصلت الى السادسة بعد الخمسين فأنا قريب من سيدى في السن وستعمرون طويلا ان شاء الله اما انا فلا امل لى في الحياة لان اسلافي لم يصل احدهم الى الستين فرشيد باشا والقبرسلي محمد باشا وعالى باشا وفؤاد باشا كلهم معلومون فكل ما افعله هباء فى هذه الايام المعدودة فالذى يجب فعله لعبدكم هو احالته على المعاش ليعيش منفرداً او يقضي بقية عمره بالدعاء لولى النعم الاعظم

٢٩ تشرين ثانى سنة ٩٣ مدحت

من كامل بك ناظر التشريفات الى مدحت باشا

يعرض عبدكم انه قد اشار عليكم باستعمال اللين وطلب العفو من جلالة الخليفة في مكتوبه فارسلتم بالضد مكتوباً كان كالعروس العارية الجسم وتأسفت وايم الله غاية الاسف لان هذه العبارات قد اخرت مقصدى وتركت مقدماتي عقيمة خصوصاً بعد ان ذكرتم ما يشيعه خصومكم من عزمكم على تبديل الخليفة والعياذ بالله

انا اليوم سأقيم في مصر شهرين فأرجوكم ارسال جواب هذا المكتوب الى ارض الفراعنة باسم عبدكم وعلى كل حال فالأمر لسيدي

٢٤ كانون اول سنة ١٢٩٥ عبدكم
كامل

سيدتي صاحبة العفة

قد وصل صاحب الدولة والابهة الباشا الى كريت وقد حررت لكم قبل اليوم تذكرة اخبرتكم بها عن ارادة جلالة السلطان وازيدكم اليوم علما بان الوابور المخصوص الذي سيوصلكم الى كريت سيحضر في هذا الاسبوع وقد أحسن عليكم جلالة السلطان بخمسماية ليرة لتستعينوا بها على السفر وسيرسل جلالة الخليفة احد رجاله على الوابور ليبلغ الباشا بعض ارادات جلالته فاخبروني عن اليوم الذي قد قررتم السفر فيه

٢ شوال ٩٥ على فؤاد

غيره

سيدتي صاحبة العفة

ان الرجل المقرر ارساله الى ابهتلو دولتلو الباشا لتبليغ بعض الارادات السنية قد تأخر لضيق الوقت وسيسافر على احد وابورات البوستة وقد صدرت ارادة جلالة الخليفة قاضية بتبليغ سلامه الى دولة الباشا فبلغوه اليه

٨ شوال سنة ٩٥ باشكاتب المابين
الهمايوني

اللائحة التي ارسلها مدحت باشا الى مقام الصدارة

خصوصي

معروض عبدكم

بعد ان خدمت الدولة اربعين سنة بلا فاصلة وصل جسمي الى الضعف وخارت قواي وفضلت العزلة على العمل بعد عودتي من اوربا وكانت ارادة جلالة

مولاي السلطان قد صدرت لي بالاقامة في كريد مع عائلتي فصادف صدورها الهدف المقصود واقمت مدة مستريحا من عناء الاعمال بيد ان جلالة السلطان قد ولاني أمور ولاية سورية فشكرت جلالته وتوجهت الى مقر وظيفتي الجديدة فوصلتها بعناية الله وكنت قد حضرت الى هنا مذ ثمان وثلاثين سنة بوظيفة كاتب تحريرات واقمت بضع سنين وحضرت ايضا مذ سبع وعشرين سنة بوظيفة موقتة ولهذا فاني اعرف البلاد السورية وطبائع سكانها ومع سابق معرفتي بهذه البلاد فقد وجدت الحالة متغيرة عن ذي قبل فقد صبغت احوال الولاية الملكية والسياسية بصبغة غير صبغتها الأولى لان الانكليز والافرنسيين يبذلون مساعيهم من اربعين سنة لتقوية نفوذهم في هذه البلاد وقد اوصلوا جبل لبنان الى حالته الحاضرة وهم يحاولون ايصال بقية البلاد الشامية الى ما وصل اليه الجبل والدول تنظر اليهم بعين المقلد فالأمريكان يريدون اعلان حمايتهم لجبل النصيرى فيفتحون المدارس ويشوقون الاهالي الى قبول الحماية الأمريكية والالمان يرسلون مهاجريهم الى سواحل القدس لاسكانهم في القرى المجاورة والخلاصة فان كل حكومة تريد وضع يدها على قطعة من بر الشام فالاسبانيول قد انشأوا كنيسة ومدرسة بجهة يافا للوصول الى نصيبهم من الاستعمار ولذا فان ابناء المسيحيين قد انقسموا الى احزاب فمنهم من يحاول الالتحاق بانكلترا ومنهم المتزلف الى فرنسا وحاول الدروز أيضا تأسيس حكومة درزية اعتماداً على دولة انكلترا اما المسلمون فقد صاروا فى حيرة من هذه الاحوال وبين تلك المفاسد وقد شغلت المسألة الحربية دار الخلافة ولم تبح لرجال الدولة النظر الى حالة سورية المحزنة فالاوامر التي ترسل من الاستانة قاصرة على طلب المال والجند وهذه الحالة تفتح للاجنبي باب الاستعمار خصوصا بعد ان اشتغل موظفو الولاية بمصالحهم الشخصية وتركوا المصلحة العمومية فاخلوا بواجباتهم وفسدت اخلاق الاهلين بسبب اعمالهم وكثر القتل والنهب واختل الأمن العام فوصل عدد الجنايات في جهتي (عكار) و (صافيتا) تسعين فى اربع سنين ولم تقف الحكومة على اشخاص القاتلين بل لم تجازي احدهم وطالما سجنت الجناة وافرجت عنهم ويوجد في

سجن طرابلس قوم قد سجنتهم الحكومة احدى عشر سنة بلا حكم قانوني وقد اخلينا سبيلهم في هذه الآونة والحالة في القرى والبلاد التي يحكمها القائمقامون توجب الاسف اما ايرادات الحكومة فقد اخبرتكم عنها بلائحة غير هذه فقلت ان الوركى قد وصل الى النصف وان الاعشار قد خربت بيوت الاهالي وقد زادت الطين بلة مسألة القائمة التي قد نزلت بسببها واردات العام الماضي الى النصف

هذه هي مختصر خلاصة احوال الولاية الاجمالية والذين يشتكون من هذه الحالة هم الافرنج لانهم يريدون التهام البلاد بهذه الواسطة فاذا لم ننتبه من هذه الازمة ونخلص الاهالي من براثنها بسرعة تداخل الانكليز في احوال الاناطول بحجة الاصلاح وتداخل الافرنسيون في احوال سوريا بهذه الحجة والخلل سائد في البلاد وليس ثمة اسم للاصلاح وجرائد اوربا تكتب المقالات تلو المقالات مظهرة سوء المغبة فاذا تعرضت لاستقلالنا دولة او اكثر من دولة وافقها الرأي العام الاوربي وقام المستعمرون الذين انشأوا المدارس في بر الشام طالبين الاشتراك في اقتسام السلب وعليه فقد اخذت في الاصلاح من يوم حضوري الى هنا لايقاف هذه الحركة وقد انتهت مسألة متصرف المركز بهمة دولتكم ولكن الامور لاتتم بحلها فقط فالولاية محتاجة الى اصلاح احوالها المالية ومحاكمها ومنع الرشوة التي تورث الخجل وتجعل الوطني منخفض الرأس امام الاجانب والخلاصة فان الواجب تطبيق قوانين المحاكم التي اسسها السلطان لاعادة الامن والسكينة الى قلوب الناس وما دام الحال على هذا المنوال فالدولة لا تصل الى الاصلاح المطلوب لان مجلس الوكلاء يصدر القرارات ويبعث بها الى الولايات غير ناظر الى احوال بعض الولايات الراقية واحتياجاتها فتبقى القرارات حبرا على ورق وهذا الذي حدا بالافرنج الى عدم الاعتماد على قوانين الدولة العلية فارجوكم الاسراع بالقوانين المطلوبة لان النظامات الموجودة لاتفيد في الاحوال الحاضرة والذي يعتقد ان الحالة تستمر طويلا بلا خطر يخطئ في تصوره وانا اعرف الدواء والداء وارى السكوت عجزا ولذا فقد عرضت المسألة على نظركم

١٧ مارس سنة ٩٥ — مدحت

اللائحة الثانية

الى

باشكاتب المابين

سألتم عن القوانين والنظامات الجديدة فاجبتكم قائلاً انها موافقة لروح العصر بيد ان اختلاف المشارب والعوائد لا يجعلها صالحة للاجراء في كل بلدة وطالما بقيت بلا تنفيذ فاذا نفذت اتت بعكس المطلوب وما ذلك الا لما قلناه وقد صدرت الارادة السنية قاضية بان احور بعض مواد تلك اللوائح فشكرت جلالة السلطان على حسن عنايته ولما كانت تلك اللوائح كثيرة العدد رأيت ان مثلي لايقدر على احصائها بيد اني رأيت من الواجب على الاشارة الى ما يصادف في سبيل تنفيذها في الولايات العثمانية من العقبات لان القانون لا يسمى قانونا الا اذا سرت احكامه على الكبير والصغير والغني والفقير وهـذه نظرية يعترف بصدقها الجمهور والقوانين في بلادنا لا توافق كل الولايات فالقانون الذي يوافق ولايات حلب وسورية و بغداد لايوافق ولايات بروسه وازمير وادرنه والخلاصة فان في بلادنا قوانين يعدها اهل نقطة من البلاد عدلا وتكون في عرف سكان غيرها ظلما فيجب النظر الى هذه النقطة لتبديل القوانين وتطبيقها على الافراد بلا استثناء لمصادفة الهدف المطلوب

ان أخذ القانون من اوربا واجرائه في بلادنا لانه افاد اهل الغرب يشبه أخذ مكنة أو آلة من الآلات المستعملة عندهم للنسيج وجلبها الى بلادنا لاستعمالها وليس عندنا فرد يقدر على ادارتها ولا الاستفادة من سرعتها

ان مسألة استقلال المحاكم واصول جباية الأموال وقانون الضابطة وغيره من القوانين والنظامات قد استعملها الافرنج فافادهم تطبيقها بسبب رقي الاهالي هنـاك ومدنيتهم فقانون الاراضي مثلا يقضي علينا بتعيين المهندسين ومعرفة مقادير اراضي بلادنا واصحابها ووضع الضرائب اللازمة وهذا لايتم بواسطة كاتب واحد يتعاطى من الحكومة راتبا قدره ١٥٠ غرشا فالافرنج يعينون في كل قرية لجانا ومهندسين لمعرفة مقدار الاراضي وتقدير قيمة الضرائب ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان

بلادنا فكيف نعرف مقدار الاراضي ومع هذا فقد ابتدأنا بتطبيق هذه القواعد والقوانين فنحن لانوفق اذاً الى غايتنا المقصودة

يلزمنا تدريب الرجال على اعمال المحاكم والقاء ازمة الامور اليهم بالتدريج لان بعض الجهلاء لايعرفون القوانين وتستخدمهم الحكومة في محاكمها فيجنون على الحكومة وعلى الامة معا والوالي يصدر أوامره الى قومندان الجاندرمة فيسجن ويضرب ويجازى الابرياء ويعفو عن الجناة على ان الامور تسير على الضد في اوربا والقوة العسكرية بعيدة عن القوة الملكية فالقوة في الجاندرمة عندنا مربوطة بناظر الحربية والوالي يأمر وينهى وقومندان الجاندرمة يطيعه وهذا الامر عجيب في بابه

تسأل الضابطة في اوربا عن سبب تعدد الجرائم أما عندنا فالولاة والمتصرفون مسأولون عن الأمن

في اوربا يراجع الدفتردار نظارة المالية المسأولة عن الصادر والوارد ويراجع رجال الضبط الحربيةورجال الادارة الداخلية ورجال القضاء يخابرون نظارة الحقانية أما عندنا فالامور منوطة بالوالي

اذا كان جلالة السلطان يريد ايصال الادارة في بلاده الى مثل ما وصلت اليه اوربا فقد وصلت الاخيرة الى ما هي فيه من النظامات والرقي بالعلوم والمعارف ثم سنت القوانين واتبعها الاهالي ونحن لانصل الى تمدن الافرنج الا بعد نشر العلوم وانشاء المدارس وترقية أحوال الشعب

أعلنا القانون الاساسي (الدستور) ووعد جلالة السلطان باعطاء سلطة تامة للولاة فاذا انشأنا الطرق والاسلاك التلغرافية والخطوط الحديدية واعطينا للولاة سلطة غير هذه السلطة وشبه استقلال وصلنا الى الاصلاح المنشود لان جعل امور الولايات مرتبطة بالمركز العمومي لاينفع الدولة في حال من الاحوال

ان احتياجات اهالي الولايات متفاوتة كما قدمت ولا أقدر على شرح احوالها ولاية ولاية بيد أني قد شاهدت في هذه الولاية مذ سنتين شيئاً واحدا وهو اختيار

احد أمرين اولها ادارة الولاية بأمر الوالي واناطة كل امورها به او اصدار الاوامر من دار السعادة وجعل الوالي غير مسأول هذا هو رأيي وعلى كل حال فالامر لكم

٧ مايس سنة ٩٦ مدحت

الى ولاية سوريه

ان حسن باشا نجل اسماعيل باشا خديوي مصر السابق قد تحرك من برندزى ووجهته دار السعادة وقد صدر لوالده الأمر بعدم الاقامة بها بعد خلعه وهو يمني نفسه ببعض امور لان الدولة العلية هي صاحبة السلطة على مصر والسياسة تقضي بايصال الضرر الى الدولة العلية اذا استمر الوالد وولده على اعمالهم وحاولوا الوصول الى ضالتهم المنشودة وقد قرر مجلس الوكلاء باتفاق الآراء عدم التصريح لاسماعيل باشا ولا لانجاله بالاقامة في دار السعادة ولا في الولايات وعرض الامر على جلالة السلطان فقال بوجوب عرض الامر على وزراء الدولة المعزولين لاخذ رأيهم فاعرضوا رأيكم بالتلغراف وافقتم على هذا القرار او لم توافقوا واشرحوا المسألة شرحا مسهبا وارسلوه بواسطة البريد كما اقتضت ذلك ارادة جلالة الخليفة المعظم

٣٠ كانون أول سنة ٩٥ باشكاتب المابين

على فؤاد

الى باشكتابة المابين

قد خدمت الدولة اكثر من اربعين سنة ووصلت الى سن الشيخوخة فلم يبق لي جلد على مواصلة العمل فارجو اعفائي من خدمة ولاية سوريه واصدار الامر لي بالاقامة بمنزلي الكائن في دار السعادة او في جزيرة مدللى واذا لم يوافق ذلك فمروا باقامتي في احد سواحل سوريا مع عائلتي لاقضي ما بقي من ايام عمري بالدعاء لجلالة الخليفة وقد لجأت الى لطف جلالة السلطان وعنايته لاجابة سؤلي

٧ تشرين أول سنة ٩٥ مدحت

الى الصدر الاعظم

قد وصلت الى سن لا يمكنني من القيام باعباء وظيفتي وكنت قد عولت على

الاستعفاء في المستقبل بيد ان تعيين محمود نديم باشا لنظارة الداخليــة قد اضطرني الى تعجيل استعفائي وهذا هو السر في تقديمه في اليوم الذي وجه اليكم فيه مسند الصدارة فاشفعوا لي لدى المتبوع الاعظم واعملوا جهدكم لخلاصي واصدار الامر لي بالاقامة في احدى البلدان مع عائلتي لاقضى بقية ايام حياتي بلا احتياج الى الغير

٧ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

جواب السلطان الوارد من الباشكتابة

عرضت تلغراف استقالتكم على جلالة السلطان ولما كانت اجراآتكم الاصـلاحية قد ظهرت ظهور الشمس واقربها السر ليارد عنـد عودته من سوريه وكتب لكم جلالة السلطان تلغرافاً اظهر به رضاه وكان عازماً على تحرير مكتوب سوءالكم عما تلاقوه في سبيل الاصلاح من الموانع لازالتها فتأسف لورود تلغراف الاستعفاء

تقولون في تلغرافكم ان وصولكم الى سن الشيخوخة يقضي عليكم باعـتزال الاعمال والشيوخ المجربون هم الذين يخدمون الحكومات باعمالهم وتجاربهم وقد حنكتهم التجارب وعجمتم عود الايام باعمالكم فلا يجب عليكم ترك الخدمة في مثل هذه الظروف واذا صادفتم في طريق الاصـلاح مانعاً فاخبروا المـابين عنه بتلغراف الارقام كما اقتضت ذلك ارادة جلالة السلطان عبدكم

١٠ تشرين اول سنة ٩٥ على فؤاد

جواب الى المـابين الهمايوني

اخـذت جوابكم رقيم ١٠ تشرين اول فانا اشكر نعم جلالة السلطان وما اضطرني الى الاستعفاء سوى ضعف صحتي واحوال الولاية التي انا مسؤول عنها لان احوال هـذه الولاية قد وصلت الى ما لا يمكن رتقه من الفساد فظهرت الاساكل بمظهر مستعمرات اجنبية اما البلاد الداخلية فقد اختل نظامها بعد المسألة الحربية ولا سبيل الى اعادة السعادة الى تلك الربوع الا باصلاح احوال الاهالي وهذا لا يتم الا بالاعمـال الملائمة لطباعهـم اما نحن فنعمل هنا اعمالنا في ولايات

قونيه وادرنه وارضروم وهي اعمال توسع شقة الخلاف بين الاهالى و بين الحكومة وتحدو بهم الى حب الاجانب فيكون الوالى مسؤولا عن تبعة اغلاط غيره وهذه الحالة لا تدوم سنة او نصف سنة ولذا فقد عرضت استعفائي وانا لا انظر الى صحتي بل اخدم جلالة السلطان بكل افتخار غير ناظر الى غير رضاء جلالته اما اصلاح احوال هذه الولاية فيتوقف على تعيين احد الولاة المقتدرين واعطائه سلطة مطلقة وجعل القوة العسكرية تحت امره كما فعلتم معي في بغداد وهناك يتم الاصلاح المطلوب وقد حررت لكم ذلك لعرضه على العتبة العليا وافادتي عن رأي مولاى الاعظم

مدحت

١١ تشرين اول سنة ٩٥

الجواب التلغرافي

عرضت مكتوبكم الوارد على جلالة السلطان فامتن جلالته خصوصاً عند قراءة عبارتكم المسطورة وهي عزمكم على افناء عمركم في خدمة جلالته ولذا فقد امرنى بتبليغكم سلام جلالته و بعد ثلاثة ايام تعطى لكم السلطة اللازمة وسيرسل اليكم ايضاً احد رجال المابين ليبلغكم بعض ارادات جلالته وقد اصدر اليَّ الارادة السنية بما كتبته

عبدكم

١٢ تشرين اول سنة ٩٥

على فؤاد

الجواب التلغرافي الوارد من الصدر الاعظم
الى مدحت باشا

قرأنا فى مجلس الوكلاء (النظار) تلغرافيكم المرسلين الى نظارة الداخلية بتاريخ ١ تشرين اول سنة ٩٥ وحبذنا ما اجريتموه من الاعمال لتسكين ثورة حوران وكتبنا الى السرعسكر لتلبية طلباتكم المختصة بالرديف فاخبرونا عن مسببي هذه المسألة وابقوا عساكر الرديف تحت السلاح الى يوم اعادة الامن الى نصابه

الصدر الاعظم

٣ تشرين اول سنة ٩٥

سعيد

الجواب التلغرافي

وصل تلغرافكم رقيم ٣ تشرين اول و به تسألون عن سبب اتساع مسألة حوران وفات علمكم ان اهالى جبل الدروز قد اعتادوا العصيان من زمن حكم المصريين وشقوا عصا الطاعة فلم يعطوا الدولة ضرائب ولا عسكراً وقد كثرت وقائع القتل والسرقة في هذه الجهات بسبب عصيان هذه القبائل وعدم وضع بلادهم تحت الاحكام القانونية وهم الذين قد صادروا بوستة الانكليز في العام الماضي وقتلوا افراد احدى القوافل في هذا العام وقد وجدت الحيوانات المسلوبة في جبل الدروز ولم يلق الفاعلون جزاء ما جنته ايديهم

امتنع الدروز عن تأدية الضرائب والتجند فاصبحت بلادهم ملجأ للاشقياء وصارت مقرا للعصاة منذ ست سنين فكثرت جموعهم وضاقت بهم البلاد فاستولوا على بعض القرى المجاورة لحوران و بلغ عدد ما استولوا عليه لليوم ١٧ قرية وهم يستولون لليوم على القرى الباقية في قبضة الحكومة واحدة بعد واحدة فيثور ثائرهم لكل حركة صغيرة واهالى حوران يعرفون ذلك ولذا فانهم قد جمعوا لهم الجموع وتأهبو لقتالهم فى هذه المرة وقد ارسلنا لهم النصحاء فانصاعوا لاوامرهم منقادين اما الدروز فقد اصروا على طلب مجازاة الجناة فارسلنا اليهم من يصلح ذات بينهم هذا ما وصل الى علمنا فسلوا دولة المشير عن التفصيلات

عبدكم

مدحت

٦ تشرين اول سنة ٩٥

التذكرة التي كتبها مدحت باشا الى احمد ايوب باشا مشير الفيلق الخامس

دولتلو افندم حضرتلرى

قرأت في هذه الدقيقة تحريركم وعلمت ان الدروز يحاولون الصلح من جهة ويسعون من الجهة الثانية فى قطع الماء عن العساكر وهذه المسألة قد وصلت الى درجة توجب التفكير والتشاور وقد اشرتم في تحريركم الى مسائل يجب الجواب عليها وهي انكم تقولون اننا لا نعرف سبب حدوث الحادثة وقد كتبت لكم بتاريخ ٢٦ ايلول و ١ تشرين اول سنة ٩٥ بعض مكاتيب ذكرت لكم فيها

ان سبب الثورة هو احدى الفتيات فقد ظهرت مشاجرة بسببها فتشاجر اهالى بصر الحريري مع احد الدروز فقام سكان احدى القرى المسكونة بالدروز لنصرة اخوانهم وقتلوا عدداً من اهالى بصر الحريري وكثر النزاع بين الفريقين فاجتمع الدروز ووصلت المسألة الى ما وصلت اليه فتجمهر الحورانيون والدروز فسبب المسألة معلوم ولكنني لا أعرف اسم اهل القرية التي قد بدأت بهذه الاعمال الدموية اذ لا لزوم لمعرفتهم لان المسألة قد احدثها جماعات لا افراد

تقولون فى مكتوبكم ايضا ان اهالي حوران قد قبلوا تأدية الدية والحكومة قد ارسلت بعض موظفيها ليتفقوا مع مشايخ المتخاصمين وفي المسألة وجهين أحدهما يعد من الامور الشخصية والوجه الثاني هو ما يتعلق بالحقوق النظامية فاذا تصالح الخصوم انتهت مهمة العساكر ووضعت المسألة على بساط البحث بين ايدي موظفي الملكية وعندي ان ترك المسألة في تيار مجراها الطبيعي لاينتج سوى اضاعة الوقت فيجب البحث عن اسباب الثورة ومنشأها واظهار الفاعلين والجناة واصدار الاوامر للقواد والعساكر باجراء ما يلزم اجراؤه لان الناظر الى الحادثة يتضح له انها حدثت بين طائفتين من رعايا الدولة العلية قد لجأ كل فريق منهم الى السلاح واراد قتل خصمه وقد حصل ذلك بالقرب من الفيلق الهمايوني فلا يجب عليه ان يقف كالمتفرج بل يتحتم عليه مقابلة الجناة بالقوة والبحث عن حقوق المحق واعادتها اليه وقد ظهرت المسألة بشكل اعتيادي ثم كبرت فلم تكن قوة الجاندرمة كافية لكبح جماح الثائرين فكتبت لكم تذكرة اشرت عليكم فيها بجمع قوة من الجنود وجلب المدد من بيروت ثم اجراء ما يلزم من الاصلاحات بعد اعمال القوة وعليه فأخذ الدية ومداخلة موظفي الحكومة لايجوزان الا اذا فرضنا ان القوة العسكرية عاجزة عن العمل

ولا يخفاكم ان اهالي حوران قد نالهم الظلم فى هذه المسألة وهم لا يطلبون سوى محاكمة الذين قتلوا بعض افرادهم وهو طلب لا يأتيه الشك ولا يعتوره الاعتراض فاذا كانت قوة الحكومة غير قادرة على جلب خصومهم فسيجلبونهم بقوة السلاح كما اظهروا ذلك وقد اجتمعوا لهذه الغاية فاذا اصطلح الخصمان ودفع

الدروز الدية وجب علينا السكوت موقتا وعدم الاغضاء عن ضبط الجناة ومجازاتهم في المستقبل واذا كان طلب الصلح قد وقع من الحكومة فما الفائدة من وجود القوة المسلحة والعساكر والفيالق هناك وهل يصبح الدروز في المستقبل عصاة جناة بغاة اذا اغمضنا الطرف عن افعالهم نعم سيكون اهالي حوران تحت رحمة الدروز اذا صرفنا النظر عن المسألة وتركناها في مجراها الطبيعي

وقد ارسلنا عددا من رجال الدولة لاصلاح الفاسد ولما كبر الامر ارسلنا جميل باشا واعدناهم وقد شفي سليم بك من مرضه وتوجه الى المعسكر فيجب اصدار الامر الى القوى الموجودة هناك لاتباع أمر القومندان

١٢ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

التلغراف الوارد من الصدر الاعظم

الى مدحت باشا

يحضرني سفير انكلترا تارة وطورا يتوجه الى نظارة الخارجية بسبب ما اتخذتموه من الاحتياطات لتأديب الدروز . ان فرنسا تعاون الموارنة وانكلترا تساعد الدروز فالانكليز لا يسرون بما تتخذه من التدابير لتأديبهم وقد وصلت حالة الموارنة الى ما لا تحمد عقباه بسبب عذرهم ولذا فان قنصل فرنسا يسأل عن حركات العساكر وسكناتهم وحركات الدروز توجب الجزاء واذا لم يجازوا وترك حبلهم على غاربهم انتج تركهم احتقار الحكومة بيد ان تماديهم في العصيان يرجع الى وقت بعيد ولم يحن وقت تأديبهم وقد اضطرت الحكومة في هذه الايام الى استعمال القوة لارهابهم ولو كانت القوة كافية فان غرضنا الوحيد هو تحبيب ادارة الدولة الى الدروز والموارنة واستعمال القوة لا يوصل الى تلك النتيجة وانتم لا تجهلون هذه الحقيقة ونحن نرى ان ترك المسألة الى زمانها الموافق اليق ونحبذ الاصلاح بين المتخاصمين

وقد قلتم في محرراتكم ان اهالي حوران قد قبلوا اعطاء مبلغ معلوم ومالوا الى الصلح والحكومة ترى من واجباتها الاصلاح بين المتخاصمين ولا تتأخر عن دفع الدية من خزينتها منعا للقال والقيل وتخلصا من اصرار بعض الدول

والخلاصة فقد امرنا السرعسكر بارسال ما يلزم من القوة اللازمة اتباعاً لامركم بيد أنا ننتظر بكل سرعة حسم المسألة بالسلم وذلك ان ترسلوا عدداً من المسموعى الكلمة عند المتحاربين وتتوجهوا أنتم اذا اقتضت الحالة لاتمام المسألة بلا حرب ولا اراقة دم ونحن في الانتظار الباش وكيل

١٣ تشرين اول سنة ٩٥ سعيد

الجواب المرسل الى الصدر الاعظم

قلت لكم قبل اليوم ان مسألة حوران قد تسببت عن منازعة بسبب فتاة ثم كبرت فبلغ عدد المتجمعين اربعة آلاف شاكي السلاح وكثر القتل ولم يبق ثمة وجه للنظر الى المسألة من بعيد فارسلنا الموظفين ورجال الضابطة اولاً ثم ارسلنا الجنود للتفريق بين المتخاصمين فقال الحورانيون ان الدروز قد قتلوا منهم عدداً غير قليل ويجب على الحكومة مجازاة الجناة واذا لم تجازهم اخذوا ثأرهم بيدهم لانهم اكثر عدداً منهم واصروا على قولهم اما الدروز فقد امتنعوا عن تسليم الجناة ولجأوا الى القوة ومنعوا الماء عن الجيش واستولوا على بعض القرى وقتلوا اربعة من النفوس فارسلنا لهم غير مرة طالبين تسليم الجناة فابوا ثم وافقوا على اعطاء مقدار من النقود فلم يقبل ذلك الحورانيون

والسياسة لا تقضي بترك الحورانيين اسارى في يد الدروز ومع هذا فستكون النتيجة خضوع جهة حوران وتوابعها للدروز ولا سبيل الى الخلاص من ذلك الا باستعمال القوة العسكرية التي قد ابتدأنا باستعمالها مع الشكر

١٤ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

الجواب التلغرافي

انكم متحدون معي في الرأي لاصلاح المسألة الدرزية وقد اشرت الى وجوب سرعة حل هذه المسألة وارسال بعض ذوي النفوذ للاصلاح بين المتخاصمين وتوجهكم اذا اقتضت الحالة وقد قتل الدروز احد الضباط فقابلهم العساكر بالمثل وكان يجب عليهم عدم الاسراع الى مقابلة القوة بالقوة

وسيتحرك في هذا اليوم او بعده وابور (موردنصرت) وعليه خمسة طوابير للتوجه الى بيروت كما افاد السرعسكر وقد اشعرتكم بذلك

الباش وكيل

١٢ تشرين اول سعيد

الجواب التلغرافي

ان القصد من ارسال القوة العسكرية الى حوران هو تشتيت شمل المتخاصمين فقد تجمهر منهم نحو العشرة آلاف وحاول كل فريق الفتك بخصمه ولا سبيل الى الوقوف والنظر اليهم من بعيد وقد جازت الحكومة موظفيها سنة ٧٦ لانهم تركوا حبل الثوار على غاربهم ولم يمنعوهم عن اراقة الدماء ونحن لا نريد سوى منع اراقة الدماء واغاثة المظلومين باعادة حقوقهم المغتصبة فاذا وصل رجال الحل والعقد الى غايتهم ظفرنا ببعض المطلوب لاننا لم نعامل رؤساء الدروز بغير الرفق واللين فقد كان بعضهم في الشام يوم ظهور الحادث فارسلناهم بوظيفة الى بلادهم و بذلنا لهم انواع العز والاكرام فانحازوا الى اخوانهم واجروا انواع الخيانة وضروب الغدر فلم نقابلهم بالقوة بل استعملنا اللين لايقافهم عند حدهم وارسلنا رستم باشا للقيام بهذه المهمة فلم يرجعوا عن غيهم بل اعلنوا ضد الفيلق حرباً شعواء فقابلتهم قوة مؤلفة من ثلاثة بلكات فاصلاهم الدروز ناراً حامية فقتل اثنان من افراد الجاندرمه وجرح احد الضباط فأرسل القومندان جميل باشا بلوكين فصوب الدروز مرامي بنادقهم وقتلوا منهم يوز باشيا وخمسة عشر من العساكر وامتدت الحرب الى نصف الليل فرجع العساكر ادراجهم وجمع المشير عدداً غير قليل من الجنود وارسلت الحكومة هولو باشا مع احد اعضاء مجلس الادارة وعلى كل حال فانتهاء المسألة متوقف على تشتيت شمل جماعة الدروز الموجودة بحوران بالقوة وهذا لا يتم الا بارسال الجنود الموعود بارسالهم من دار السعادة

١٧ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

تلغراف الصدر الاعظم

قرأنا التلغراف الوارد من دولتكم المختص بمسألة الدروز وقرأنا ايضاً تلغراف السر عسكر في مجلس الوكلاء وقد اصدرنا الاوامر للسر عسكر بارسال القوة اللازمة واظهرنا لدولتكم لزوم اتمام المسألة بلا حرب واشرنا بوجوب توجهكم الى محل الواقعة والمسألة معلومة فنرجوكم اللطف والاسراع الى محل الفيلق لعقد الصلح وهذا لا يبعد على همتكم

الباش وكيل

٢٢ تشرين اول سنة ٩٥ سعيد

الجواب التلغرافي

هـذا هو جواب تلغرافكم السامي رقيم ٢٢ تشرين اول سنة ٩٥ اذا كان جلالة السلطان يريد حسم مسألة الدروز بلا حرب فاتركوا لي هذا الامر واصبروا خمسة ايام وانا اعدكم باتمام المسألة بلا سلاح ولا اراقة دم

٢٣ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

التلغراف المرسل الى باشكتابة المابين

قد انتهت المسألة الدرزية في ظل جلالة السلطان المعظم لان جماعة من مشايخهم قد حضروا بالامس الى مركز الولاية وقدموا عرائض اظهروا بها الخضوع للحكومة وسلموا اربعة من مسببي حادثة بصر الحريري فسجناهم لتسليمهم الى المحكمة ولم يسلم الدروز جناتهم قبل اليوم الى الحكومة فتسليم هولاء الاربعة يعد فالاحسنا وسنبذل الجهد للشروع في الاصلاح اللازم وقد استغنينا عن القوة العسكرية وكتبنا بذلك الى دولة المشير

٢٩ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

التلغراف المرسل الى باشكاتب المابين

قدمت من مدة تلغرافا الى جلالة مولاى المعظم طلبت به اقالتي من وظيفتي فجاءني الجواب بالسلب وامتثلت لان مسألة ثورة الدروز اضطرتني الى البقاء وقد انقضت هذه المسألة والحمد لله ولم يبق في الولاية ما يكدر صفاء الامن فارجو من

جلالة السلطان اعفائي من هذه الوظيفة التي لايمكن بقائى فيها لاسباب غير مجهولة واتجاسر برجاء تلبية طلبى

مدحت

١٨ مايس سنة ٩٦

التلغراف الوارد من باشكتابة المابين

عرض تلغرافكم رقيم ١٨ مايس سنة ٩٥ على النظر العالي ولا يخفا كم ان مكاتباتكم ترد بواسطة الباب العالي وتعرض على جلالة السلطان وكان جلالته عازماً الى ارسال احد رجاله الامناء لتبليغكم بعض اراداته فلم يوفق الى ايجاد رجل حائز لهذه الصفات وهذا الذي أخر ارسال الرجل الذي سبق الوعد بارساله الى هذا اليوم

وقد بنيتم استعفاءكم على اسباب غير مجهولة وكنتم قبل اليوم قد بنيتم الاستعفاء على سببين احدهما وصولكم الى سن الكهول والثانى تقييد حركاتكم وتحديد سلطتكم في الولاية اما عن الاول فالهرم لا يمنع الخدمة واما عن الثانى فقد احضرت الحكومة لائحة لتوسيع سلطة الولاة وستنشرها في القريب العاجل فيزول هذا السبب ايضاً وهذه هي خلاصة الارادة السنية الصادرة من جلالة الخاقان الاعظم

عبدكم

على فؤاد

١٩ مايس سنة ١٢٩٦

الجواب التلغرافي

ان استعفائي مسبب عن امور غير المذكورة في تلغرافكم فالمشاكل التي حدثت بسبب النظامات والقوانين الجديدة والهجو والتحقير الموجهان ضدي قد سببا لي الاضطرار الى تقديم الاستعفاء وقد قلت في احد تلغرافاتى السابقة انى مستعد لافناء ايام حياتي في خدمة جلالة السلطان وليس للعمر عندي قيمة بيد ان لشرفي قيمة لا تقدر

ان الهجاء الموجهة الى مجهول الاسباب وقد يكون الذمامون مصيبين بيد ان هجوهم يؤثر في وظيفتي وفي مركزي الرسمي وينتج نتائج وخيمة العواقب وقد خدمت

الدولة اكثر من ٤٥ سنة وحافظت على شرفي اكثر من محافظتي على صحتي ولا اريد اليوم ان يداس هذا الشرف ولذا فاني قررت ترك كل مطلب والعيش منفرداً واجابة هذا الطلب لا تكبر على لطف جلالة ولي النعم الاعظم

٢١ مايس سنة ١٢٩٦ مدحت

التلغراف الوارد من باشكاتب المابين الهمايوني جواباً عن السابق

عرضت تلغرافكم رقيم ٢١ مايس سنة ٩٦ على جلالة المتبوع الاعظم وكلنا عالم بما يبذله جلالة ولي النعم من العناية للمحافظة على الشرف والعرض وذاتكم الخديوية لا تجهل ذلك بالطبع بل تعترف به وتقر بصحته

وقد خدمتم الدولة العلية مدة طويلة ونلتم رتبة الوزارة ولذا فان جلالة المتبوع الاعظم يتكفل لكم بحفظ شرفكم من اليوم

واذا كانت القوانين التي تلاقون المصاعب في أمر تنفيذها هي قوانين العدلية فهذه القوانين موجودة في كل ولاية وتنفيذها موقوف على وجود الرجال الا كفاء لاناطة أمر تنفيذها بهم وقد ابان ذلك السر ليارد في لائحته وهي لازمة في كل بلدة وقد اعترف بلزوم وجودها احد العظماء أمس في القصر الهمايوني

ولا يخفى على همتكم ان اول ما يلزم اجراؤه من الاصلاحات هو نشر المحاكم وقوانينها التي نصادف العقبات لتنفيذها في كل انحاء المملكة

وقد قضيتم زمناً في خدمة الدولة في وظائف العدلية والملكية ووقفتم على اسرار ادارة الامور وخبرتم اخلاق الاهالي فاكتبوا الائحة واشرحوا مايلزم ادخاله من التحوير والتبديل في لوائح الدولة ونظاماتها الجديدة وارسلوها مع من تعتمدون عليه الى المابين الهمايونى

ولما كان جل مقصدكم خدمة الدولة بصدق فيجب عليكم عدم الاصغاء الى القيل والقال لان جلالة المتبوع الاعظم يقدر خدماتكم قدرها وقد امرنى بتبليغ سلامه الشاهانى اليكم فبشرتكم بذلك وعلى كل حال فالامر لكم افندم

٢٣ مايس سنة ٩٦ العبد

علي فؤاد

الجواب التلغرافي

قرأت تلغرافكم رقيم ٢٣ مايس سنة ٩٦ ولذا فأنا اقدم فرائض الشكر الى العتبة السنية لسبب النعمة التي وجهها اليّ جلالة السلطان بتبليغ سلامه

أما بقية المباحث فأقول: اني لا اقول بوجوب سن قوانين وانشاء محاكم فقط فطالماناديت بملء في طالبا سن القوانين وانشاء المحاكم وانتم لا تجهلون كل ذلك غير ان الفرمان الذي كتب لي عند توجيه منصب ولاية سوريه يعترف صراحة بوجوب ما طلبته وسأطلبه وهو مراعاة عوائد سكان الولاية ومشاربهم ومصالحهم ولكننا لم ننظر الى هذه الواجبات بل اصدرنا اللوائح وحاولنا اجراءها في جميع البلدان ولم نصلح بعضها اصلاحاً جزئياً بل لم نسمع بعض الشكايات وقد اتبعنا مواد القوانين في بعض البلاد ولم ننفذها في بعضها وتركنا القديم ولم نتبع الجديد فظهرت البلاد بمظهر غريب وزاد الطنبور نغمة هذا الخلاف القائم بين دوائر الحكومة الملكية والعسكرية فاذا طلب الوالي مقداراً من العساكر لاعادة الأمن الى نصابه في ولاية مثل سوريا رفض القومندان واذا ارسل مقداراً من الجنود الى بلدة واراد اعادتها امتنعت عن العودة واذا كتب الى القائد عن أمر تأخر الجواب فاذا كان هذا الفعل الشخصي فكيف تصبر البلاد على نتيجته الوخيمة واذا أقام الوالي ببلدة ولم ير المشير مرة في ستة اشهر فما يكون حال هذه البلدة وقد قللتم عدد عساكر الجاندرمة فضعفت قوتها ونزلتم مرتبات موظفي الحكومة فاستعانوا بالرشوة والنهب والسلب واتبع رجال المحاكم خطة غير مرضية فاصبح الامن مهدد الاركان في طول البلاد وعرضها ومع كل هذا فالتلغرافات الواردة يومياً تلقى تبعة ما يحدث على عاتق الولاة وهذا ما يحدو بالانسان الى عدم التحمل وقد ارسلت احد عبيدكم بلائحة وسأنتظر الى عودته اتباعاً لاوامر جلالة ولي النعم لاني اعد ان الذمة تحتم علي كل ذلك

٢٥ مايس سنة ٩٦   مدحت

الى الصدر الاعظم

نشرت جريدة (ترجمان حقيقت) فى عددها الصادر بتاريخ (٥) كانون اول سنة ٩٦ خبر فحواه ان الجريدة التي تصدر ضد الدولة العلية في اتينا (عاصمة اليونان) قد نشرها اسعد افندي الذي كان منفياً في الشام ثم فر الى بلاد اليونان وادعت انى ساعدته مساعدة مادية وادبية ونشرت هذا الخبر ايضاً بعض الجرائد الافرنسية والانكليزية في هذا الاسبوع

اما أحوال صاحب ترجمان حقيقت السافل فمعلومة والذين يرون اسعد افندي في الشام الى يومنا يشهدون بان ما اشيع هو محض افتراء وزور وبهتان

وانا لا افوه ببنت شفة واذا وجب علي ان افعل شيئاً فالمحاكم مفتوحة الابواب ومحاكمة الرجل غير جائزة في نظري

وهذه الاذاعات الكاذبة لا تمس شخصي وحده بل تؤثر في سمعة الدولة فانى اتولى اليوم أمور ولاية من اكبر ولاياتها واذا عاونت جرائد اليونان معاونة مادية وحرضتها على الكتابة ضد حكومتي اثبت ذلك شيئاً واحداً وهو ان الدولة تضع ثقتها حيث لا يجب وضعها فهذه المقالات تؤثر في شرف الدولة خصوصاً بعد ان نشرتها جرائد عاصمة السلطنة تحت ذقن الباب العالي وقد رأيت من الواجب علي الاستقالة من وظيفتي حفظاً لشرف الدولة وحررت لكم ذلك من باب الاخبار بالشيء

٢٥ كانون اول سنة ٩٦ مدحت

محررات مختلفة

صورة المذكرة التي ارسلها مدحت باشا الى عائلته من سجن ازمير وهي تتعلق بأراضي جهة ماصلاق :

الى السيدة حليلتى

في داخل الحقيبة السوداء ورقة في ظرف ازرق وهي مختصة بالجلوس الهمايونى

ويجب تسليمها الى وارث العرش في المستقبل فارسلوها الى صاحب العنوان الآتي:

موسيو مويره بلندره

ايست انديا آونيو نمرة ٦

واذا كان الشخص غير موجود فمزقوها لمنع وصول ايادي عونة عبد الحميد اليها

مدحت

صورة التقرير الذي قدمه مدحت باشا الى عبد الحميد

ان غرضنا من اعلان الدستور ازالة الاستبداد وارشادكم الي وظائفكم وتحديد وظائف وكلاء الدولة وايجاد المساواة الكاملة بين افراد سكان الولايات العثمانيه والسعي في اعلاء شأن الدولة بالاتحاد

ستكون الخطوط الهمايونية التى صدرت منذ ٣٠ سنة مرعية الاجراء كالخطوط التى تصـدرونها اليوم لأن غرضنا من اعلان القانون الاساسي لا يقتصر على حل المسألة الشرقية وذر الرماد في عيون الافرنج واسكاتهم بل المقصـد الوحيد هو ان تعرفوا وظيفتكم المنوطة بكم أولا لانكم مسئولون عن حركاتكم وسكناتكم امام الامة وليكن عمال الحكومة آمنين ليخلصوا الدولة ممـا وقعت فيه من اشراك التدنى التي ولدها الدهان انى احترمكم غاية الاحترام غير اني لا أطيعكم اذا خالفتم الشرع واقترفتم ما من شأنه الاضرار بأمتنا لان التبعـة التى قد وضعت فوق عاتقي كبيرة وأنا أخاف ضميري وقد تعهـدت امام قلبي بخلاص الوطن وسـلامته واخاف ان تسألني الحكومة في المستقبل عن هـذه الافكار وتلك الافعال فلا تدخلن قلبكم الشبهة من كلمـاتي الصحيحة التى سأذكرها وما الحيلة فانى أخشى تعذيب ضميري والوقوع تحت طائلة توبيخ الامة فهذه المخاوف هي التي تحدو بى الى الاقدام على تصديع ذاتكم الملوكية

مولاى يجب أن يكون العثمانيون قادرين على اصلاح أنفسهم بأنفسهم فهل تعرف ما هو النظام الذي تطلبه الامة المحكومة بالشورى ؟ أنا لا أحتاج الى التفصيل. ثقوا بعبدكم وثقوا أيضاً برجال الدولة.

مولاى : انى تحت حمل ثقيل وسأجرى وظيفتى كعثماني واذا كان الموظف يتبع صوت ضميره لاجراء وظيفته فالوزير أيضاً يجب أن يكون مسئولاً امام ضميره وامام الامة وانا افتخر واظن اني لم أفعل ما يوبخني عليه ضميري واطلب من الامة ان تبحث عن غلطاتى وتعدها علي وافتخر بهذا الحال

مولاى : مضت تسعة ايام على معروضاتى التى لم تسعفوني بانجازها فانتم تردون النظامات المستعجلة التي تشابه آلات العمال والعمل لا يتم بلا آلة

أقدر ان أقول ان البلاد كالبناء الذي قوضته الزلازل ونحن نريد تعميره وانتم تحاولون هدمه فاذا كنتم تريدون عزلي لهذه الاسباب فأرجوكم تسليم زمام الامور الى يد رجل قادر على تخليص الحكومة من ورطتها الحاضرة من الذين يوافقون مزاج جلالتكم عبدكم

في ١٨ كانون ثاني سنة ١٢٩٣ مدحت

ما أجراه مدحت باشا من الاصلاحات في ولاية نيش

لما أرسل القبرصلي محمد باشا مدحت باشا الى ولاية نيش تقول الناس اقوالا كثيرة فمن قائل ان الرجل قد عرف غلطاته السابقة واراد تبرئة نفسه امام الامة واظهار صدق نياته للرأي العام ومن قائل ان ثورة البلغار في تلك الانحاء ستفضى الى نتائج وخيمة وستكون تبعة هذه النتائج ملقاة على عاتق مدحت باشا ولذا فان خصمه قد ارسله للتنكيل به والحقيقة هي غير ما يقولون فان محمد باشا القبرصلي قد اشتهر بصدقه وجده واستقامته بيد انه كان يسمع نمائم النامين وقد خدعوه اذ وشوا بمدحت باشا فكفر عن ذنبه بعد ان علم بكذب مفترياتهم

وعلى كل حال فقد توكل مدحت باشا على الخالق وتوجه الى مقر وظيفته الجديدة ورأى الولاية في حال يرثى لها العدو قبل الصديق رأى عدداً كافياً من الجنود مقيما في جهات مختلفة من الولاية واقامته لا تفيد البلاد لان الامن مهدد والبلغاريون يهاجرون زرافات ووحدانا والمسلمون يسامون الخسف وليس ثمة من يدافع عنهم فعزم على اعادة الامن الى نصابه لا باستعمال القوة بل بازالة الاسباب

التي قد ولدت هذه المصائب فدعا اليـه رؤساء البلغاريين والمسلمين وسألهم عن أسباب تقهقر البلاد فقالوا له اننا محرومون من طرق المواصلات فمحصول اراضينا يبقى في القرى الى ابد الآبدين واخبروه أيضاً ان البلاد مملوءة بعصابات اللصوص وقطاع الطريق وهذا الذي اوقف حركة البـلاد التجارية ورمى الاهالي في مآزق الفقر المدقع فلم يقدر الجباة على تحصيل أموال الحكومة منذ سنوات فأصبح أرباب الشفالك مدينين للحكومة بعشر ملايين من القروش واستولى عليهـم اليأس وقد امتـلات بلاد الصرب بالطرق وضرب فيهـا الامن اطنابه فاضطر البلغاريون الى ترك بلادهم والتوجه الى بلاد الصرب اما الحكومة فلم تبحث عن الاسـباب بل وضعت على حدود القرى البلغارية عدداً من عساكرها لمنع البلغاريين عن الهجرة فكانوا يدخلون بيوت القرويين فيضطرونهم الى النزوح عن اوطانهـم باعمـالهم الاستبدادية

علم مدحت باشا بكل ذلك فدعا اليه روساء القرويين ووعدهم باتمام الاصلاح المطلوب في سنتين واعفائهم من الضرائب المتراكمة على شرط ان يفعلوا ما يأمرهم به فتلقوا أقواله بالقبول ثم أعاد العساكر الموجودة في القرى البلغارية الى بلادهـا وقطع مرتباتها وشرع في انشاء الطريق الموصل بين نيش وصوفيه بعد ايام قلائل وارسل العساكر اللازمة فقبضت على الاشقياء وسلمتهـم الى المجلس الموقت فحـكم عليهـم ونفذ قرارات القومسيون الذي قد اناط به محمد باشا القبرصلي أمر تدقيق حسابات البلغاريين مع أصحاب الشفالك فتولد الامل بعد اليأس في قلوب الاهالي بعيد هذه الاعمال ثم أعلن اعلاناً رسمياً بين الاهالي فحواه ان الذي يريد الهجرة الى بلاد الصرب يجب عليـه عدم الفرار لان الحـكومة لا تمنعه عن الذهاب الى حيث شاء فلم يتوجه احد الى صربيا بعد هذا الاعلان ولم تمض السنة الاولى حتى كثرت طرق المواصلة في طول الولاية وعرضها وكان الحمل الصغير لا ينقل من بلد الى بلد الا بشق النفس فأصبحت الاثقال تنقل بواسطة العربات بكل سهولة بفضل هذه الطرق

ولما رأى البلغاريون فائدة الطرق النقلية طلبوا الى مدحت باشا الاكثار منها فتم في السنة الثانية الطريق الموصل بين نيش وقومانوه وهو يمتد (٢٤) ساعة والطريق الثاني وهو من نيش الى صوفية وطوله (٣٠) ساعة والثالث وهو من صوفيا الى دوبنيجه وطوله (١٨) ساعة وآخر من شهركوى الى اسوتى فيقوله فقضاء لوم وطوله (٢٤) ساعة هذا عدا الكباري التى تخترق الانهر الصغيرة والكبيرة والتى قد انشئ منها ثلاث كبار فوق نهر (موراوه) وانشأ مدحت باشا المخافر لحراسة الطرق في الاماكن اللازمة وخصوصاً على حدود الصرب ولما تمت الطرق وسهلت المواصلات بدأ الاهالي بنقل بضاعتهم الى سلانيك ومناستير وغيرهما وكثر الاخذ والعطاء وعاد الذين هاجروا الى بلاد الصرب من هجرتهم وكان الرائح والغادي يخترق بلاد الصرب للذهاب والاياب فأخذ الناس يخترقون هذه الولاية لسهولة المواصلات واستتباب الامن

عادت الى البلاد روح العمران بتنكيل الاشقياء وانشاء الطرقات وكانت ثلة من العساكر تقيم بجهة نيش وليس لافرادها مأوى فكانوا يسكنون البيوت ويزعجون السكان فبنى مدحت باشا ثكنة لهؤلاء العساكر خارج البلدة باعانة الاهالي واتمها في ستة أشهر ورأى السجن متداعياً الى السقوط فبنى سجناً جديداً وأسس شركة عربات لنقل البريد والسياح فبدأت أعمالها وكان نهر نيشاوه يفيض في كل سنة ويغرق قسماً من اراضي المدينة وبيوتها فأمر مدحت باشا بحفر جدول في وسط البلدة فامتلاء الجدول بالماء زمن الفيضان ولم يحصل الغرق المعتاد ورأى اختلال الادارة واعتلال الامور فألف قومسيوناً ودعاه (بحجرة المركز) وجعل ابوابه مفتوحة لذوي الحاجات ليل نهار وألغى وظائف الكتخدا والقواس باشى والقواس وأمثالها واحال اعمالها الى رجال الضابطة ومنع بعض العادات الممقوتة كصرف المبالغ الطائلة للزواج فقد كان الرجل يصرف مصارفاً تثقل ظهره فوضع حداً لهذه التبذيرات ورأى الايتام من ابناء المسلمين والمسيحيين يجوبون الشوارع والازقة بلا عمل ولا صنعة ويموتون جوعاً ففتح لهم مدرسة واحضر عدداً من المعلمين

وخصص للمدرسة مقداراً من المال لنفقة الاساتذة واطعام الايتام واراد وضع اسم لهذه المدرسة ففتح المصحف ووقع نظره على الاية الكريمة (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير) فسماه باسم (اصلاحخانه) ومن هذا التاريخ كانوا يسمون كل مدرسة يقصد بها تعليم الايتام وتهذيبهم في الولايات وفي الاستانة بهذا الاسم

الحاق ولاية برزرين بولاية نيش

وصلت ولاية نيش الى هذه الدرجة من الرقي في ثلاث سنين اما ولاية برزرين فبقيت على ما كانت عليه وكان اهالي ايپك وياقوه وقبائل المليس لايعطون الحكومة ضرائب ولا جنوداً وزاد الطين بلة قيام اهالي ياقوه وطردهم موظفي الحكومة وزد على ذلك ثورة اهالى ايپك وهجومهم على المستشفى العسكري وضربهم قائمقام بلدتهم شاهين بك بالرصاص الامر الذي استجلب نظر وكلاء الدولة وحدا بهم الى عزل والى برزرين واحالة شؤون تلك الولاية الى مدحت باشا فتوجه اليها لتنظيم امورها بعد صدور أمر الباب العالي

وكان أهالى تلك البلاد يثورون كلما لحقهم ضيم الحكومة فترسل الاخيرة اليهم العساكر لتسكين سورة حدتهم فتزيد الامور ضغثاً على ابالة ففكر مدحت باشا في ازالة الاسباب التي حدت بهم الى شق عصا الطاعة لازالتها لأن هذه الطريقة هي أقرب الى اعادة الامن وترك استعمال القوة العسكرية ولذا فانه قد استصحب بلوكا واحداً من العساكر عند حركته من نيش متوجهاً الى برزرين وجمع اليه رؤساء عشائر ايپك وياقوه وماليسيا وراغوه وغيرهم عند وصوله وسألهم عن أسباب الثورات فاتضح له من خلاصة أقوالهم ان سببها هو طلب الثار لان الصغير والكبير يحمل السلاح ويظن نفسه قادراً على كل شيء وهم مع هذا وذاك صادقون في أقوالهم لا يكذبون ولا يداهنون واكبر جرم عندهم التعرض للاعراض ولكن موظفي الحكومة يخالفون هذه القواعد ويقربون الفواحش ولايجتنبون الكبائر وطالما فعلوا ما يحمر له وجه المروءة عند جمع الاعشار وتجنيد الافراد فلجأ الاهالى الى السلاح

الذي هو عدتهم الوحيدة عند الشدائد ولذا فان مدحت باشا قد قرر ازالة هـذه الاسباب لمنع نتائجها

على هذا أصدر مدحت باشا أوامره الى رؤساء العشائر وناط بهم بعض أمور للتجربة منها منع الاهالي عن حمل السلاح وترك الثارات القديمة والاستعاضة عنها بمبالغ نقدية يتفق عليها المتخاصمون ومنها التطوع للجندية كما تقتضيه قوانين البلاد واعطاء الاموال الاميرية المتراكمة وتسليم قاتلى القائمقام وناهبي المستشفى العسكري الى الحـكومة وقبول نظام الضابطة وعدم التعرض لكنيسة النصارى الموجودة بين ايبك وياقوه

طلب مدحت باشا من الرؤساء اجراء هذه الامور فقبلوها بلا تردد وتركوا عنده بعض اشخاص بمثابة رهن و بدأوا بتنفيذ ما تعهدوا به في طول البلادوعرضها فجمعوا السلاح واجتمعت لجان متعددة لتقدير ديات للمقتولين حقنا للدماء فقدروا أربعة آلاف من القروش لاقارب القتيل وألفا للجريح وأتموا أربعـة آلاف من المسائل في أربعة أشهر وقسطوا أموال الحكومة وشكلوا فرق الجاندرمة وبدأوا بتحصيل الاموال وأحضر الرؤساء ناهبي المستشفى العسكري وعـددهم (١٢) ولكنهم لم يقبضوا على قاتلي القائمقام بسبب فرارهم الى جهة البوسنه

كان مدحت باشا يتنقل من قرية الى قرية لملاحظة هذه الاصلاحات بنفسه وبعد أيام سلم أمور السنجق الى نظيف باشا متصرف برزرين وعاد الى نيش ولم تكلف الحكومة سياحته سوى ٢٤ ألف غرش

احداث قانون الولايات وتشكيل ولاية الطونه على سبيل التجربة

انتهت ثورة برزرين على هذا النسق وعاد الأمن الى نصابه أما ولاية نيش فوصلت الى ما لا يصل اليه غيرها من الرقي في ثلاث سنين ونظر اليها الناس بعين الاعجاب وانقطعت دسائس الاجانب اذ لم يبق من الخلل ما يتـذرعون به لنيل مآربهم وكانت حالة البلغار فى جهات ودين وسلستره توجب الاسف لسوءالادارة فحاول الروس ايصال صدى شكايات البلغاريين الى أوربا وكثرت أعمالهم المبذولة

لهذه الغاية ورأى المرحومان عالي باشا وفؤاد باشا أعمال مدحت باشا الاصلاحية فأرادوا التذرع بها الى احداث قانون الولايات وكانوا مصممين على احداثه ليكون مقدمة لاعلان الدستور ولذا فقد طلبا مدحت باشا في سنة ٨٠ الى الاستانة

وصل مدحت باشا الى الاستانة وأشار عليه الصدر الاعظم بتوحيد سلستره وودين ونيش وجعلها ولاية واحدة وتسميتها باسم ولاية الطونه وقال اننا نفعل ذلك على سبيل التجربة واذا حصلت النتيجة المطلوبة جعلنا النظام شاملا لعموم الولايات وقرر الوكلاء تعيين مدحت باشا لهذه الولاية وصدرت بذلك الارادة السنية وكان فؤاد باشا ومدحت باشا يواصلان الليل بالنهار لوضع نظام الولايات الى ان تم وضعه ووجهت أمور ولاية الطونة الى مدحت باشا سنة ٨١

لم يكن القصد من احداث نظام الولايات سوى ضبط الواردات والمصروفات والنظر في أحوال رعايا الدولة واصلاحها ولكن شيخ الاسلام المدعو سعد الدين أفندي قد حاول ابطال هذا القانون بسبب العداوة الشخصية الكائنه بينه وبين فؤاد باشا فلم يوفق الى بغيته بل كان رأي الباشوات مدحت وعالي وفؤاد هو النافذ وقد تعهد اذ ذاك مدحت باشا بتحمل تبعة هذا القانون وتوجه توا الى ولاية الطونة

وحد النظام الجديد ثلاث ولايات وقسمهم الى متصرفيات وقائمقاميات ونواح والحق ست آلاف قرية بولاية الطونه وحتم انتخاب المتصرفين والقائمقامين والمديرين والضباط والجاندرمة ومجالس الادارات وغيرها مما يتبع النظام الجديد اشتغل مدحت باشا بهذه المسائل صباح مساء وكان يشتغل أيضاً من جهة أخرى بأعمال الولايات الثلاث وكانت الحكومة تعين للوظائف أعداء هذا المشروع فاشتغل سروري أفندي نائب رسجق (لهذا النائب دور مشهور قد لعبه في محاكمة مدحت باشا) ومكتوبجي الولاية سنيح أفندي بتنفير الناس من النظام الجديد وتبعهما نظيف أفندي مفتش الحكام فظهرت نتائج سعيهم وكان سروري أفندي يقول للمتقاضين اذا حضروا الى المحكمة ان القانون الجديد سيلغي الشريعة فكان السذج يظنون كلامه صحيحاً ولولا نصائح محمد أفندي المفتي لثار ثائر الجهلاء وكان

سعد الدين أفندي شيخ الاسلام يغري البسطاء ويشوق الناس الى اختلاق الزور وتزويق الكذب وحضر المدعو نصرت باشا الاسكان محاجري الشراكسة وأفهم المهاجرين انه هو الحاكم المطلق وان الولاية والوالي وأتباعه غير مسيطرين عليهم وكان بعضهم قد سجن فحضر نصرت باشا الى السجن بنفسه وكسر الابواب وأخذ السجناء عنوة وأظهر للسذج ان المهاجر غير تابع للحكومة ولم يكن قصده سوى القاء العثرات في سبيل تنفيذ هذا القانون

(المترجم) نصرت باشا المذكور هنا هو نصرت الذي كان يلقبه الاتراك بالدلي نصرت يعنون نصرت المجنون وقد خدم عبد الحميد بالتجسس مدة ثم نفاه الاخير الى بغداد فمات هناك غير مبكي عليه)

وكان الفساد يمنع اجراء الاصلاح فأرسل مدحت باشا هؤلاء المفسدين الى الاستانة وأحل بعض ذوي الاستقامة محلهم واستمر في طريق الاصلاح فنفذ النظامات الاساسية في ستة أشهر فطبقت الحكومة نظام الولايات في ادرنه وفي حلب وعممته أخيراً

الوسائط التي أجريت لاعمار البلاد وتزييد الثروة

لم يكن القصد من تبديل شكل ادارة الولايات غير اعمار البلاد واسعاد الاهالي فمجالس القرى والنواحي والقائمقاميات والمتصرفيات والولايات واجتماع المجلس العمومي مرة في كل سنة وتعيين معاون للولاية ومتصرف مركز ومديرين للامور الاجنبية وللنافعة كل ذلك لم يقصد به سوى تقدم البلاد واصلاح شأن الاهلين وهؤلاء الموظفون هم كالآلات التي يحركها الوالي ويستعملها لافادة الوطن وقد رأت ولاية نيش من العمران ما لم يره غيرها في مدة قصيرة بسبب انشاء الطرق وقرب المواصلات ولذا فان مدحت باشا قد جعل هذه الاعمال مقدمة للاصلاح المنوي ومع هذا فقد أسس صناديق التوفير ووابورات التجارة وشركات العربات ومدرسة الصنائع وبعض المعامل والمستشفيات وامر ببناء السجون والخلاصة فقد وصل الاهالي في مدة ثلاث سنين ونصف سنة الى اعلى درجات العز والرفاه

وزادت ايرادات الحكومة (٥٠) في المائة

ان الاصلاحات التي اجراها مدحت باشا تحتاج في تعدادها الى المجلدات فقداصبحت ولاية الطونة كنموذج اصلاح لكل الولايات وتحدث الافرنج بتقدمها فلا بأس من ذكر نبذة من اعمال مدحت باشا الاصلاحية في تلك الولاية

أنشأ مدحت باشا الطرق والمعابر ولم يراع قانون الحكومة القاضي باشتراك الاهالي في عمليات الطريق بدفع الاعانة او الاشتغال اياماً معدودات لان هذا النظام لا يفيد ولذا فان مدحت باشا كان يرسم الطريق ويكلف اهالي القرى الذين يستفيدون منه الشغل فكانوا يقابلون اوامره بكل ارتياح وقد جرب هذه القاعدة في نيش فنجحت فأتبعها في الطونة وبلغ طول مجموع الطرق ثلاثة آلاف من الكيلو مترات وعدد الكباري الصغيرة والكبيرة ألفاً وأربعمائة وعشرين

وأعاد مدحت باشا الامن الى نصابه فقد كان اهالي الروميلي يشكون قطاع الطريق فأرسل الباب العالي مدحت باشا الى الجهات الجبلية من تلك البلاد سنة (٧١) فطهر البلاد من اللصوص ولكن رجال الحكومة قد تساهلوا مع رجال العصابات وتركوهم يعيثون بالامن بعد عودته الى الاستانة فاجتث في هذه المرة جرثومة فسادهم مستعيناً بالضابطة وكانت حديثة العهد في تلك البلاد فعاد الأمن الى سابق عهده

وأسس مدحت باشا صناديق التوفير لتخليص الاهالي من براثن المرابين وذلك ان محصول الذرة في تلك البلاد جيد فكان مدحت باشا يعطي مقداراً من أراضي الحكومة الى الاهالي ويأمرهم بزرعه من هذا الصنف فاذا جاء زمن المحصول باعه بواسطة مجلس الادارة وسلم أثمانه الى تاجرين أحدهما مسلم والآخر مسيحي وأناط أمر الكتابة باحد الكتاب المكفولين وكانت صناديق التوفير تفتح أبوابها في الاسبوع مرة أو مرتين وتعطي للأكارين ما يلزمهم من النقود بعد أخذ الشهادات المصدقة من مجالس الادارات أما الفائدة التي كانت تأخذها الحكومة فهي واحد في المائة عن كل شهر وكانت هذه الاموال ملكا للاهالي فرأت الحكومة من

الواجب بل من المحتم رؤية الحساب مرة في السنة وصرف ثلث الارباح لتنظيم الطرق وانشاء ما يلزم لاصلاح البلدة فبلغ مجموع المبالغ الموجودة في صناديق التوفير ثلاثمائة ألف ليرة في مدة ثلاث سنين وبعد مدة بلغ مجموع النقود نصف مليون من الليرات كما أعلنت ذلك الجرائد

استغنى الاهالى عن مراجعة الغير بصناديق التوفير واستتب الامن في بلادهم وكانوا ينقلون المحصول من بلدة الى اخرى بسهولة بواسطة الطرق والمعابر فتقدمت ثروة البلاد وأصبح جيرانهم الصربيون والاولاح يغبطونهم ويحسدونهم على ثروتهم أما شركة وابورات تجارة الطونه فقد أفادت فائدة فوق المطلوب لان الجهات الصالحة للملاحة من هذا النهر تبتدئ من ودين الى أسفل وكانت حكومة الاستانة قد تركت تلك الجهات بلا وسائط تجارية فاحتكرتها حكومة النمسا وكان من الصعب وصول وابوراتنا الى ما وصلت اليه الوابورات النمساوية بيد ان مدحت باشا قدرأى مسألة اشتغال وابوراتنا بنقل البضائع من ودين الى بعض النقط البعيدة غير خالية من الفائدة فأوجد المبالغ اللازمة لشراء تلك الوابورات وشرعت في نقل البضائع أولا الى (قره‌صو) ثم الى (جمعه‌يناير لرى) وذلك انه قد أصلح الطرق البحرية ثم أنشأ أساكل ومستودعات في الاسواق لأموال التجار فبلغ المتحصل من ايجارات هذه المستودعات بعد مرتبات الموظفين ثلاثة آلاف من الليرات بعد تنزيل المصاريف

وبنى في الاسواق الدكاكين بما توفر من هذه المبالغ وقد بلغ اذ ذاك ثمن الذراع الواحد فى تلك الاسواق. ماية غرش

وكان الاهالى قد وقعوا فى خلاف مستمر بسبب الغابات الكائنة بجهة (طورنوى) فصالحهم مدحت باشا وقسم هذه الغابات مراعياً عدد الاهالى وسلم الى كل قرية سنداً خاقانياً أثبت به حقها فاستفاد الاهالى وعمرت الغابات التي كانت قد خربت بسبب الاهمال والمنازعات

وقد اشترى مدحت باشا أولا وابور نيش وسياره ثم صوفيه فوابور (مدحت باشا) وكثر عدد الوابورات

وأسس شركة عربات الركوب والنقل فأحدثها أولا في نيش ثم عممها في جهات الولاية فكانت تسير على الطرق الزراعية وقد أحدث لها المحطات والمواقف وهناك بدأ الصناع في طول البلاد وعرضها بصنع عربات الركوب والنقل

وكانت أسهوم الشركة تباع للاهالي بثمن ٢٠ ليرة عن السهم الواحد وتقدمت الشركة فوزعت على أرباب السهوم من الارباح ليرتين عن كل سهم ولما توجه مدحت باشا الى ولاية بغداد كتبوا له يقولون ان عربات الشركة قد بلغ عددها ٣٠٠ عربة وبلغ عدد خيلها ٥٠٠ وأكثر من هذا العدد وقد افادت هذه الشركة الاهالي في روحاتهم وجيئاتهم وسهلت سبل التجارة ونقل البريد وكان قانونها مطبوعاً ومحتوياً على (٢٧٠) مادة

وقد أفادت مدارس الصنائع أهالي البلاد فائدة لا تنكر فقد أنشأ احدها مدحت باشا في نيش ثم أنشأ غيرها في رسجق وثالثة في صوفيه وناط بها تربية أيتام المسلمين وغير المسلمين وتعليمهم الصنائع والقراءة والكتابة ووضع لها بروجراماً مخصوصاً ثم احدث لاول مرة جريدة دعاها جريدة الطونة وأحضر لها الاحرف والآلات وأمر ببعض الايتام فأخذوا يعلمونهم صنعة ترتيب الحروف فضلاً عما كانوا يعلمونهم في الاصلاحخانة من التجارة والحياكة والخياطة وصنعة العربات

بلغ عدد الاطفال الموجودين في كل مدرسة من هذه المدارس (٢٥٠) وبلغ ايراد مدرسة نيش وحدها ٢٠٠ ألف غرش. أما ايراد مدرسة صنائع روسجق فكان أكثر من هذا لان مدحت باشا قد أمر ببناء بعض مستودعات على طول الخط الحديدي فكانت تلك المستودعات تؤجر سنويا بماية الف غرش وربا ايراد مدرسة روسجق على الثلاثماية ولذا فقد بنى مدحت باشا مدرسة صنائع للبنات أيضاً

وفكر مدحت باشا في امر اسكان مهاجري التتر والشراكسة فأسكن من حضر منهم في جهة نيش قبل تشكيل الولاية واسكن نصرت باشا المهاجرين الذين جاؤا

الى سلستره وودين فلم تبق للمهاجر ثمة حاجة الى المنزل والسكن بيد ان عدد هؤلاء يفوق (٣٥٠) الفا وفيهم العاجز والصغير الذي لا يساعد سنه على الدخول في الاصلاحخانات وهؤلاء محتاجون الى القوت والملبس وليست في قرى المهاجرين جوامع لاقامة الشعائر الدينية ولا مدارس لتعليم الاطفال والحكومة تعفي المهاجر من دفع التكاليف الاميرية من يوم هجرته لمدة (١٠) سنين وقد مضت مدة واشتغل بعضهم بالزراعة فاذا أخذ منهم جزء من الاعشار بعد رضاهم انتهى هذا المشكل ايضاً وتساوى المهاجر بابن البلد وقد جمع مدحت باشا رؤساءهم وعلماءهم فأفهموهم الموضوع وشكل قومسيوناً تحت رئاسة شاكر بك مأمور اسكان المهاجرين فجمع القومسيون الاعشار من المهاجرين وباعها وصرف اثمانها لاحتياجاتهم الضرورية في السنة الاولى فبني في بعض القرى الجوامع والكتاتيب وعين مرتبات لمحتاجي الشيوخ والاطفال وفي السنة الثانية زاد مرتبات هؤلاء البؤساء واكثر عدد الكتاتيب وعين المعلمين واعتني بأمر الذين لا يجدون عائلا ولا نصيرا

تحسنت احوال الشراكسة ولكن اكثرهم اسير لبكواتهم وفيهم الشيوخ الذين لا يقدرون على شيء والبكوات يدعون امتلاك اولادهم واحفادهم اما نظامات الدولة فلا تساعد على شيء من ذلك والانسانية تأباه ايضاً ولذا فان مدحت باشا قد دعا اليه امراءهم ورؤساءهم وافهمهم سر المسألة وفي الختام اغمض الطرف عن الصغار الذين لا يتجاوزون العاشرة والتاسعة وحتم على البكوات بيعهم لآبائهم ثم حتم عليهم اعتاق الباقين

واصلح مدحت باشا ايضاً السجون ودور الحكومة فقد كان القائمقام لا يجد مكاناً للاقامة فيه وتنفيذ اوامر الحكومة وكذا الوالى والمتصرف والحاكم (القاضي الشرعى) وكانت السجون قد وصلت الى درجة الانهدام فبنى مدحت باشا سجن ودين ودار الحكومة وبنى ايضا دائرة الحكومة وسجن روسجق وكان تجار الاهالى وأغنياؤهم يجمعون الاموال لانشاء السجون ودور الحكومة ويقدمونها الى اللجان بكل افتخار

واحدث مدحت باشا دوائر البلدية التي لم تـكن موجودة الا في دار السعادة وانتظام المدن يتوقف على وجود هذه البلديات ولذا فقد انشأها مدحت باشا ونظم الشوارع والازقة وحافظ بواسطتها على الاسعار والاوزان فظهرت آثار فوائدها في طول البلاد وعرضها

وكان انتظام البلاد يتطلب ايجاد عدد من رجال البوليس وكان البعض ينفر من هذا الاسم ويعده ممقوتا فعين مدحت باشا رجال هذا الصنف وسماهم باسم المفتشين واستخدمهم لايفاء وظائف البوليس في القرى وفي البلدان

وبعد هذا وذاك فقد نظم مدحت باشا أمور الماليه بمعاونة اديب افندي دفتر دار الولاية ونظم لائحة وامر بتطبيقها بلا تردد وامر بترك ما ترا كم على الاهالى من الاموال التي لا يمكن تحصيلها وكان انفار الضابطة في ذاك الوقت يسألون عن مقدار المطلوب من القريه ويوزعونه هم على الاهالى وهي خطة عقيمة يعتورها الظلم ولذا فان مدحت باشا قد غير هذه القاعدة واحدث وظائف الجباة وسن لهم لائحة تحتم عليهم اخذ اول اقساط الاعشار والويركو والبدل العسكري فى شهر مارس وحتم على الجابي تسليم ايصال الى يد المدين وطبع الايصالات وفرقها عليهم وبهذه الطريقة نمت ثروة الاهالى وانتظم ايراد الحكومة ففي سنة (٨٢) لم يبق على الاهالى غرش واحد من الاموال الاميرية بل سددت كل هذه الاموال فى السنة نفسها ولم يحدث مثل ذلك في احدى ولايات الدولة بل انفردت به ولاية الطونة وحدها ولذا فان الاهالى كانوا يتعجبون فى الاستانة وفى بقية بلاد الدولة

ساعدت هذه الاعمال أهالى البلاد على اكثار ثروتهم وكانت ايرادات الحكومة تزيد ايضا كلما زادت ثروة الاهلين فامتلأت الخزائن بالاموال

تشكلت الولاية وكان الدفتر المرسل من نظارة المالية والمحفوظ في صندوق الدفاتر محتويا على ٢٢٦ الف كيس من النقود وهي عبارة عن ايرادات سلستره وودين ونيش بعد اخراج واردات الجمارك والملح والدخان وبعد هذا صدر الامر بالغاء بعض الرسوم ومنعت الاغنام التي كانت تحضر للمراعى من بلاد النمسا

فامتنع عن الخزينه ما كان يعطيه هؤلاء القوم من النقود وانقطعت الاموال التي كانت تأخذها الحكومة عن اثمان المراعي ايضا بسبب ورود الشراكسة ولم تصدر الحكومة أمرا بزيادة شيء على الرسوم المقررة ولكن وارداتها قد بلغت في سنة (٨٢) ٣٠٠ الف كيس بفضل التقدم والاصلاح الذي اجراه مدحت باشا ابو الاحرار وفي سنة (٨٣) بلغت الواردات ٣٥٠ الف كيس وبعد سنة ايضا ٣٧٠ الف كيس اعني مليونا وثمانماية الفا من الليرات

واذا ذكرنا المصروفات فقد كان ضباط الجاندرمة وافرادهم وكل موظفي الحكومة يأخذون ستة آلاف كيس اكثر من مصارف الولاية قبل الاصلاح ولكن الايراد قد زاد عشرين مرة عن ذي قبل أما اهل الاستانة ووزراؤها فكانوا يظنون ان الاصلاح لايتم الا باعطاء الموظفين مرتبات لا تكفيهم اثمان خبزهم ولذا فقد عزلوا معاون الولاية ومدير الأمور الأجنبية وغيرهم فمالت حالة الولاية الى التدني و بدأت الواردات تقل عن ذي قبل

حدت هذه الاحوال بالاهالي الى التوسع في التجارة والصناعة والتفنن في الارباح فاحضروا الآلات الزراعية من اوربا وأنشأ مدحت باشا شفلكا للتجارب الزراعية بجهة روسجق فمال الاهالي الى الامور الزراعية والخلاصة فان ولاية الطونة قد وصلت في سنتين الى اعلى درجات الاصلاح وسار ذكرها في الآفاق وسر الباب العالي لهذا الاصلاح فعمم نظام الولايات وصدرت الارادة السنية قاضية بارسال صور الاوامر الصادرة الى موظفي ولاية الطونة مدة سنتين فكتب مكتوبي الولاية رفعت أفندي (رفعت باشا الوزير الآن) صورها وأرسلها الى الاستانة فطبعوها في دار السعادة وارسلوها الى الولاة في الولايات لتكون دستورا للعمل وطبعوها في مجموعة الدستور

وقد اتبعوا هذه النظامات في اكثر الولايات غير أننا اذا استثنينا بعض الولايات الغنية كازمير وادرنه وسلانيك رأينا ان هذه الاجراءات لاتناسب احوالها لفقر الاهالي ولذا فان عقد نظامها قد انفرط ونجحت صناديق التوفير في بعض

الولايات فبلغ مجموع الاموال الموجودة في صندوق ازمير سنة ٩٧ مايتي الف ليرا

وكانت ولاية الطونة منقسمة الى سبعة سناجق و٤٧ أقضية و١٥ ناحية وكان المتصرفون في تلك الارجاء من ذوي العفة والاستقامة كصبري باشا وراسم باشا وعبد الرحمن باشا وكان القائمقامون والمديرون من الذين قد ثبتت استقامتهم بالتجارب أما موظفو الشرع فقد انقضت ايام معظمهم فانتخب مدحت باشا بدلهم رجالا من الامناء وابقاهم بصفة دائمة وكانت المرتبات وافية بالمرام فلم ينظر احد الى الرشوة والارتكاب وعاش الموظفون كابناء عائلة واحدة في بيت واحد وانقطعت السرقات والغارات والسلب وقطع الطريق وقلت المشاحنات والمضاربات العادية ورأي الاهالي المسلمون وغير المسلمين حركات الحكومة فعاشوا عيشة الاتحاد والوئام وانقطعت دسائس الروس التي كانوا يدسونها في البلاد مذ خمس عشرة سنة غير ان روسيا تقصد دائما ايقاظ العنصر السلاوي والتوحيد بين عموم البلغاريين فكانت الجمعيات السلاوية التي تقيم بالروسيا تجمع الاموال وتأخذ كل سنة عددا من ابناء البلغاريين لتعليمهم على زعمها فاذا عادوا من البلاد الروسية اضلوا امثالهم وكانت هذه الاحوال معلومة غير أن قوانين الدولة لاتتيح منع طالبي العلوم من التوجه الى البلاد الاجنبية وفضلا عن هذا فان البلغاريين يكونون القسم الاكبر من اهالي الولاية ولم تعاونهم الحكومة على تأسيس مكتب بل لم تؤسس لهم مكتبا أيضا وفي البلاد مكاتب قد انشأتها الحكومة لابناء المسلمين وهي غير كافية لهم اذا روعي العدد ولذا فقد فكر مدحت باشا في هذه المسألة ورأى من الواجب احداث مدارس مختلفة للتعليم الابتدائي لتعليم المسيحي وحده والمسلم وحده والجمع بينهما في المدارس الثانوية لمنع ذهاب البلغاريين الى البلاد الاجنبية وانشأ مكتبا سلطانيا في مركز الولاية وفي السناجق السبعة سبع مدارس اعدادية وانشأ لها شعبا في بعض القائمقاميات واحضر لها معلمي اللغات التركية والافرنسية وخصص نصف مصارف هذه المدارس البالغة ٥٠ الف ليرا من ايراد الحكومة والنصف الثاني من الاهالي

دسائس سفير روسيا

لنترك مدحت باشا يصلح ما هدمته يد الاستبداد ولننظر الى رؤساء احزاب السلاويين في البلاد الروسية فقد ساءهم تقدم البلاد ورأوا ان اعمالهم ستبقى عقيمة فالسفير الروسي في الاستانة افرغ جهده لاستطلاع احوال ولاية الطونه وصاغ انواع الاكاذيب واستعمل الدسائس لايقاف حركة الاصلاح وكانت مدة اقامته قد طالت في الاستانة فوقف على غوامض اسرارها وعرف اطوار المابين الهمايوني وأوضاعه فافهم السلطان عبد العزيز ان هذه الاعمال ستكون ضربة قاضية على استقلاله وان مدحت باشا سيستقل بهذه الولاية فعرف عبد العزيز منشأ هذه الرواية واسبابها ولم يعرها جانبا من الاهمية ولكن بعض رجال الحكومة كانوا يحاولون الحط من قدر مدحت باشا واظهار اعماله بصورة غير صورتها وصادف ان مجلس الولاية العمومي قد اجتمع فكتبت عنه جريدة الطونة فصلا طويلا وذكرت اعضاء المجلس العمومي بغير هذا الاسم فقالت سهوا انهم أعضاء مجلس المبعوثين فزادت اقوال الوشاة وتأخرت اللائحة المرسلة الى الاستانة لانشاء المدارس بهذا السبب بل رفضها ارباب الحل والعقد رفضا باتا قائلين ان الاحوال المالية لا تساعد على صرف هذه المبالغ الكبيرة

ثورة البلغار

نال اهالي ولاية الطونة مالم ينله غيرهم من الثروة والعز والرفاه فلم يوفق اخوانهم أعضا الجمعيات السلاوية الى اثارتهم بانواع الاكاذيب والترهات ولذا فقد ارسلوا لهم طائفة من العصابات لتدعوهم الى الثورة بقوة السلاح وعلم مدحت باشا بكل ذلك فكتب الى عالي باشا الصدر الاعظم يخبره بالحادث فاجاب ان الباب العالي قد وقف على الحقيقة وأمر في جوابه مدحت باشا بالتحوط للأمر فكتم المسألة واحضر العدة والعدد اللازم وانتظر أخبار الاشقياء ومن أين يأتون وكيف يثورون وفي سنة ٩٣ في اوائل شهر مايس ورد تلغراف من زشتوى فحواه ان الاشقياء قد ظهروا من جوار زشتوى المذكورة مدججين بالسلاح واتحدوا مع ابناء

البلدة البلغاريين وقابلوا خمسة من رعاة الضأن المسلمين خارج المدينة عند الفجر وجرحوهم جراحا قضت على حياتهم ثم ساروا ووجهتهم طورنوى

اخذ مدحت باشا هذا التلغراف فأمر باحضار بلوكين من العساكر واركبهم وابوروا بسرعة فوصلوا الى زشتوى ورأوا المسلمين والنصارى في حالة يرثى لها العدو قبل الصديق واظهرت التحقيقات ان عدد الاشقياء يبلغ المايتين اذا حسبنا عدد الذين انضموا اليهم من اهالي زشتوى أيضا وكانوا كلما تقدموا في داخلية البلاد انضم اليهم شبان البلغاريين وكان قصدهم الوصول الى غيروه ومنها الى الجبال وكان مدحت باشا قد وضع وراء غيروه في قاينوه اربعة طوابير من العساكر ومثلهم في ايلانوه ووضع في طرنوه طابورين لعلمه ان هذه النقط هي مجمع اشقياء البلغار وملجأهم الذي يلجأون اليه عند الثورة فلم يتوجه الاشقياء عند تلك الجهات بل قصد معظمهم جبل طوسه فاحاط به عدد من العساكر

قتل هؤلاء الجناة في زشتوى عدداً من الاطفال الذين لايتجاوز احدهم الثامنة من عمره وغرضهم من ذلك ايجاد العداوة بين النصارى والمسلمين وهي فعلة قد دبرها رجال العصابات وامروا رسلهم باجرائها فارسل مدحت باشا الى تلك الجهات عدداً من الوعاظ لمنع الاهالي عن القيام بالوعظ وساق الى طرنوى عدداً من العساكر وعين النقط في البلاد لحفظ خط الرجعة. قطع هؤلاء البغاة نهر الطونة منذ ثلاثة ايام ولكنهم قد ظهروا في اسلميه وقازغان وطوريان وغيرهم من البلاد التي لايصل اليها السائح الا في خمسة ايام فكانت تظهر منهم في بعض البلاد العصابات المؤلفة من العشرين والعشرة من شاكي السلاح و بعضهم يركب الخيل وقد انتشروا انتشار الجراد في جهات طرنوى وسلوى ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم من الامتعة التي صادفوها في القرى التي مروا بها فلجأ النصارى الى الكنائس خوفاً من المسلمين ولجأ المسلمون الى الجوامع خوفاً من النصارى وفي هذه الاثناء انتهز بعض الاوباش فرصة هذه الاحوال ولجأوا الى السلاح وصالوا على الضعفاء ولم يتركوا باب توحش الاطرقوه اما أصل العصاة فقد حاصرتهم الحكومة في الجبل السالف الذكر ولا بد

ان تفتك بهم فتكا ذريعاً ولكن الحذر كل الحذر هو من انتشار اللصوص في طول البلاد وعرضها ولذا فان مدحت باشا قد اهتم بهذه المسألة غاية الاهتمام ومنع الاجانب عن حمل السلاح منعاً باتاً بصفة موقتة وأمن أهالي القرى والبلاد على أرواحهم وقبض على الذين قاموا للسلب والنهب وعدوا المسألة فرصة للاستفادة من التلصص وقطع الطرق فأرسل الضباط والعساكر في كل الجهات فقبض على عدد غير قليل من الاشخاص وزجهم في السجون وتشاجر الاشقياء الذين لجأوا الى جبال طوسه مع الاهالي والعساكر فقتل منهم عدد غير قليل وقبضت الحكومة على عدد من العصاة وشكلت قومسيوناً من ستة من المسلمين وستة من المسيحيين في طرنوى لمحاكمتهم وحضر من روسجق بعض القناصل وارسل بعضهم من ينوب عنهم لحضور المحاكمة فجرت بحضورهم لان المسالة كانت غير محتاجة الى التطويل فهي عبارة عن حضور اشخاص من البلاد الاجنبية وتشويقهم أهالي البلاد الى شق عصا الطاعة في وجه الحكومة وقتل اخوانهم ومقابلة العساكر النظامية بالرصاص وقد دلت على ذلك اقوالهم وحركاتهم وشهد ضدهم الشهود فأعدموا اما الذين ساعدوهم بالسلاح ودلوهم على الطريق من بلغارى البلاد فقد حكم عليهم بالاشغال الشاقة وارسلوا الى ودين وكانت الاخبار ترسل يومياً الى الباب العالي وكان الصدر الاعظم يحبذ افعال مدحت باشا ويرسل له تلغرافات التبريك

وكانت الاحكام تصدر بسرعة وانتظام ولكن السجون قد ضاقت وهناك عمدت الحكومة الى طريقة التحقيق الدقيق فافرجت عن الذين تجمهروا وحاولوا شن الغارة على القرى لنهبها واكتفت باخذ سلاحهم وسجنت الذين ثبتت عليهم الجنايات وامرت بضرب الاقباط والمتشردين وتخلية سبيلهم وقبضت الحكومة على قاتلي الاطفال واعدمتهم في محل الجناية وسجنت عدداً غير قليل منهم

وفي اثناء هذه الاحوال ظهرت حادثة غريبة في بابها وهي ان احد البلغاريين كان يشتغل في زراعته هو وزوجته فقتلا معاً وظن الناس ان هذه الجناية قد احدثها المسلمون وكانت تلك البلاد خالية من مسلمي الاهالي فكان مدحت باشا يرسل

الموظف تلو الموظف للبحث عن الفاعلين فوجدوهم وسجنوهم لاجراء التحقيقات اللازمة

وجدوا القتيلين ووجدوا معهما سيفاً ملوثاً بالدماء ففتشوا العساكر ووجدوا سيوفهم معهم وكانوا قد القوا الشبهة على محمد شاوش فوجدوا سيفه معه وكانوا قد رأوه بحالة توجب الشبهة في تلك الليلة

و بعد تحقيقات عميقة اتضح ان السيف هو سيف الشاويش المذكور وانه تركه عند المقتولين وارسل الى صانع الاسلحة ابنه مدعياً ان سيفه قد ضاع فأرسل اليه سيفاً وقد أقر الجاني أخيراً بجنايته قائلاً انه قد تعرض لزوجة الرجل بشهوته البهيمية فحاول زوجها منعه فقتل الاثنين فحكم المجلس العسكري على محمد شاويش بالاعدام واعدمه رميا بالرصاص عملاً بالقانون العسكري

وقد اشتدت الحادثة ثلاثة ايام ففي هذه المدة صلب عدد غير قليل وجلد عدد من المسلمين وغيرهم بلا تفريق وقتل محمد شاويش بهذه الصفة فانطفأت جذوة الفساد وكان البلغاريون متأهبين للثورة فثاب اليهم رشدهم بعد هذه الاعمال وعليه فقد بقي مدحت باشا في جهة طرنوى ثم عاد الى زشتوى بعد اعادة الامن الى نصابه في تلك البلاد

وكان الاشقياء قد كثر عددهم في جهة زشتوى وانضم اليهم عدد غير قليل من الاهالي وملاؤا بعض الكنائس بالاسلحة والزخائر وكان أهالي زشتوى يعرفون كل ذلك بلا شك ولا جدال فترك مدحت باشا في تلك البلدة مقداراً من العساكر

و بعد صدور الحكم على خمسة من قاتلي الاطفال اجرى اعدامهم و بعد تحقيقات طويلة قبض مدحت باشا على ٨٤ من الاشقياء واخذهم في وابوره وتوجه بهم الى روسجق

واشتغل المجلس الكبير في روسجق بالتحقيقات فاعدم الجناة واعاد بعض الاجانب الى بلادهم ونفي بعض القسيسين والرهبان وانتهت المسألة وكتب عنها الى الباب العالي

على هذا النسق عاد الامن الى ربوع الولاية وفي هـذه الاثناء عاد السلطان عبـد العزيز من أوربا الى الطونة وورد الى مدحت باشا خـبر عزمه على الحضور فتوجه الى بشته وقابل السلطان فبقي الاخير ليلة في ودين وليلتين في روسجق واثنى على أعمال مدحت باشا وكافأه مكافأة جديدة

تجنيد اهل القرى

عاد الامن الى ربوع الولاية ولكن جمعيات السلاو الثورية في روسيا وفي بكرش كانت تحدو الى الظن بان هذه الحركات لا تنتهي وان هـذه الجمعيات ستشتغل باحداث الثورات في المستقبل وتوقع البلاد في ازمات اكبر من الاولى ولا سبيل الى ايجاد العساكر في كل نقطة واهل القرى غـير مستعدين لمقابلة الطوارئ واذا حدث شيء من هذا القبيل وقعوا في حيرة وقام المسلم ضد المسيحي كما ثبت بالفعل في الحادثة الاخيرة ولا بد من ايجاد علاج شاف لهذه الخطوب ولذا فان مدحت باشا قد أوجب على أهالي القرى حمل السلاح وحتمه على الشاب الذي يبلغ (١٥) من سني حياته الى الشيخ الذي يبلغ (٦٠) وقرر تعليمهـم ونصب رؤساء منهـم واعدادهم لما يطرأ من الحوادث ليكونوا تحت امرة الضباط وقرر اعطاء كل شخص أربعـين پارة من الحكومة وعرض المسألة على الباب العالي وطلب اربعين ألف بندقية لهذا الجيش الجديد فصدق على طلبه الباب العالي وورد قسم من البنادق فوزعه على الاهالي فتكونت في الولاية قوة جديدة غـير القوة العسكرية و بطل قول الذاهبين الى ان ولاية الطونة ستكون يوماً تابعة لروسيا ولذا فان محمود باشا نديم قد مزق شمل هذا الجيش خدمة لمآرب الروس يوم تولى مسند الصدارة

احداث الخفراء على سواحل وحدود ولاية الطونه

ان حفظ الولاية في الداخل مهم واهم منـه المحافظة على الحدود والسواحل وخصوصا فان ولاية الطونة محدودة ببلاد الصرب من جهـة ومن الأخرى ببلاد الافلاق والبغدان وهذه الممالك قد اوجدت عددا غير قليل من القراقولات على حدود نهر الطونة اما نحن فلم نعبأ بهـذه المسألة ولذا فان بلادنا خاليـة من خفراء

الحدود وهذا الامر ينافي الشرف والحيطة معا ولا سبيل الى ايجاد عدد كاف من الخفراء لان النهر ممتد واذا اريد وضع العساكر على طول النهر وجب صرف ثلاثين الف ليرة فلا سبيل اذا الى حفظ حدود البلاد الا بالاستعانة بالاهالي ولا فرق بين المسلم وغير المسلم في هذه المهمة وقد ابتدأ مدحت باشا من ودين فوضع بعض القراقولات للتجربة على الطريقة الآتية

وضع مدحت باشا في كل قراقول نفرا بمثابة الاونباشي وجعل خمسة من القرويين يتناوبون الحراسة في القراقول فيقيمون اسبوعا واحدا في كل ثلاثة اشهر فاذا انقضى الاسبوع خلفهم غيرهم وخصص لكل قراقول ٧٠٠ من الاقباط والجراكسة والبلغار والمسلمين

حادثة وابور جرمانيا

ظهرت في هذه الاثناء حادثة وابور جرمانيا الشهيرة وهي ان جمعيات السلاو الكائنة في بكرش وابرائيله وكشنو وقلاصى كان يزيدون في افسادهم كلما زاد الامن استتبابا في ولاية الطونة فكانوا يرسلون العصابات والاسلحة وقام اثنان منهم بوظيفة من قبل هذه الجمعيات من (قلاص) ووجهتهم بلغراد ثم عادوا الى قلاص وارفقهم مدحت باشا باثنين من الموظفين فصحبوهم في سفرهم وركبوا معهم احد وابورات النمسا فتوجه احد الموظفين معهم الى قلاص ودخل في زمرة الفرقة الثورية التي الفوها وحاز ثقتهم ووقف على حركاتهم ونياتهم وكتب الى مدحت باشا مكتوبا وارسل اليه رسمه هو ورئيس العصابة الثورية وقال له انهم سيعودون الى بلغراد على وابور النمسا المدعو جرمانيا وكان الشقيان قد اشتهرا بالقتل والسلب ودل عليهما رسمهما فحاول مدحت باشا القبض عليهما فوصل الوابور الى رسجق ولكنه يحمل الراية الاجنبية وعدد ركابه يربو على المايتين فكيف يمكن القبض على الشقيين بالقوة ولذا فان مدحت باشا قد ارسل المفتشين الى الوابور وبعث معهم باحد موظفي سفارة النمسا فسألوهما عن احوالهما وجواز سفرهما فحدا بهما غرور الرئاسة الى تصويب مسدسيهما نحو موظفي الحكومة وضربهما بالرصاص ثم فارقاهما

ودخلا حجرة الوابور ولم يصب رصاص مسدسيهما الموظفين فامتنع الاخيران عن اتباعهما أما ركاب الوابور فقد رأوا الشقيان وشاهدوا اسلحتهم وبنادقهم ورأوا مابيدهما من معدات الحرب فتركوا الوابور وتركه أيضاً ربانه وعماله ولم يبق فيه سواهما

وهنا أرسل مدحت باشا عدداً من العساكر لمحافظة السائحين الذين فارقوا الوابور واحاطة الاخير من اطرافه الاربع فحضر قنصل النمسا الى مدحت باشا مع وكيل الشركة وتذاكروا في أمر اعادة الامن في الوابور واعادة الركاب ولكن الشقيين قد لجأوا الى حجرة الوابور وأغلقوا بابها ووقفوا وفي يدهم السلاح واذا لم يخرجا فلا سبيل الى دخول السياح الى اماكنهم وسفر الوابور كما قال السياح وفي هذه الاثناء حضر قبطان الوابور ووافق على أقوال السياح أنفسهم ودخول أملاك الاجانب ممنوع غير ان القنصل قد لجأ الى الحكومة وطلب منها اغاثته بقوتها ولذا فان استعمال القوة جائز في مثل هذه الاحوال خصوصاً بعد موافقة القنصل ولهذا فقد صدر أمر مدحت باشا الى رجل برتبة (طابور أغاسى) بالتوجه مع القوة اللازمة الى الوابور واخراج الشقيين قسراً فتقرب من الحجرة شاويشان ونفران من رجال الضبطية ونصح لهما الطابور اغاسى فقابلاه بالسب والشتم فاضطر الى كسر الباب بالمعاول فظهر الرجلان وفي يدي كل منهما مسدسان ورموا بمقذوفاتها الجنود فاصاب رصاصها حافظ چاويش في صدره فخر على الارض فقابلهم الجنود بالرصاص وقتلوا أحدهما وقبضوا على الثاني جريحاً فمات بعد ثلاث ساعات

و بعد كل ذلك ركب السياح وابورهم واستمر الوابور في طريقه وكتب مدحت باشا الى الباب العالي تلغرافات عن هذه الحادثة فجاوبه عالي باشا محبذاً أفعاله الاصلاحية ونشر الخبر في جرائد أوروپا السيارة لمنع اعداء الدولة الافاكين عن القيل والقال وكانت المسألة قاصرة على اعدام الشقيين ولكن رجال الحكومة النمساوية قد ارادوا تكبيرها فوجهوا الى القنصل تهما لا تنطبق على العقل وعزلوه وقدم الصربيون شكاياتهم الى الباب العالي اعتراضاً على قتل احد الشقيين التابع

لحكومتهم وعد الجنرال ايغناتيف المسألة فرصة وطلب عزل مدحت باشا من ولاية الطونه واخذ كتخدا الصرب مراراً وتوجه معه الى المابين فقالوا له ان مدحت باشا قد فعل ما تحتمه عليه وظيفته وعرفت الحكومة النمساوية ما لحق قنصلها من الظلم بسبب عزله فعينته قنصلاً لولاية طرابزون مكافأة له على حسن خدمته

قصد اغتيال مدحت باشا

كان الصربيون والروس يريدون عزل مدحت باشا من ولاية الطونه فلم يوفقوا لي بغيتهم فقررت الجمعية السلاوية الموجودة في الصرب قتل مدحت باشا ووافقها على قرارها ميشل أمير الصرب وارسلوا أولاً شخصين فلم يجسرا على تنفيذ القرار ولكنهم اطمعوا صانع الاحذية في مكتب الصنائع بالاموال وحضر مدحت باشا الى بستان المكتب يوماً فاختفى الرجل وكان من أصل نمساوي وحاول اطلاق طبنجة فلم تساعده جسارته ووقع علي الارض مغشياً عليه وندم على فعلته ثم توجه الى قنصل النمسا وفي احدى يديه الطبنجة وفي اليد الاخرى النقود المعطاة له وشرح المسألة شرحاً شافياً فكتب القنصل تقريراً وأرسله مع الرجل الى مدحت باشا فأبقاه الباشا في خدمته لان ماضيه غير ملوث لا سيما وقد اعترف بانه قبل هذه المهمة وهو في حالة السكر وفي هذه الاثناء تقدم شاب صربي الى مدحت باشا طالباً الحاقه بخدمة وكيل خرج فرفض الباشا طلبه فظن انه لم يقبله لانه مسيحي وقدم طلباً الى المتصرف مظهرا رغبته في اعتناق الدين الاسلامي فقبل طلبه ودعا نفسه بعمر وعاد الى مدحت باشا لطلب الخدمة وهو من الذين ولدوا في بلاد الصرب وله امرأة وأولاد فكيف ترك أهله وبلاده وحضر وطلب خدمة صغيرة كهذه يوجب الريبة وطلبه اعتناق الدين الاسلامي يوجب كثرة الارتياب ولذا فان الحكومة قد أمرت العيون ليراقبوا حركاته فعاد احدهم الى الحكومة بعد عشرين يوماً وقص العبارة الآتية وهي ان عمر يقيم في منزل احد الصربيين المدعو يوان وقد كتب مكتوباً سرياً الى بلاد الصرب وجوف عصا راع ووضعه فيها وسلمه لاحد البلغاريين ليوصله الى بلغراد عن طريق البر فأرسلت الحكومة الرجال فقبضوا على الرسول مع عصاه

في جهة بلونه واعادوه ثم وجدوا في عصاه مكتوباً ذا صحيفتين كبيرتين فترجموه من الصربية الى التركية وهو مكتوب الى ميشيل أمير الصرب وكاتبه يوان وخلاصته ان الرجل قد حضر الى تركيا بأمر البرنس وأراد التقرب الى مدحت باشا بخدمة فلم يقبله الباشا فاعتنق الدين الاسلامي ولم يوفق الى الاندماج في سلك خدام الباشا أيضاً ولذا فانه عول على استعمال السلاح لتأدية ما انيط به وسيقتله حراس الباشا فهو يرجو البرنس النظر الى عائلته الموجودة في بلاد الصرب

ولما أحضروا الرجل واستكتبوه ثبت ان الخط خطه ولم يتنصل من تبعة مكتوبه بل قال انه كتبه وهو في حالة السكر وقد حقق مجلس تميز الولاية المسألة وأرسل الاوراق الى الاستانة لان مدحت باشا لم ير من الصواب اصدار حكمه على رجل حاول قتله وكان الجنرال ايغناتيف يبذل الجهد لتخليصه ولكن مساعيه لم تثمر لان الحكم صدر عليه بالسجن المؤبد وأرسل الى سجن قلعة ديار بكر

وقد ظهرت حوادث متعددة بعد هذه الحادثة فقبضت الحكومة على المتآمرين ولم تترك لهم مجالاً للعمل وفي هذه الاثناء طلب مدحت باشا الى المابين للمذاكرة في بعض الامور

تعيين مدحت باشا لرئاسة مجلس شورى الدولة

توجه عالي باشا الصدر الاعظم الى جزيرة كريد وكان فؤاد باشا ناظر الخارجية يقوم بتأدية وظيفة الصدارة العظمى فاستدعى مدحت باشا للتشاور فى أمور تختص بولاية الطونه وغيرها من الولايات وعزم مدحت باشا على العودة بعد اتمام ما انيط به وفي هذه الاثناء عاد عالي باشا وقرر بالاتفاق مع فؤاد باشا احداث مجلس شورى الدولة وديوان الاحكام العدلية وأصدر ارادة سنية قاضية بتعيين مدحت باشا لرئاسة الاول وجودت باشا لرئاسة الثاني وعين صبري باشا والي ازمير لولاية الطونه لانه كان قبل تعيينه لهذا المنصب متصرفاً فى ودين

وفي ذاك الزمان كان مجلس الوالا مرجعاً لكل الامور فأحلوا محله مجلس شورى الدولة واشتغل مدحت باشا بتعيين الكتاب والعمال فى سنة وسن اللوائح

والنظامات وقرر مقادير الموازين والاكيال وحولها الى الاصول الاعشارية وقوانين التبعية ونظام المعادن وغيره

تأسيس مكتب الصنائع فى دار السعادة

كان مدحت باشا يتولى أمور رئاسة شورى الدولة وينظر فيما يعود على الامة بالفائدة فمما أحدثه صندوق الامنية ومكتب الصنائع لان الاصلاحخانات (مدارس الصنائع) التي أحدثها فى الولايات كانت ملجأ للفقراء والايتام وفضلاً عن ذلك فقد كانت السبب فى زيادة عدد الصناع فى داخلية البلاد ولذا فان الوكلاء قد طلبوا احداث مثل هذه المكاتب فى دار السعادة وجعلوا محل (قليچ خانه) القريب من جامع السلطان احمد مقرا لهذه المدرسة وقرروا أخذ أجور عبور من الذين يمرون على الجسر العتيق فتكون من محصوله أربعماية ألف من القروش فخصوا هذا المبلغ بمصاريف المدرسة ولكن المبالغ التى كان يتطلبها هذا المشروع كثيرة وهذا القدر غير كاف ولذا فان الوكلاء ظلوا يتذاكرون اكثر من سنة فى الموضوع ولم يحظ أحدهم بطائل ولما تشكل مجلس شورى الدولة حولوا المسألة على مدحت باشا وكان مدحت باشا يفتخر باحداث مثل هذه المآثر فقبل ما أنيط به على شرط عدم تداخل غيره و باشر عمله ففتح المدرسة فى ثلاثة أشهر وقبل فيها مايتين من الطلاب و بعد هنيهة كان عدد تلامذتها ٥٠٠ طالباً ونظم لها النظامات الداخلية والخارجية اللازمة

عين النظار ايراد الجسر القديم لمصاريف مدرسة الصنائع ولكن محمود نديم باشا ناظر البحرية اذ ذاك كان يحاول حجز ايراد هذا الجسر باسم نظارة البحرية فأعطى عالي باشا المكتب الخان الموجود بغلطة المدعوخان القومسيون وايراده أربعماية وخمسين ألف غرش وموقع الخان وحاله يساعد على اكثار الايراد وكان ذا دور واحد ولذا فان مدحت باشا قد اقترض عشرة آلاف من الليرات و بني دورًا ثانياً للخان ونقل اليه بورصة غلطه فبلغ ايراده الجديد ضعفي القديم

وكان الايتام يدرسون فى المكتب القراءة والكتابة والحساب والرياضيات

والصنائع المتنوعة كالحدادة والنجارة وترتيب الحروف وتجليد الكتب وصنعة الليطوغرافيا وصنع الكبريت وسبك الحروف والخياطة وغيرها

احداث صندوق الامنية في دار السعادة

ذكرنا ان مدحت باشا قد أسس صندوق الامنية لاسعاف ذوي الحاجات في الاستانة وهذا الصندوق موجود لليوم وهو يقبل ايداع الاموال ويقرض ذوي الحاجات بفائدة قليلة

ثورة الطونه الثانية واعادة مدحت باشا لتسكينها

لما فارق مدحت باشا ولاية الطونه خلا الجو لعصابات السلاو فدسوا الدسائس وأعلنوا العصيان ورتبوا في صيف العام التالي ثورة اكبر من ثورتهم الاولى ودبت عقارب كيدهم الى فلبه وغيرها وخاف أهالي أدرنه وغيرهم شرهم ولما علم عبد العزيز سر المسألة دعا اليه مدحت باشا وقال له : أنت تؤدب هؤلاء الاوباش وتعود في القريب العاجل : ووجه اليه الوظيفة واصدر اليه ارادته بالتوجه الى ولاية الطونه وكان الوابور حاضراً فتوجه مدحت باشا الى روسجق ومنها الى طرنوه وكان عدد الاشقياء في هذه المرة اكثر من ذي قبل ولكن الاهالي قد اعتادوا الحركة البلغارية في العام الماضي فلم يكترثوا لها هذا العام

فعل مدحت باشا بالاشقياء ما فعله في العام السابق فانطفأت جذوة نار الثورة في عشرين يوماً وعاد مدحت باشا الى الاستانة

عاد الامن الى ربوع الولاية ولكن صبري باشا والي الطونه قد وقع في ثالثة وقدم استعفاؤه الى الاستانة فعينوا مكانه عاكف باشا والي سلانيك وأرسلوه اليها

مدحت باشا فى ولاية بغداد

كان مدحت باشا في رئاسة شورى الدولة يسن القوانين ويحدث اللوائح وكان من الواجب على الحكومة احالة كل شيء على هذا المجلس ولكنها لم تفعل ذلك بل كانت تصدر بعض النظامات قبل عرضها على شورى الدولة فلم يقبل مدحت

باشا أعمالها وعزم على التوجـه الى احدى الولايات وصادف عزل تقي الدين باشا والي بغداد فأظهر مدحت باشا ميله الى تلك الولاية فوجهت اليه وظيفة والي بغداد مع نظارة الفيلق السادس

الغاء الرسوم المضرة في بغداد واحلال الاعشار محلها

لما أحدثت الحكومة نظام الولايات جعلت بغداد ولاية أيضاً و بقيت أحوالها المالية والادارية على ما كانت عليه في السابق فلم تحدث اصلاحاً ولا تبديلاً بل ظلت تأخذ الايراد كما كانت تأخذه قبل اليوم ولم ترسل عساكر الاتراك الى بلادهم وتجند العساكر من أهالي البلاد و بعد هـذا وذاك فانها لم تترك أيضاً الاستبداد القديم بل كانت تقبض على الافراد وتجعلهـم خاضعين لنظام العسكرية واذا حكم على احدهم بالسجن لجرم عادي أدخلته في سلك العسكرية وقد جعل مدحت باشا هاتين المسألتين نصب عينه

ولاية بغداد بلاد واسعة يلزم لكل منها متصرفاً ولكن هذه الولاية كان يلتزمها ناصر باشا وهي فعلة تخالف قوانين الدولة ونظاماتهـا فرتب مدحت باشا الامور وقسم البلاد الى تقسيماتها الادارية المتبعة

اجراء الاقتراع والقلاقل التي حصلت بسببه

اشتغل مدحت باشا بالاصلاحات الادارية والمالية وعزم على جمـع افراد العساكر النظامية من بغداد ومن غـيرها غير ناظر الى ما يحول دون ذلك من المصاعب وقد رأى من الواجب الابتـداء بمركز الولاية ليكون أهلهـا قدوة للناس وأمر من يلزم بمباشرة العمل فى اليوم التالي وفي قرب المساء وقبل غروب الشمس سمع أصوات الرصاص فسأل عن السبب فقيل له ان أهالي البلدة قد اجتمعوا في أماكن متعددة ونهبوا بعض الدكاكين ثم توجهوا الى محلتي اليهود والنصارى

استعفاء مدحت باشا بعد ان أخذوا منه نظارة الفيلق

جرت عادة حكومة الاستانة من قديم على خطة الجمـع بين ادارتي الملكية والعسكرية ولكن بعض ذوي الاغراض قد سعوا بمدحت باشا فأخذوا منه نظارة

الفيلق فاستعفى من الولاية بعيد توجهه الى بغداد وقد حدثت الثورة الاهلية بعد استعفاء مدحت باشا وكان المأمور بقيادة العسكر سامح باشا ولكن سبب ثوار الاهالي مسألة الاقتراع وهي من أعمال مدحت باشا ولذا فان الاخير قد توجه الى الشكنة العسكرية وأعطى الاوامر اللازمة للعساكر وأمر باحاطة محلة اليهود والنصارى بالقوة الكافية لمنع المسلمين عن التعدي على أموالهم وأرواحهم وأحاط المدينة بالجنود لمنع العصاة عن الفرار ولما رأى الثوار هذه الحركة تفرقوا شذر مذر وانتهت المسألة بسلام وفي اليوم الثاني والثالث بحث مدحت باشا عن مسببي هذه الحادثة وأدخلهم في سلك العسكرية بلا منازع ولا قرعة

ابقاء نظارة الفيلق في يد مدحت باشا

بعد انتهاء الثورة باسبوع تقريباً ورد تلغراف من الاستانة مفاده أن نظارة الفيلق باقية كما كانت في يد مدحت باشا

وصادف في هذه الاثناء ان شاه العجم أرسل موظفاً مخصوصاً الى بغداد يقول ان أهالي (اورامان) الكائنة على الحدود العثمانية والتابعة لبلاد العجم قد خالفوا حكومتهم وعزمت على تأديبهم وصدر أمر الباب العالي بمنع أهالي هذه القرية عن تجاوز الحدود العثمانية وكان تنفيذ أمر الباب العالي يتوقف على وجود قوة عثمانية على حدود العجم لان أهالي الحدود المذكورين هم من الشجعان الذين لايهابون الموت ولذا فقد أرسل مدحت باشا خمس طوابير لمنع مرورهم

ودخل عساكر العجم بلاد العصاة وعاملوهم بقسوة لم يسمع بمثلها فاضطروا الى دخول الاراضي العثمانية ورأوا عساكرنا على الحدود فلجأوا الى عبارة وحيدة في بابها وهي انهم اشاروا على النساء فحملن الاطفال وتقدمنهن وتبعهن الرجال وهكذا استمر هؤلاء الاهالي وعددهم يبلغ العشرين ألفاً على الابتعاد عن بلادهم حتى وصلوا الى السليمانية فانزلتهم الحكومة هم وأولادهم على الرحب والسعة وقامت بقوتهم وقوت عيالهم مدة ثلاثة أشهر وبعد ذلك عفت عنهم حكومتهم بواسطة الباب العالي فعادوا الى أوطانهم

قتل منصرف الحلة وضباطها ومسألة دغاره

كان تقسيم أموال الحكومة فى بلاد العراق يخالف بقية الولايات وكانت النية معقودة على اصلاح هذه النقطة أيضاً لان الاموال كانت تحصل بقوة العساكر وكانت العشائر تغتصب أموال الحكومة وتأخذ أراضيها وترفض دفع الضرائب

وفى هذه الاثناء أرسلت الحكومة الى ديوانيه مقداراً من العساكر لتحصيل الاموال تحت قيادة الميرالاى وكان متصرف الحلة معهم وكان المدينون من العربان سكان الخيام فنصب العساكر خيامهم فى جهات دغاره وعفك وكان عددهم (٣٨٠) على ان المكان الذي نزلوه محتو على بعض القبائل الوحشية وقبيلة عفك عازمة على الثورة ولذا فان المتصرف والميرالاى قد توجها الى هذا المكان ونزلا فى مكان محاط بالنخيل فأرسل رؤساء الثوار عشرة آلاف من الفرسان والرجال فقطعوا عنهم الماء وحاصروهم من جهاتهم الاربع فقابلهم الاهالي بالسلاح ودخل الفريقان فى معركة دامت ثلاثة أيام وقتل فيها عدد غير قليل من العساكر و بينهم المتصرف والميرالاي والبكباشى ولما علم مدحت باشا باشتداد الازمة أرسل سامح باشا وأرسل الى ناصر باشا وأخيه فخفوا الى العدو بعدد من العرب

كل هذه الحوادث هى مقدمة المسألة الشهيرة بحادثة دغاره على هذا النسق وصل عدد العساكر المحتشدة فى ديوانيه الى سبعة طوابير من المشاة وآلاي من الفرسان وأربعة آلاف من فرسان جهة (منتفك) واكثر من ألف وخمسماية من الاكراد كاملي العدد والعدد ولما وصل الفريق الى ديوانيه مر عليه شهر ولم يأت بحركة فحمل العرب سكوته على الخوف واستمروا على بغيهم والتحق بالعصاة بعض القبائل كقبيلة الخزاعل و بنى حكيم وجبور وابى سلطان وحاصروا العساكر فى القلاع وفى بعض الاماكن وضيقوا الحصار على الفرقة المقيمة بديوانيه ونهبوا الارزاق المرسلة الى العساكر من الحلة عن طريق الفرات فزاد اضطرار العساكر الى الزاد وقطعوا الاسلاك التلغرافية فتعسرت المخابرة

ورأى مدحت باشا ان دوام هذه الحالة يزيد الطين بلة و يوسع الخرق على

الراقع فتوجه بنفسه وأخذ معه ثلاثمـاية من العساكر واستصحب يحيي بك اركان الحرب الموجود اذ ذاك في بغداد

تبعد ديوانيه عن بغداد (٣٢) ساعة و بين البلدين (الحلة) وقد وصل مدحت باشا الى الحلة وحادث الفريق وناصر باشا واللواء احمد باشا وغـيرهم وبحث عن الطرق الموصلة الى مخاطبة العساكر المحصورين وكان مع الفرقة طاهر بك (طاهر باشا الآن) فبدل قيافته وحضر مع عدد من العساكر ومعه مضبطة مصدق عليهـا من الضباط فحواها ان العصاة قد جمعوا جموعهم ومعهم السلاح اللازم فيجب الصلح معهـم حقناً للدماء ومنعاً للكساد الحاصل بسبب تعطيل الاشغال الزراعيـة والتجارية وقال طاهر بك ان العساكر قد عقدوا الهدنة مع العصاة وكتبوا شروط الصلح وارسلوا لهم رهناً وان الفريق قد كتب أمراً وارفقه بالمصحف وفعل أفعالاً لا تنطبق على عظمة الحكومة ولا توافق شرفها وهذه الاعمال لا تؤثر في تلك البلاد وحـدها بل تحدو بالاهلين الى شق عصا الطاعة والخروج على الحكومة وكانت الطرق مسدودة بالعصاة بيد ان ياور مدحت باشا المدعو تحسين افندي قد قطع الطريق في (١٤) ساعة ودخل في وسط العصاة المقيمين في ديوانيه وكتب مدحت باشا الى القومنـدان فعزله واحل محـله اللواء احمد باشا وقال للمعزول ان المضبطة المعطاة للعصاة قد الغيت

أحضر مدحت باشا من بغداد (٣٠٠) من العساكر وزاد عليهـم من افراد الحلة فبلغوا طابوراً وتوجه الى ميـدان العصاة في اليوم التالي وخرج القومنـدان في عـدد من عساكره فقابل مدحت باشا في وسـط الطريق على شاطئ نهر الفرات وكان الزراع قد فتحوا فوهة لاسقاء أراضيهـم فتوسعت وكونت بحيرة كبيرة وتكونت في وسطها شـبه جزيرة تحصن فيها العصاة وكانت الجزيرة بعيـدة عن مرمى المدافع ولا سبيل الى الاقتراب منهـا بالمراكب الشراعيـة وكان العرب يثورون اعتماداً على حصانة هـذه النقطة وعليه فلا سبيل الى اخضاع العصاة الا بتجفيف تلك البحيرة وكان مدحت باشا قد أحضر بعض العمال فتعهدوا بسد تلك

الفوهة في أسبوع ونصف أسبوع وابتدأوا في العمل واجتمع العساكر من جهة

وبينما هم على تلك الحال حاصرهم الاشقياء وأطلقوا عليهم الرصاص ثلاث ليال فلم تصبهم مرميات البنادق لانها من الطرز القديم وقابلهم العساكر بالمدافع والبنادق فمات منهم خلق كثير وحضر شيخ جيور المدعو خليل وقدم الطاعة واقام هو ورجاله البالغ عددهم (٢٠٠٠) في محل قريب من المعسكر وفي احدى الليالى هاجم فرسان (منتفك) فاصابهم ببعض الضرر وقابلوه ففر بجنوده وعرف العصاة ان العساكر المنظمة لا تبيح لهم التعرض لها ولا يهزمها كثرة عددهم وكان عددهم يربو على المايتي الف فاغتروا بسبب ما رأوه من التسامح من فرقة ديوانيه وحضر الشماشرجي عبد الكريم من حلب وعلموا ان سد الفوهة يوثر في زراعاتهم فهاجموا العساكر ليل نهار فارسل مدحت باشا عدداً من العساكر تحت قيادة احمد باشا فقابلوا العصاة واستشهد منهم ستة وجرح بعضهم ومات من العصاة (٥٠٠) وفروا من وجه العساكر وحاول بعضهم اقتحام النهر فغرق منهم خلق كثير وتفرق شمل الباقين عند ما رأوا انهزام رفاقهم

وعينت الحكومة عدداً من الفرسان والاكراد لتنكيل الاشقياء فقبضوا على اكثرهم وجاوا بقاطعي الاسلاك التلغرافية مع قطع من الاسلاك

وبعد (١٣) يوماً انتهى السد وجف ماء البحيرة وشرع العصاة يظهرون الطاعة وانطفأت جذوة العصيان

هذه هى حادثة دغارة وهي اكبر حوادث العراق الثورية فقد اجتمع فيها قبائل الشيعة وشقوا عصا الطاعة في وجه الحكومة وفاق عددهم المماية الف وقتلوا المتصرف والميرالاي والبكباشي وقطعوا المواصلات التلغرافية والسبب في هذه المذابح شيخ عفك ودغاره وقد حاولوا بذلك ابتلاع أموال الحكومة فاحالهم مدحت باشا على المحكمة لمجازاتهم واصدر عفواً عمومياً عن بقية الاهالى واعاد ما نهبه العرب من أمتعة العساكر وبنادقهم وعاد الى ديوانيه

عاد الافراد الى ديوانيه واحضروا ما نهبه العرب من الاواني والخيم وكان

بعض العرب قد رمي عربة الى الفرات بمدافعها فاخرجوها بشق الانفس وأعادوها الى الحكومة وقبضوا على شيخي دغاره وعفك وسلموهما الى الحكومة بهمة ناصر باشا وتشكلت لجنة فحكمت عليهما بالاعدام وصلبوا على رأس جسر ديوانيه وأرسل بعض رؤساء القبائل العاصية الى الاستانة لتبعدهم الى الروميلي واظهر ناصر باشا وأخوه منصور باشا همة لا تنكر في هذه الحادثة

حضر عبد الكريم شيخ قبيلة شمر الى بغداد في اثناء هذه الحادثة للغارة والنهب ورأي المسألة قد انتهت فقابل مدحت باشا مدعياً انه قد حضر لمعاونة الفيالق العثمانية فلم يأبه لاقواله ولم يظهر له الامتعاض بل أخذه معه وعاد الى بغداد في شهر كانون الاول

مسألة أراضي العراق

تعرضت بلاد العراق للحروب والغارات وتهديد الامن وكثر الثوار في جهات هنديه والحله وغيرهما كما لا يخفى على عارف أحوال تلك البلاد

وقد اختلفت الافكار في شأن هذه الثورات فمن قائل ان أهالي البلاد هم من الشيعة وسبب شقهم عصا الطاعة هو ان رجال الحكومة يخالفونهم في المذهب ومن قائل ان رؤساء القبائل يحثون الافراد على مقاتلة الحكومة للتخلص من الاموال الاميرية وهذه الاسباب غير كافية لانه لا يعقل ان هذا العدد الكبير يثور ويهدر دمه باشارة المشايخ والذي ينظر الى حالة البلاد يتضح له ان سبب هذه المخاصمات هي مسألة الاراضي

ان اراضي العراق واسعة وأهلها كثيرون ولكن الخراب قد اعتورها فأصبح الاهلون في ربقة الفقر فالواجب اذاً ازالة الداء واجتثاث جرثومته فان الحكومة هي صاحبة الاراضي في العراق وهي تستخدم الاهالي لزرعها وتعطيهم الثلث وتأخذ الثلثين

والناظر الى أحوال الاهالى هناك يظن الاهالى متمتعين بحقوقهم المدنية والحقيقة هى غير ما يظن لان الزارع فى العراق لا يشتغل بتربية الحيوانات وغرس

الاشجار بل يكتفي بالزراعة و يشكو ظلم الرؤساء والمشايخ ولا يجد قوت أولاده فهو يميل الى القتال و يرجح ترك البلاد لاقل حادث

وليس هـذا حال الافراد فالمشايخ أيضاً يأخذون الاراضي من الحكومة لمدة سـنة ولا يرون اعمارها فرضاً عليهم لانها ستعاد الى الحكومة بعد هذه المدة وهم ينتهزون كل فرصة للقيام في وجه الحكومة

هذه هي الاحوال التي أوصلت أراضي العراق الى حالتها وجعلت أهلهـا يتضورون من الجوع بعد ان وصلت بلادهم الى درجات العز قبـل اليوم وكانت مشهورة بين بلاد العالم بثروتها ومحصولاتها وجودة تربتها

ولا يخفى على اللبيب أن أهالي كل بلدة يحافظون على أملاكهم لانهم أصحاب البلاد واذا لم تكن لهم أملاك وكانوا كالرحل لا يقيمون في بقعة من الارض عدوا البلاد غير بلادهم ولم يحتفظوا بها

فتح الفاروق هـذه الاراضي وفرقهـا على الصحابة اذ ذاك لانه عدها ملكا للحكومة وما ذلك الا لانه خاف صولة الاعـداء وشقهـم عصا الطاعة اذا صارت الاراضي ملكا لهم

و بعد كل هذا رأت الاراضي العراقيـة كثيراً من التقلبات ودخلت في حكم الاراضي الاميرية غير ان الحكومة العثمانية لم تعرها نظر الاصلاح فالاراضي الكائنة على جانبي الدجلة والفرات تمتد نحو ٢٠٠ ساعة وهي خالية من الزرع ولم نر في حكومة من الحكومات مثل هذا الاحتكار وطالما تبدلت مجاري الانهر وامتلأ بعضها بالحجـارة ولم تفكر الحكومة في اصـلاحها الامر الذي حدا بالاهـالي الى الدخول في حال البـداوة وترك الزراعة وعلى ذلك يجب النظر الى هـذه الامور لاصـلاح أراضي العراق ولذا فان مدحت باشا قد وضعها نصب عينيه وكتب الى الباب العالي طالباً قيد الاراضى باسماء أصحابها لان أراضي تلك البـلاد لاتشابه في تربتها أراضي بلاد الروميلي او أراضي الاناطول لان ارواءها متيسر بواسطة الانهر

وهي تعطى المحصول الجيد في كل عام مرة او مرتين وكان قصد مدحت باشا بيع بعض هذه الاراضي للاهالي بالاقساط

وكان أصحاب الاراضي قبل اليوم يتركونها غير مبالين بقيمتها بسبب الكوارث والثورات التي لم تخل منها البلاد يوماً من الايام

وابورات الدجلة والفرات

رأى مدحت باشا ان مسألة الاراضي هي التي يجب تقديمها على كل شيء وجعلها باكورة أعماله في العراق فظهرت محاسن نتائجها في البلاد بيد ان الرفاه والسعادة لايتمان بهذه المسألة وحدها اذ المحصول في البلاد محتاج الى النقل والناس في حاجة الى بيع ارزاقهم واستجلاب ما يحتاجون اليه من الخارج والوسائط معدومة ولا سبيل الى بيع المحصول عند وفرته واذا كان العام عام عسر تعسر على الاهالي شراء ما يلزمهم من الخارج فمسألة النقل اذاً مهمة بل هي ثانوية بعد مسألة الاراضي وطرق المواصلات متيسرة في الدجله والفرات بيد ان الانكليز قد اشتغلوا بهذه المسألة وانشأوا بعض السفن التجارية و بذلوا الجهد لتسييرها فلم يوفقوا الى بغيتهم ونهر الدجله غير صالح للملاحة من بغداد الى ما فوق ولكنه صالح منها الى البصرة وهناك شركة انكليزية قد أخذت رخصة من الحكومة بتسيير وابورين فرخصة لها وحاول نامق باشا معارضتها فجلب آلات وابورين من اوربا وصنعها فى بغداد وأراد تسييرهما فلم يوفق

وقد جرب مدحت باشا احد الوابورين لتسييره بين البصرة و بغداد وصدر له الامر من الباب العالي بصرف خمسة آلاف كيس من النقود سنوياً لترويج الامور التجارية فابلغ عدد وابورات الدجله الى ثمانية وشكل لهم ادارة مخصوصة ونظم آلات الفابريقة التي كانت قد أنشئت في بغداد و بقيت عاطلة وخصصها لتصليح هذه الوابورات

وفي هذه الاثناء انشأ قنال السويس وراجت التجارة في البصرة وكان سير الوابورات في القنال وفي البحر الاحمر يؤثر فى مركز الدولة تأثيراً مادياً وسياسياً

ولهذا فقد اشترى مدحت باشا وابوراً كبيراً دعاه بابل واثنين آخرين أحدهما (نينوا) والثاني (نجد) وزاد عليهما وابوراً آخر اسمه (آشور) وجعل سفرهم مرة كل ثلاثة أشهر عن طريق البحر الاحمر وفي القنال من بغداد الى انكلترا ولما كان الفحم يجلب من انكلترا وجب مرور هذه البواخر على عدن ومسقط و بندر بوشير وعين الموظفون من العثمانيين وأحضرت لهم الادوات اللازمة لشركات الملاحة وكانت الحكومة توجد فى مستودعات الشركة عشرة آلاف طونلاتة من الفحم بصفة دائمة

أما وابور بابل فقد صنع في انكلترا للسير بينها و بين اوستراليا وأفلست الشركة التي صنعته و بيع بالمزاد فاشتراه مدحت باشا بمبلغ ثلاثة وثلاثين ألفاً من الليرات بعد انشائه بسنتين وكان ثمنه جديداً (٨٨) ألف ليرة وصادف سفره من الاستانة موسم الحج الشريف فبلغ مجموع ما حصله من أجرة نقل الركاب (٣٥) الف ليرة وكان اسم هذه الشركة (شركة عمان العثمانية) فاشتهرت بهذا الاسم في تلك الانحاء أما الوابورات التي كانت تشتغل في النهر فكان صافي ايرادها الشهري يبلغ الالف ليره وبذا ظهرت فوائد الشركة واستفاد الاهالي منها مادياً وادبياً

ولم يكتف مدحت باشا بالطريق البحري بل عطف نظره الى الطريق البري الموصل الى بحر الروم عن طريق حلب

تطهير نهر الفرات

ذكرنا ان الانكليز قد بذلوا جهدهم لتسيير السفائن في الفرات واشتغل الكولونيل ششني بهذه المسألة زمناً طويلاً فلم يحظ بطائل وكان قد أنزل بعض الوابورات في جهة البراجيك فغرقت في نهر الفرات وعد غرقها من باب القضاء والقدر لان نهر الفرات جسيم وصالح للملاحة ولا يوجد مانع سوى في جهة بلدة (هيت) ومنها الى (عانه) وسبب ذلك انهدام بعض المباني الكائنة على ضفتيه و بقاء الاحجار في قاع النهر وقد توجه مدحت باشا بنفسه ورأى ان ازالة الاحجار ممكنة وأرسل في السنة التالية شاكر بك مهندس الولاية (شاكر باشا الآن) وأرسل معه عدداً من الخبراء لسبر غور النهر فعاد شاكر بك قائلا ان نهر الفرات مساعد على

مرور السفائن ثم أحضر بعض العمال فاشتغلوا بتطهيره مبتدئين بهيت ومجاوراتها والفرات مشهور بسرعة جريان مائه فالسفن السريعة هي التي تقدر على السير فيه ولهذا السبب فان مدحت باشا قد طلب وابوراً من نوع الوابورات التي يستعملها النمساويون فحضر الوابور بعد انفصاله من ولاية بغداد وسموه مسكنة وهو يسير لليوم بين بغداد ومسكنة

مسألة سد الجزائر

من المسائل المهمة التي تجب ملاحظتها لاصلاح بلاد العراق مسألة سد الجزائر وذلك ان نهر الفرات يفيض في كل سنة فيغرق الاراضي الكائنة على ضفتيه من جهة (منتفك) الى (قورنه) ومن البصرة الى الجهة المسماة (هور عبد الله) فيتلف الاراضي التي يبلغ طولها خمسين ساعة وكانوا قد صنعوا سدوداً لحفظ هذه الاراضي غير انهم أهملوها فانهدمت وغير النهر مجراه واحاط بالبصرة فأضر بهوائها وكانت منفعة البلاد وزراعتها تقتضي تجديد هذه السدود وهى طويلة لاتقاس بسدود (دغاره) و(هنديه) فطولها يمتد اكثر من عشرين ساعة ولا سبيل الى اصلاح هذا الرتق الا بتطهير الفرات وهو يحتاج الى (الكراكات) والعمال الذين لايقل عددهم عن مائة الف عامل يومياً وذلك لا يتم الا بهمة رجل كناصر باشا وقد أحضره مدحت باشا وحادثه في هذه المسألة وقرر الذهاب الى تلك البلاد في الصيف واحضر الكراكات والآلات اللازمة فحضر في ذاك الوقت شاه العجم الى بغداد لزيارة البقاع المقدسة واشتغل مدحت باشا ومعيته باستقباله فتأخرت مسألة السد

انشاء صندوق الامنية والمستشفى والاصلاحخانة (مكتب الصنائع) وغيرها من الملاجي النافعة

لما فرغ مدحت باشا من مشكلة التجنيد وثورة القبائل وأصلح الاراضي وانشأ السفن وطهر نهر الفرات وحفر جهة (الكنعانية) وخفف ويلات الاهالي التي سببها القحط في السنتين الاخيرتين ورتب الولاية طبقاً للقانون الجديد ثم وضع نظاماً

للتحصيل وانشأ البلديات ولم يكتف بكل ذلك بل احدث صندوقاً للتوفير كصندوق الاستانة وانشأ مكتباً للصنائع كالمكاتب التي أنشأها في بقية الولايات وأسس جريدة باسم الزوراء وجلب لها مطبعة وجعل المطبعة تابعة لمكتب الصنائع وانشأ مستشفى للغرباء وقد بذل ناصر الدين شاه (ملك العجم) الفين من الليرات لاعانة المستشفى ومكتب الصنائع

جنينة البلدية مكنة الماء فابريقة الغاز وفابريقة الارز

من اثار مدحت باشا جنينة البلدية وانشاء جسر (كبري) الدجله الكبير وانشاء فابريقة لتنظيف الارز وجلب المكنات البخارية لرفع المياه واحضار آلة لتصفية معدن البترول الموجود بجهة (مندلى) واضاءة القرى والبلدان بمصابيح البترول

ترام الكاظمية

احدث مدحت باشا في السنة الثانية ترام الكاظمية لان البلدة تبعد عن بغداد ساعة ونصف ساعة وأهلها يشتغلون بالتجارة والصناعة في بغداد وهم يركبون الحمير في ذهابهم ومجيئهم وقد أحصى مدحت باشا عدد الذين يحضرون يومياً الى بغداد فثبت له ان عددهم كاف لانشاء ترام فانشأه لتسهيل المواصلات واظهار آثار المدنية لاهل بغداد وكان طوله سبع كيلو مترات وجعله شركة مركبة من ستة آلاف سهم كل سهم بليرتين ونصف ليره وأحضر أدواته وعرباته من لندره واتم انشاءه في سنة فبدأ بنقل الركاب في ختام تلك السنة

وقد بلغت نفقات عربات الترام ولوازمه وخيوله (١٨) الف ليره وبقي على رجال الشركة دين يبلغ ستة آلاف ليره ولكن أرباحه كانت تربو على عشرين في المائة ولذلك فان أرباب السهوم قد سددوا ديونهم من صافي الايراد

المكنات المشترات لنسج ملابس العساكر وأعمال الدقيق

كان مدحت باشا يريد صنع ما يلزم لافراد الفيلق السادس من الملابس الاحذية في بغداد وبالفعل توفق الى ذلك فكان لايجلب سوي الطرابيش من

خارج بغداد وكان نامق باشا قد أحضر آلة لطحن الحبوب فلم تأت بالفائدة المطلوبة بل صاروا يحضرون الدقيق بواسطة الطواحين اليدوية الامر الذي لم يشاهده احد في بلاد متمدنة وكان عدد الفيلق سبعة آلاف فبلغ العشرة آلاف بعد احداث القرعة العسكريه ولم يبق ثم مجال لاحضار الدقيق لهذا العدد بماكنات اليد فأوصى مدحت باشا احدى الفابريقات الاوربية بصنع ماكنة بقوة سبعين حصاناً لاعمال الدقيق وغيرها لاعمال الجوخ والقماش وأرسل أحد المهندسين لهذه الغاية

وصادفت الحرب الافرنسية الالمانية فلم تحضر هذه الماكنات من فرنسا وانفصل مدحت باشا عن بغداد و بعد هنيهة أرسلت الماكنات وأخرجت بالبصرة فلم ينظر اليها احد بل بقيت في الرمل تحت الشمس والمطر ولم تنتفع بها الحكومة ولا الامة ويقول بعضهم ان حسين فوزي باشا قد اخرجها من الرمل بعد زمن و بني لها المكان اللازم واستعملها للغاية التي جلبت لها وهو قول يحتاج الى الاثبات

حضور شاه ايران الى بغداد

في سنة (٨٦) حضر شاه ايران الى بغداد فقوبل بالحفاوة والاكرام وصحبه مدحت باشا كما اقتضت ذلك ارادة السلطان عبد العزيز وكانت السنة سنة قحط وغلاء فاضطرت الحكومة الى اطعام رجال معية الشاه الذين حضروا معه وكان عددهم يتجاوز العشرة آلاف واحضرت ايضاً علف دوابهم وفرشت للشاه قصراً فبلغت كل هذه النفقات (٣٠) ألف ليره ولا يفوتن القارئ ان الشاه قد أقام بهذا العدد من الرجال ثلاثة شهور في بغداد وضواحيها

مسألة العملة الايرانية

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة الشاه هو ووزراؤه وحل الحوادث المختلف فيها بين بغداد وحكومة العجم من قديم فمن تلك الحوادث النقود العجمية المتداولة في بغداد كالقران الذي يساوي ثلاثة غروش ونصف غرش في بلاد العجم وأهالي بغداد يتعاملون به بخمسة قروش فبعد الاخذ والرد بين الوزراء قرروا تنزيله الى ثلاثة قروش وربع قرش

وقرروا أيضاً نقل الاموات الذين يموتون في ايران ويريد ذووهم دفنهم في الاماكن المقدسة بعد سنة من تاريخ موتهم لان نقلهم في أسبوع الوفاة ينتج اضراراً وخيمة بسبب الروائح الكريهة

دفائن النجف

ومن هذه المسائل الذخائر الثمينة التي كان يهديها الهنود والايرانيون الى مدافن شهداء النجف من قديم فان هذه التحف قد دفنت في مغارة منذ (٨٠) سنة يوم هجوم الوهابيين فاخرجها مدحت باشا بحضور شاه العجم ووجدان المصاحف وغيرها من الكتب القديمة قد حل بها البوار أما اليواقيت والجواهر فقد بقيت على حالها وهي تساوي ما يربو على الثلاثمائة الف ليره واقترح مدحت باشا اقتراحاً وهو بيع هذه المجوهرات وانشاء خط حديدي من النجف الى ايران لتسهيل طريق الحجاج فلم يوافق العلماء فاعاد مدحت باشا هذه الاشياء الى مدفنها وختم بابه هو ورفاقه وزراء ايران

مسألة هموند

وحادث مدحت باشا في هذه الزيارة وزراء ايران عن قبيلة هموند تلك القبيلة المتوحشة التي تشتغل بالقتل والغارة والسلب فاذا حاولت الحكومة العثمانية ارجاعها الى الرشد والصواب لجأت الى البلاد الايرانية فلم يوفق الى حسم هذه المسألة واضطرت الحكومة الى استعمال السلاح لحفظ التخوم العثمانية من شر افراد هذه القبيلة بالقوة

الغاء طريقة الخرص من البصرة وتحويل الضرائب الى مقدار الاراضي

كانت الحكومة تحصل الاموال الاميرية من أهالي البصرة أرباب النخيل بالتخمين وهذه الطريقة تضر الاهالي وتضر خزينة الحكومة معاً لاسيما وان المحصول الوحيد في تلك الولاية هو التمر وقد اشتهر المخمنون بدسائسهم وارتكاباتهم وكان مدحت باشا قد توجه بنفسه الى البصرة بعد مسألة دغاره وعلم ان مسألة التخمين هي ظلم صريح لان مال الخزينة ومال الاهالي يكون بين شفتي المخمن

وقد جمع مدحت باشا زعماء العشائر وتذاكر معهم في هذه المسألة وأخيراً اتضح له ان هـذه القاعدة قد وضعت بعد زمن عمر بن الخطاب و بعد الاخذ والرد قرروا بالاتفاق تقسيم هذه الضريبة على المقدار المزروع من النخيل

نقل البصرة الى ساحل شط العرب

اشتهرت مدينة البصرة بهوائها الرديء وكانت على نهر يقال له نهر عشار وهو متشعب من شط العرب وكانت كثرة الاشجار والمستنقعات تجعل هواءها غير صالح للاستنشاق اما أهلها فمشتغلون بالتجارة وعليه فشط العرب أحسن موقعاً لهذه المدينة وكانت الحكومة قد قررت بناء مقر لها غير البيت الذي كان مستأجراً ولهذه الاسباب أمر مدحت باشا ببناء بيت الحكومة على شط العرب و بنى بعض التجار بيوتاً حوله

تأسيس بلدة الناصريه

تحول سنجاق المنتفك الى متصرفية وا كثر اهاليه من سكان الخيام الرحل وليس فيه من القرى سوى قرية صغيرة تدعى بسوق الشيوخ وقد تداعت بيوتها للخراب ولا سبيل الى تعميرها ولهذا السبب فان مدحت باشا قرر انشاء قرية على شاطئ الفرات مجاورة لتلك الانحاء وحادث ناصر باشا في شأن انشائها فتعهد ناصر باشا بصرف ما يلزم لتأسيس مكان للحكومة في القرية الجديدة وثكنة للعساكر وجامع ومكتب من جيبه الخاص فأنشأ مدحت باشا تلك القرية و بنى بعض الناس البيوت والدكاكين وسماها الناصريه وهي لليوم مقر حكومة متصرفية (منتفك)

الحاق الكويت بالبصرة بعد جعلها تابعة للدولة العثمانية

تبعد الكويت عن البصرة (٦٠) ميلا في البحر وهى كائنة على الساحل بالقرب من نجد واهلها كلهم مسلمون وعدد بيوتها (٦٠٠٠) وليست بتابعة لاية حكومة وكان الوالي السابق نامق باشا يريد الحاقها بالبصرة فأبى أهلها لانهم قد اعتادوا عدم الاذعان للتكاليف والخضوع للحكومات فبقي القديم على قدمه

ونسل هؤلاء العرب من الحجاز وكانوا قبل (٥٠٠) سنة قد حضروا الى هذه

البقعة هم وجماعة من قبيلة المطير وواضع اول حجر في تلك البلدة رجل اسمه صباح وقد كثر عدد أهلها على تمادي الايام وشيخها اليوم اسمه عبد الله بن الصباح وهو من هذه القبيلة

والاهالي هناك شوافع وهم يديرون أمورهم معتمدين على الشرع الشريف وحاكمهم وقاضيهم منهم فهم يعيشون شبه جمهورية وموقعهم مساعد على الاحتفاظ بحالتهم الحاضرة

وهم لا يشتغلون بالزراعة بل بالتجارة البحرية وعندهم الفان من المراكب التجارية الكبيرة والصغيرة فهم يشتغلون بصيد اللؤلؤ في البحرين وفي عمان وتسافر سفائنهم الكبيرة الى الهند وزنجبار للتجارة

وقد رفعوا فوق مراكبهم التجارية راية مخصوصة بهم واستعملوها زمناً طويلاً غير ان خوفهم من غارة الاجانب عليهم قد حدا بهم الى رفع الرايات الاجنبية فرفع بعضهم راية الفلمنك وآخرون راية الانكليز واعتادوا على هذه العادات بالتدريج و بدأت مقدمات الحماية الاجنبية تظهر فيهم وقبولهم الحماية الاجنبية يعد ضربة قاضية على استقلال البصرة ولهذا السبب فقد دعاهم مدحت باشا واعفاهم من الرسوم الجمركية وغيرها من التكاليف الاميرية فوافقوا على قبول حماية الدولة العلية ولذا فقد جعلهم تابعين لولاية البصرة ودعا عبد الله بن الصباح بقائمقام الكويت وابقاه كما كان وابقى غيره من الموظفين أيضاً ولم يغير شكل حكومتهم بل احضر لهم من الاستانة البرآءات الرسميــة وما يثبت اتباعهم للدولة العثمانية وأمر بالرايات الاجنبية فأنزلت عن سفائنهم وحلت محلها الراية العثمانية

احوال نجد

انتهت مسألة الكويت القريبة من نجد غير ان نجدا لم تزل في حالة سيئة من اختلال أمن وسوء ادارة وهي متصلة تمام الاتصال بالكويت والناظر اليها من بعيد بعين الحذر يرى انها ستصل يوما ما الى ما وصلت اليه عدن وعمان ومسقط وقد نظر مدحت باشا الى هذه المسألة بعين المعتبر وفي العام الثالث من وصوله

ارسل الى نجد مقدارا من الجنود وامر باحتلال الحسا ولا بد لنا من شرح هذه المسألة لما لها من الاهمية

ان قطعة نجد هي خمس جزيرة العرب وفي زمن السلطان سليمان الكبير بعد ان فارق البورتقاليون البلاد التي احتلوها في خليج العجم ارسل السلطان الى نجد والحسا وجزيرة البحرين والياً عثمانيا و بقيت هذه البلاد تحت ادارة الدولة زمناً طويلاً ولكن الوهابيين تغلبوا عليها قبل توجه مدحت باشا بمصر و بقي النفوذ فيها لابناء سعود واستقلت حكومة البحرين ودخلت تحت حماية الاجانب

ولما كبر امر الوهابيين وظهر منهم ما ظهر ارسلت القوى العسكرية من مصر وعادت قطعة رياضي والحسا ودرعية نوعا ما الى حوزة الدولة وانسحبت العساكر المصرية من هناك واشتغلت الدولة العثمانية بغوائلها الداخلية وصرفت النظر عن تلك البلاد فعادت الى قبضة الوهابيين

وكان ابن سعود المدعو عبد الله الفصيل من قبيلة الوهابيين ولكنه لم يحذو حذو اسلافه في نشر مذهبه ولا عاكس الدولة العلية وكان معتدلا في اعماله اما احد اخوته المسمى سعود فكان يسعى في اغتصاب الامارة من اخيه ولذا فانه توجه الى الهند للاستعانة بالانكليز وألب العشائر وحثهم على شق عصا الطاعة في وجه اخيه وفي سنة ٨٦ جبه اخاه بالعصيان و بعد حرب طويلة انتصر عليه واستولى على الحسا ثم احتلت عساكره قلاع (هفوف) و (المبرز) و (القطيف) وتقدم الى بلدة (الرياضي) وهي مقر الحكومة (اي الامارة) فبقي عبد الله بلا معين ولا نصير ولم ير لنفسه ملجأ سوى الاستعانة بالمرحوم مدحت باشا وارسل له مكتو با مع رسول وكان سعود اقدر من اخيه على ادارة البلاد وله حزم وتجارب ولذا فان اغاثة اخيه لاتتم بارسال عدد من الجنود بل تحتم ارسال حملة كبيرة وحالة الحكومة المالية والادبية لاتساعد على القيام بمثل هذه الاعمال لاسيما وان الباب العالى لايأذن لمدحت باشا باجراء مطالبه اذا هم بتحقيقها فرأى من الواجب السكوت وانتهاز الفرصة الملائمة

وكان سياح الانكليز يكثرون التردد على نجـد ويكتبون عنهـا المقالات الطويلة اما الثورة في داخل البلاد فكانت مستمرة ومن عوائد الانكليز التقرب من امراء العرب واستمالتهم وترك بلادهم على حالها وحمايتهم باسم الانسانية لحفظ وطنهم من الغارات وابتلاع البلاد بعد تدريب اهلها على الخضوع للعلم الانكليزى ومخادعة الاهالي تارة بالمال وطورا بالهدايا وغير ذلك الامر الذي يحذو الى الشك والارتياب في امر نجد

جرى الانكليز على هـذا النحو فى بلاد مسقط ومكلا وعمان وحضرموت وفي جزيرة البحرين ووضعوا كل هذه البلاد تحت حمايتهم بهذه الطريقة وكانت بعضها تابعة للدولة العثمانية وكان مشايخ تلك القبائل يديرون بلادهم كما شاؤا وشاءت اهواؤهم ولكن القول الفصل في الامور الهامة فيها للانكليز والاعجب من هـذا وذاك ان القتل والغـارة والنهب والسلب وتطاحن القبائل انقطع ولم يبق للشقاق أثر بعد دخول تلك البـلاد تحت حماية الانكليز ومتى رأى عربان نجد وشيخهم الذى هو من صنائع انكلترا هذه الحالة مال بالطبع الى الحماية الانكليزية

كان الانكليز يعاونون الامير سعود بالمال والعدة وكانت البلاد القريبة من نجد قد دخلت تحت حمايتهم واذا حكم سعود على النجديين ادخل البلاد تحت حمـاية انكلترا وصارت صاحبـة الحول والطول في العراق بسبب ما تملكه من الاراضي الجسيمة ولذا فان مدحت باشا كتب الى الباب العالي وشرح له هـذه المسألة الحيوية

منع الوهابيون اهالي بغداد عن نجد وقاطعوهم في مدة حكمهم فلم يرسلوا سلع تجارهم الى بغداد ولم يبق لهذا السبب في المدينة من الاهالي ولا من الموظفين من يعرف نجداً وأهلها وعوائدهم ولا يمكن ارسال مقدار من الجند الى بلاد مجهولة قبل الوقوف على قوة أهلها وعددهم ومواقعهـم ولذا فان مدحت باشا قد احضر بعض الموظفين واشترى لهم سلعاً وارسلهم على وابور آشور الى نجد في زي تجار فذهبوا واقاموا هناك شهرين ووقفوا على قوة سعود الحربيـة وقلاعه وعدد رجاله وعرفوا

الاماكن التي يمكن التقرب منها بالسفن الكبيرة واخراج العساكر وكان عالي باشا الصدر الاعظم قد وضع المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء وطلب من مدحت باشا عدم اكبار الامر وتوسيع الخرق فأعطاه التأمينات اللازمة وعليه ارسلت الحكومة المركزية وابوري لبنان واسكندرية من الطوبخانة وأمرت ألاياً من مشاة الفليق الخامس بالسير الى بغداد ليحل محل عساكر فيلقها الذين سيتوجهون الى نجد طبقاً لاشارة مدحت باشا

ان الحسا هي اكبر بلدة في نجد ولها على الساحل بلدة تابعة لها تسمى (القطيف) وهناك قلاع مبنية على الطراز القديم وفي الداخل بلدتان محاطتان بالاسوار يقال لاحداهن (الهفوف) وللثانية (المبرز) وهناك قرى مختلفة وحول البلاد عشائر وقبائل يسكنون بيوت الشعر ولا توجد هناك مرافئ تمكن السفن الكبيرة من الدنو بيد انه توجد جهة تدعى برأس التنور صالحه لرسو السفن كما استدل من تقارير الموظفين الذين توجهوا بزي تجار

والتاريخ يثبت لنا ان الحكومة العثمانية حاولت مرة ارسال قوة لاخضاع عبد العزيز سعود الوهابى احد حكام نجد من بغداد وكان الوالي اذ ذاك سليمان باشا الكبير وكان ارسال القوة عن طريق البر فقابل العربان جيش الحكومة والجاؤه الى الفرار واخذوا منه مقداراً من المدافع واعادوه بخفى حنين

وموقف البلاد السياسى لايساعد على الاعمال الحربية الكبيرة وموقعها الجغرافي ايضاً يحول بين الحكومة و بين مثل تلك الاعمال ولكن اسكلة القطيف تبعد عن البصرة بثلاثمائة وستين ميلا وعلى ذلك فارسال المهمات العسكرية سهل مع ان القلاع محتوية على بعض المدافع القديمة الباقية من زمن الوهابيين وعساكر امير نجد غير مدربين على الاعمال الحربية وليس بيدهم من الاسلحة الجديدة ما يستحق الذكر

وقد ارسلت الحكومة اول قافلة من الفيلق السادس سنة ٨٧ وهى مركبة من خمسة طوابير من المشاة مع بعض الفرسان ورجال المدفعية تحت قيادة نافذ باشا

الذي اخذ معه منصور باشا وغادر مع الحملة البصرة وتوجه مع الجنود جماعة من اهالي الكويت التابعين لولاية البصرة كمتطوعين للاعانة على نقل مرافق الجيش ومؤنه وخصص مدحت باشا للحملة ثمانين سفينة بين صغيرة وكبيرة لنقل اللوازم الحربية وكانت هذه السفائن تابعة لعبد الله الصباح المسلوب الامارة و بقيت تخدم الحكومة بلا اجرة الى يوم انتهاء المشكلة

توجهت الحملة تواً الى رأس التنور وتحركت متوجهة الى القطيف فتحصن اعوان سعود بالقلعة وعبثاً حاولوا الدفاع فقد تفرقوا ايدى سبا بعد رمي القلعة بمدفعين وفتح العساكر البلاد بلا حرب ولا مشقة وضبطوا القلاع الموجودة في طول البلاد وعرضها وتحركت الحملة من القطيف متوجهة الى هفوف ومبرز وقبل وصولها اليها فرسعود مع اعوانه فاستولى عليها رجال الحملة بلا حرب ولا كفاح

انتهت مسألة نجد على هذا النحو من الوجهة العسكرية ولكن بقاء سعود في تلك الانحاء يهدد أمن البلاد اذا لم تكن فيها حكومة مؤسسة على قواعد متينة ولذا فان مدحت باشا عزم على التوجه الى نجد بنفسه و بينا هو يتهيأ للسفر ظهرت حادثة شمر

حادثة شمر

خلا لشيخ قبيلة شمر ولافرادها الجو فكانوا يغيرون على البلاد الكائنة في حدود ولايات حلب والموصل وديار بكر وقادهم شيخهم مراراً الى القرب من بغداد ولما بلغه خبر توجه العساكر العثمانية الى نجد توهم ان البلاد أصبحت خالية من القوة فجمع من عشيرته ثلاثين ألفاً وهاجم مدن (اورفه) و (سورك) وغيرها من البلدان التابعة لولاية الموصل ونهب القرى وسبى النساء والذراري وقتل خلقاً كثيراً وفي شهر تموز بلغ مدحت باشا خبر توجهه الى مدينة بغداد وكان على اهبة السفر الى نجد فأخر سفره

اصابت شقاوة عبد الكريم شيخ قبيلة شمر البلاد بمصائب واهلكت الحرث والنسل وكانت ولاية ديار بكر قد اصيبت شر مصيبة بسبب حملاته ونهبه وسلبه

وكان واليها في ذاك الوقت (قورت اسماعيل باشا) فجمع جموعه وعزم على اقتفاء اثر عبد الكريم واعوانه بيد انه قد تربص لينظر ما سيكون من امر مدحت باشا ولما كتب له تحرك من الموصل في طابورين من العساكر وقامت من بغداد ثلة من الجنود تحت قيادة الفريق اشرف باشا وانتظر الجنود العدو على ساحلي دجلة والفرات واتخذت الحكومة التدابير اللازمة بقرب (دير الزور)

أما الاشقياء فقد اقترب قسم منهم من دير الزور وتوجهت منهم جماعة الى بغداد اما الذين توجهوا الى دير الزور فقد قابلهم هناك الاكراد فانهزموا شر هزيمة وتوجهت طائفة الى جهة (شراق) القريبة من الموصل فأفناها اسماعيل باشا ولما رأى الذين توجهوا الى بغداد عساكر الحكومة رجعوا ادراجهم وطلبوا الماء فلم يوفقوا للوصول اليه فقصدوا الآبار ووجدوها خالية من الماء فمات اكثرهم عطشا

وفي هذه الاثناء عاد عبد الكريم مع اعوانه وعددهم يبلغ الألفين فارًّا الى جبل شمر مقر اجداده فكتب مدحت باشا الى ابن الرشيد رسالة شديدة اللهجة فطرده ابن الرشيد وكان كلما توجه الى جهة كربلاء والحلة رأى الجنود أمامه وفي الختام عزم على الالتحاق بعربان نجد ودخل الى حدود متصرفية المنتفك فقبض عليه ناصر باشا وسلمه الى بغداد مجروحا ولا يذكر احد ما قدمه ناصر باشا من الخدم للدولة في هذه المسألة

جرت محاكمة عبد الكريم بصورة علنية في مجلس التمييز ببغداد وصدر عليه الحكم بالاعدام ولما كان من اصحاب الرتب ارسلت صورة الحكم الى الباب العالي وكان في النية ارساله الى دار السعادة وارسل وبينما هو في طريقه بالقرب من الموصل وصل امر اعدامه الى بغداد فاعيد واعدم شنقا

ولعبد الكريم اخ لافرق بينه وبين عبد الكريم في الشقاوة وقد قضى عليه في الحادث اما اخوه الكبير المدعو فرحات باشا فقد قرأ في دار السعادة وتربى تربية حسنة وقد اجتمعت حوله بقايا القبيلة فاصدر لهم مدحت باشا امراً بالاقامة في الاراضي الكائنة بالقرب من الموصل وامرهم بزراعتها ونصب فرحات باشا

رئيسا عليهم وخصص له عشرين الف غرش مرتبا يأخذه من الاعشار المتكونة من الاراضي المعطاة لافراد القبيلة فزرعوا مقدارا كبيرا من الاراضي واستفادت الحكومة من الاعشار ولكن دار السعادة قد قطعت مرتب فرحات باشا كما سيجيء فتفرق افراد العشيرة شذر مذر وعادوا الى سابق عهدهم وانضم اليهم العربان وكثر القتل والنهب في تلك الانحاء

توجه مدحت باشا الى نجد ونجاحه

انتهت مسألة شمر على هـذا الشكل وجاء دور مسألة نجد وكان مدحت باشا قد ابان لنافذ باشا قائد الجنـد الغرض من ارسال الحملة الى نجد قائلا اننا لانقصد الاستيلاء على نجد بل نريد توثيق الروابط الكائنة بين تلك البـلاد و بين الدولة بابقاء سيادة الحكومة العثمانية على تلك الامارة ونريد توطيد دعائم الأمن في الحال والاستقبال بقطع اعمال سعود الدوانية وعليـه فسنولى عبد الله الفيصل شيخ نجد متصرفية تلك البـلاد ونعطيه ثلاثين الف غرش شهريا ونحكم ادارة البلاد المالية والادارية وقد ارسلت الى تلك البلاد قوة من رجال الضابطة وارسل اليهـا نائب شرع ومأمور مالية كما ارسل الى متصرفية المنتفك ودعي عبـد الله فيصل الى نجد ولقب بلقب متصرف واجرى عليه المرتب ولكنه قد اعتاد الحكم المطلق عن آبائه واجداده وكان طريد اخيه فلما تخلص منه طمحت عينه الى القديم وكان جل مقصده الاستقلال واعادة موظفي الحكومة العثمانية

اما قوة السعود فقـد تفرقت ولكن رجاله ينتهزون الفرصة و يؤليون جموعهم للهجوم على (الحسا) واهالي تلك الجهات لايذعنون لحكومة ولا يعطون جزية ولا نقودا كما هي الحال في عدن وفي البلاد الكائنة تحت سيطرة الانكليز وكان مدحت باشا قد زود قائد الحملة بتعليمات تقضى عدم اخذ شيء من الضرائب سوى الاعشار والزكاة لان الاهالي هناك يظنون ان الحكومة تنوي تجنيدهم اذا احدثت ضرائب وكانت جزيرة البحرين داخلة تحت حماية الانكليز فلمـا اعلن سعود العصيان في تلك الانحاء اخذ البعض يقولون ان البلاد تحت حماية الانكليز مع خلوهامن الزراعة

كل هذه الاسباب حدت بمدحت باشا الى التوجه بنفسه فتوجه في شهر ايلول من تلك السنة وفي هذه الاثناء فر عبد الله الفيصل من الحسا بغتة وتوجه الى جهة الرياض فزار مدحت باشا سواحل القطيف وجزيرتي ناروت وداربن ووصل الى هفوف ومن هناك ارسل الى عبد الله الفيصل مكاتيب ورسلا فلم يلب طلبه واضاع حقه بما ابداه من الجبن ولذا فقـد عين مدحت باشا القومندان نافذ باشا متصرفا على الحسا والقرى التابعة لها وارسل الموظفين الملكيين لاجراء اللازم واعمار تلك البلاد

وفي هـذه الاثناء جمع اعوان سعود جموعهم وهم ثمانيـة آلاف وهجموا على الحسا ولكنهم ردوا على اعقابهم اذ ارسل لهم اللواء حمدي باشا طابورين من العساكر فمزقوا جموعهم ولم يبق لسعود أثر وجرت المخابرة بين مدحت باشا وبين حاكم الهند عن (القطر) المدعي انها تابعة للانكليز وانتهت المسألة بابقاء تلك البقعة تحت حكم الدولة العلية ورفعت فوقها الاعلام العثمانية وانزلت الاعلام الانكليزية

ان بلدتي (هفوف) و (مبرز) كائنتان على ساحل البحر اذ تبعدان عن القطيف اثنتين وعشرين ساعة وعن نجـد ١٥ ساعة وبينهما وبين نجد رمال غير ان في مكانهما منبع انهر يبلغ عددها سبعة بين صغير وكبير وفي اطراف البلدتين خمسون قرية مملوءة بالبساتين والمزارع ويكثر هناك محصول الأرز والتمر وهما ثروة الاهالي الوحيدة وفي توابع (الحسا) ٢٨ قبيلة تسكن بيوت الشعر وثروتها الوحيدة الابل والغنم وطعامها التمر والأرز وهي تشتريه من الحسا بالحيوانات عوضا عن النقود

وكل اهالي تلك البـلاد في القرى وفي بيوت الشعر يدينون بدين الاسلام ومذاهبهم خمسـة وقد ترك الحنابلة مذهبهـم واتبعوا مذهب الوهابيين وقويت شوكتهم في البلاد واستولوا على كل شيء ولما دخلت (الحسا) في قبضة الحكومة عاد اليهـا اصحاب بقيـة المذاهب وكانوا قد فارقوها فرارا من ظلم رجال المذهب الوهابي واكثر العشائر في تلك الانحاء على المذهب الوهابي

اعلن مدحت باشا بصفة رسـمية ان الاهالي لايؤدون الى الحكومة سوى

الزكاة والعشر الشرعي فجمع عمال الحكومة الاعشار بكل سهولة اما اصحاب الحيوانات فهم سكان الوبر و بعدهم عن مركز الحكومة يجعل جباية الزكاة متعذرة فقررت الحكومة اخذ ريال عن حمل كل بعير يرد الى القرى ووافق المشايخ على هذا القرار وانفض المشكل

وجهت الفرقة العسكرية الى تلك البلاد سنة ٨٧ هجرية المصادفة لما قبل مارس الرومي فاعتبرت الجباية من ذاك التاريخ ومع ان الاحكام كانت جارية على غير المطلوب فان واردات الحكومة هناك قد بلغت في سبعة اشهر ثلاثين مليونا وسبعماية الف من القروش واذا تمت الاصلاحات وزادت ثروة الاهالي واستتب الامن زاد ايراد الحكومة بلا شك

لايأكل اهالي تلك البلاد القمح ولا الذرة ولا الشعير وطعامهم الوحيد التمر حتى حيواناتهم لا تأكل غير التمر فالاهالي هناك لايعرفون زراعة هذه الحبوب والعساكر يحتاجون الى الخبز ولذا فقد زرعوا مقدارا من الاراضي وقلدهم الاهلون فزرعوا مثلهم واعيدت الاراضي التي اغتصبها الوهابيون الى الحكومة فزرعها الاهالي وانتفعت منها مالية الحكومة في العام التالي

وكان الوهابيون قد هدموا القبور واخذوا يدفنون الموتى في البساتين فاعادت الحكومة انشاء المقابر واباحت السعوط وشرب الدخان وكان الوهابيون يمنعون تعاطيهما وهدم الوهابيون الجوامع فاعادها قائد الحملة بأمر مدحت باشا

والخلاصة فقد اقام مدحت باشا هناك اربعين يوما بدأ في اثنائهما بعمل مايلزم لبقاء الحكومة وامر الموظفين باتمام ما بدأ به ثم عاد الى القطيف

فارق مدحت باشا بغداد وفي نيته التوجه الى نجد ثم الى البحرين وعليه فقد ركب وابور بابل واستصحب وابوري اسكندريه ولبنان ولاحظ ان الكولونل (بلى) قومندان فرقة خليج العجم الانكليزي يتبعه ومعه اربع وابورات انكليزية اينما توجه فعدل عن الذهاب الى البحرين وارسل قومندان فرقة البصرة البحرية عارف بك الى البحرين لبناء ما يلزم من مستودعات الفحم اللازم للسفن العثمانية

ومعاينة منابع المياه وغير ذلك من الضروريات

توجه عارف بك الى البحرين وقابل شيخها فاظهر له الحفاوة وفرح اذ رأى سفينتين عثمانيتين قائلا اننا لم نر مذ قرنين سفينة عثمانية في هذا البحر ثم تبرع بما يلزم من الاراضي لبناء مستودع للفحم اللازم للسفن العثمانية وقدم حجة بتلك الاراضي وطلب اهالي الجزيرة اخراج العساكر العثمانية طائفة بعد طائفة وقدموا لهم الاطعمة اللذيذة وانواع التحف و بعد معرفة مياه البحرين كان مدحت باشا قد عاد من (هفوف) فاستصحب تلك السفن وتوجه بها الى الكويت التي الحقت بالبصرة مذ سنتين قلنا في غير هذا المكان ان الكويت كائنة على ساحل البحر وعدد منازلها يبلغ ستة آلاف واهلها محرومون من المعارف يدل ظاهرهم على الهمجية ولكنهم كالعائلة الواحدة تضامنا واحكامهم تجري على ما يقتضيه الشرع ولذا فانك لاترى بينهم سوء الأخلاق والامن قائم فيها على اساس متين فهي غير محتاجة الى نفر من انفار الضابطة ويأتي اليها اهل هولاندا واهل ايران للتجارة وهم يعرفون اخلاق الاهالي وعوائدهم فالبلدة غير محتاجة الى قوة لحفظ الأمن ويديرها قائمقام وقاضي وازقتها نظيفة نقية و بيوتها منتظمة واهلها يذهبون الى اوربا للتجاره فيتعلمون من الافرنج عاداتهم التي لاتغاير آداب الدين وليس عندهم تعصب أعمى وكان القاضي المقيم في تلك البلدة يحكم بين الناس بالقسط وله على تلك الحالة (٤٥) سنة وهو لا يأخذ في نظير عمله اجراً وقد ارضى الكبير والصغير فرأى مدحت باشا ان البلدة غير محتاجة الى عمل وغادرها عائداً الى البصرة

وكانت الحكومة قد ارسلت قبل حفر ترعة السويس بخمس سنين وابوري (بروسه) و (ازمير) عن طريق رأس الرجا الصالح وكان الوابوران قد تحطما ولزم اصلاحها فأرسل الوابور (ازمير) الى دار السعادة اما الوابور (بروسه) فبقي هناك لانه في حالة لاتساعد على نقله الى بلاد بعيدة فارسله مدحت باشا الى بومباي وجدد كل آلاته وصرف عليه عشرة آلاف من الليرات وزد عليه ان الوابورين لبنان واسكندريه قد احضرا من الاستانة وكانت السفن المخصصة للتجارة (بابل)

و (نينوا) و (نجد) و (آثور) فالحقت السفائن السالفة الذكر بهذه الاربع و بلغ عدد وابورات النهرين (الدجلة والفرات) عشرة وبهـذا الاعتبار صارت سفن البصرة ذات عدد يذكر ولا سبيل الى اعالتها الا بايجاد حوض لاصلاحها وانشاء الحوض غير ممكن بيـد ان المد والجزر في شط العرب يساعدان على انشاء حوض فبدئ بحفر الحوض في جهة كوت الفرنج وتقرر نقل البصرة الى شط العرب واجراء ما يلزم لهـذا النقل وعاد مدحت باشا الى بغداد وكتب له السلطان يشكره على اجرآته الاصلاحية وارسل اليـه عالي باشا الصدر الاعظم مكتوبا بخط يده قال له فيه ان نجدا ستكون جنة تجري من تحتها الانهار كمصر بهمتكم في زمن قريب وارسل السلطان عبد العزيز الى مدحت باشا سيفا مرصعا اقرارا بمـا اجراه من الاعمال الاصلاحية في نجد ومجاوراتها

انتهت مسألة نجد في مدة سنة وكانت العساكر ترسل بانتظام ولم تزد مصاريف تلك الحملة عن خمسة آلاف من الليرات وكانت ايرادات تلك البلاد تكفي مرتبات الموظفين والعساكر والضباط ويبقى منها جانب لخزينة الحكومة ولكن الذين خلفوا مدحت باشا من المشيرين العظماء اعادوا الجنود الى بغداد واقاموا مقامهم طائفة من الاكراد والعربان وارسلوا اليها رجلا من اشراف الاهالي لا يعرف قوانين الحكومة ولا نظاماتها اسمه عبـد الرحمن وكانت الحـكومة قد وعدت الاهالي باعفائهم من كل شيء عدا الزكاة والاعشار فاراد المشيرون الاكثار من الايراد ووضعوا الضرائب واحدثوا رسوما جمركية فقام الاهالي قومة رجل واحـد وطردوا موظفي الحكومة وقتلوا منهم عددا غير قليل وكانوا قبلهـا قد لبوا طلب الحكومة صاغرين فخابت الآمال والتوت الامور

ارسلت الحكومة بعد هـذه الحادثة ناصر باشا متصرف المنتفك واطفأت نار الفتنة وعزمت الاستانة على ارسال متصرف وحاكم جديدين فلم توفق الى بغيتهـا لان العشائر قد حكمت على الحكومة بسوء الادارة وخلف المواعيد

سد الجزائر

ذكرنا تأخر سد الجزائر بسبب زيارة شاه العجم ثم ظهرت مسألة نجد وشمر فتأخر ايضا ولما انفضت هذه المشاكل وجه مدحت باشا عنايته الى امر السد ولا يمكن البدء بهذه الاعمال الا في فصل الصيف اما تطهير نهر الفرات واتمام الجداول التي لم يتم حفرها فكانت فيها الاعمال سائرة بسرعة وكانت تلك الجداول تروي قسما من اراضي العراق فردمها بعض الولاة وكثرت شكايات الاهلين من جراء ردمها و بقيت مزارعهم بعيدة عن الماء وكان مدحت باشا قد باشر حفر تلك الجداول من سنتين بعد اخذ رأي المهندسين والزراع واتم بعضها فزرع الاهالي مزارعهم بسبب قرب المياه ثم اشتغل بهذه المسألة المهمة

تزييف اعمال مدحت باشا في استامبول واستعفاؤه

يعلم قراء التواريخ ان الانسان مهما بالغ في خدمة ابناء جنسه يجد من يزيف اعماله وقد فشت تلك العادة في بلادنا بسبب الجهل والغباوة فلا حاجة بنا الى اثبات هذه النظرية

ومن هذا القبيل ما اشاعه اعداء مدحت قائلين انه افرغ خزائن الاستانة بشراء الوابورات واعمار الاراضي وحفر الانهر وكان الذين يروجون تلك الاشاعات من اعداء مدحت باشا وحساده واراضي العراق هي اكبر من اراضي القطر المصري واذا أثرى اهلها أثرت الحكومة وطالما اسف الناس على خرابها وضياع مستقبل سكانها وتركها مأوى للبوم ومسرحا للغربان ولكن الغرض يعمي ويصم واعداء الوطن العثماني هم هؤلاء الذين يريدون جعل البلاد واهلها كالبقرة الحلوب ولا يحبذون حركة من يصرف درهما على البلاد ولو اخذت الحكومة مكان الدرهم مليونين بعد عام

وقد رد عالي باشا هذه المفتريات ولكن محمود نديم باشا قد تولى امور الصدارة بعد وفاة عالي باشا واخذ يرسل الى بغداد الاوامر تلو الاوامر محذرا من صرف

الدراهم لاعمار البلاد وكان مدحت باشا يرسل دفاتر الايرادات والمصروفات الى الباب العالي كل سنة والذي ينظر الى ماصرفه مدحت باشا لايجد زيادة مصرف بل يتضح له ان ايراد الولاية كان في زيادة مستمرة وقد قلت المصارف في زمنه بكثير وكانت الايرادات يوم توجه مدحت باشا الى بغداد (١٤٨) الف كيس فبلغت بعد ثلاث سنين بسبب سعيه (٢٢٠) الف كيس وكان عدد الجنود يوم وصوله الى بغداد (٧) آلاف فبلغ عددها (١٣) الفا في زمنه وكان مدحت باشا قد قرر ارسال (٥٠) الف كيس من النقود في كل سنة الى الاستانة بعد حجز مصارف الولاية

والذي ينظر الى ما اجراه مدحت باشا وما كان مصمما على ارساله الى دار الخلافة في كل سنة وينظر الى نامق باشا الذي اقام سبع سنين في بغداد وتوجه بعد هذه المدة الى الاستانة وحمل معه (٣٠) الف كيس الى الحكومة التي لم تر غيرها من تلك الولاية في مدة الباشا المذكور يرى البون بعيداً بين ايراد بغداد في زمن مدحت باشاوفي زمن نامق باشا ولكن قاتل الله الاغراض فانها تعمي القلوب

اعمر مدحت باشا الولاية وتعهد بارسال (٢٥٠) الف ليرة سنويا فلم يقدر احد خدمته بل اخذوا يذمونه ويسفهون اعماله وكان محمود نديم باشا قد عقد جمعية في الباب العالي تحت اسم لجنة الاصلاحات فانزلت من مصارف ولاية بغداد (٢٤) الف كيس وطلبت ارسال المبلغ فورا الى الاستانة وكانت هذه المبالغ مخصصة للزراعة وتطهير الانهر وغير ذلك من الاعمال التي لايتم عمران البلاد الا بها وقد نزلوا مرتب القائمقام من (٢٠) ليرة الى عشرة وقطعوا من كل نائب من نواب الشرع ثلاث ليرات وكان النفر من نفرات الضابطة يقبض تسعين غرشا فانزلوا مرتبه الى خمسين فكتب مدحت باشا الى الباب العالي عدة برقيات فلم يجاوبه الصدر ولا غيره بما يشفي الغليل لان نية محمود باشا كانت معلومة اذ كان يريد السوء لمدحت باشا كما بينا في غير هذا المكان من الكتاب

هذه احوال توجب الاسف وتوقع الولاية في ارتباك وتجعل الاعمال الاصلاحية

عقيمة الأمر الذي حدا بمدحت باشا الى الاستعفاء فقبل محمود نديم باشا استعفاءه بلا تردد وعين رؤوف باشا واليا لبغداد ومشيرا لفيلقها فحضر على جناح البرق وفارق مدحت باشا بغداد بعد حضور الوالي الجديد وكان خروجه منها في شهر مايس من سنة (٨٨)

عودة مدحت باشا الى الاستانة

وفظائع محمود نديم باشا

كان مدحت باشا قد طهر نهر الفرات وجعله صالحا للملاحة فركب احد وابورات ذاك النهر المسمى باسمه (فرات) ووصل الى مسكنة (هي بلدة بالقرب من حلب) ثم غادرها متوجها الى حلب وهناك سمع عن سوء حركات محمود نديم باشا الصدر الاعظم و بلغه انه قد تسبب في نفي حسين عوني باشا وشرواني زاده رشدي باشا وحسني باشا مدير الضابطة ودوانجي اسماعيل باشا والي اشقودره وحيدر افندي وامين بك و بلغه ايضا ان محمود نديم باشا عازم على ابعاده هو الى سيواس ووصلته مكاتيب من دار السعادة تؤيد هذه الحوادث فلم يصدق مدحت باشا ان محمود نديم يضع تحت قدميه خط الكولخانه ويدير الملك كما شاء وشاء له الهوى وحضر الى الاستانة غير هياب ولا وجل

سمع مدحت باشا في حلب وفي بغداد ان محمود باشا يروج سياسة الروسيا ولما حضر الى الاستانة رأى بعيني رأسه صدق تلك الاشاعات فان محمودا اتبع اشارات اغناتيف سفير الروس وفرق بين كنيسة البلغار و بطركية الروم وجعل لها اكسرخية مستقلة وحاول ادخال الدولة في شكل جديد بتغيير ما اتاه اسلافه من الاعمال النافعة للبلاد ففسخ المقاولة المعقودة بين الحكومة و بين شركة خطوط الروميلي الحديدية وغير نظام الولايات محاولا تشكيل ولايات صغيرة ومن هذه الاعمال سلخ صوفيه عن ولاية الطونه و (قره حصار) عن ولاية طرابزون ومرعش عن ولاية اطنه واسس ولايات جديدة وسلخ عن البوسنه بلاد الهرسك ووحد اعمالها باعمال يني پازار وشكل هناك ولاية جديدة ونزل ميزانيات الولايات الى

درجات غير معقولة فتوقفت حركة الاعمال وكثرت الشكايات من تعدي الموظفين وتجاوزهم حدودهم ومن الغريب انه لم يكتف بذلك بل بدل موظفي الولايات فعزل منهم عددا غير قليل ونقل بعضهم من ولاية الى ولاية فصاروا كالرمل في الولايات لايقر احدهم على قرار واوجد أمورا لم نسمع بها في قوانين الحكومات والخلاصة فانه اوقع البلاد في داهية دهماء بسوء تدبيره

كان محمود باشا يعمل مثل هذه الاعمال والسلطان عبد العزيز راضي عنه وبينا كان الناس يظنون ان السلطان سيسأله عن تبعة هذه الافعال استصدر امرا بنفي حسين عوني باشا احد عظماء الدولة وشرواني زاده رشدي باشا وابعدهم بكل سهولة ولما بلغه خبر تحرك ركاب مدحت باشا من بغداد اصدر ارادة بنفيه الى سيواس ولكن السلطان عبد العزيز استعاد تلك الارادة وكان محمود باشا يعرف حق المعرفة ان الجو لايخلو له مادام مدحت باشا باقيا في الاستانة فلم يمض اسبوع على وصوله من بغداد حتى وجه اليه محمود باشا ولاية ادرنه واستصدر ارادة بتعيينه للوظيفة الجديدة بغير علم منه

وكانت اعمال مدحت باشا في ولاية الطونه و بغداد قد جعلت الناس يذكرون اسمه بالثنا والتعظيم اما الروسيا فقد كان رجالها يعضون الاصابع لانهم يريدون بقاء ولاية الطونة خالية من العمران فكان محمود نديم باشا يبذل جهده لاعادة تلك الولاية الى حالتها الاولى من الخراب لمحو اسم مدحت باشا واخفاء اعماله وارضاء لصديقته روسيا فغير نظام الولاية وعزل اكثر موظفيها وانقص مرتبات الباقين واحال امور التحصيل الى افراد الضابطة والغى وظائف المحصلين وكانت مرتبات رجال الضابطة قد انزلت الى خمسين غرشا ولما احيلت عليهم مسائل التحصيل اشتغلوا بالنهب والسلب وحذا حذوهم بقية الموظفين وامر نديم بصرف رجال الشرطة الذين كانوا يحرسون الطرق فعمت الفوضى ولم تلتفت الحكومة الى اصلاح الطرق فصعب العبور ونقل المحاصيل ووصل الاهلون الى اقصى دركات التعاسة

والغيت فرق الحرس المكونة من اهالي البلاد فاختل الأمن وعمت الفوضى وكثر القتل وتجاوز الاشقياء على الحدود

ظهرت اثار اعمار محمود باشا في ولاية الطونة على هذا المنوال في السنة الاولى وكتب الى رؤوف باشا والي بغداد يطلب منه طمس معالم اصلاحات مدحت باشا فكانت باكورة اعمال رؤوف باشا الغاء شركة الملاحة هناك فارسل وابور بابل هدية للترسانة و باع الوابور (نينوا) بعشرة الاف من الليرات وثمنه الاصلي عشرون الفا و باع الفحم الموجود في عدن وغيرها بسرعة عجيبة و بدل في شركة وابورات الدجلة والفرات وكانت تعود بفائدة قدرها الف ليرة شهريا واخر تطهير نهر الفرات والاغرب من هذا وذلك ان قبيلة هموند قد اشتهر افرادها بالنهب والغارة والسلب وكانت الحكومة تطاردهم في زمن مدحت باشا فكانوا يتركون مواطنهم ويلجأون الى الحدود الايرانية ولكن رؤوف باشا قد احضرهم و بذل لهم انواع الحفاوة وعين اشقياءهم بوظائف مختلفة في ادارة الضابطة فاستعانوا بوظائفهم على قتل العباد ونالوا من الابرياء باسم الحكومة واشتهرت فظائعهم وامتدت سيطرتهم الى الموصل والخلاصة فان رؤوف باشا قد اتبع اشارة ولي نعمته محمود نديم باشا ولم يترك عملا من اعماله او أثرا من آثاره بلا تبديل

على ان ارباب الرأي والحصافة لايوافقون القائلين بان ازالة الاعمال الحسنة تمنع الثناء على فاعل تلك الاعمال لان آثار الاعمال النافعة ايضا تدل على حسن نية صانعها والهادم معروض للهلكة

صدارة مدحت باشا الأولى

عاد مدحت باشا من بغداد بعد اجهاد الفكر وكان بوده البقاء في الاستانة ولكن ارادة محمود نديم اقتضت ذهابه الى ادرنه واذا تأخر عن قبول هذه الوظيفة كان ذلك داعيا الى سخط السلطان عبد العزيز فقد كان السلطان يحبذ اعمال محمود نديم باشا وكانت السراي السلطانية في الداخل وفي الخارج راضية عن حركاته

واعماله فرأى مدحت باشا من الواجب قبول الوظيفة الجديدة والتوجه الى السراي لتقديم الشكر لجلالة السلطان

كان السلطان يحب محمود نديم باشا ولكن الشعب كان ساخطا عليه وكانت اعماله المخالفة للعدالة تبلغ مسامع جلالته فعزم على عزله ولما مثل مدحت باشا بين يدي جلالته اظهر له سوء نتيجة ادارة الرجل فصمم على عزله وفي تلك الليلة اصدر ارادته بالعزل ووجه مسند الصدارة الى مدحت باشا وكان ذلك في شهر جماد الاول من سنة ٨٩

عزم مدحت باشا على تبديل اصول ادارة الولايات في اليوم الذي وجه اليه فيه مسند الصدارة ولما كان البناء لايشبه الهدم في السرعة اخر ذلك الاصلاح لوقته المرهون وكتب تعليمات مفصلة ارسلها الى الولايات واعاد الولاة والموظفين الى وظائفهم الاصلية وكان محمود نديم باشا قد جعلهم كالقبائل السيارة لايقيمون في بلد لسرعة التغيير والتبديل والعزل والنصب وكان العفو قد صدر عن حسين عوني باشا وشرواني رشدي باشا ورفاقهم قبل تبديل الصدارة فاستصدر مدحت باشا عفوا عن بقية المنفيين واعاد جودت باشا وراسم باشا وكانا قد ابعدا عن الاستانة فعين احدهما واليا لمرعش والثاني واليا لقره حصار وعين شرواني رشدي باشا لنظارة الاوقاف وجودت باشا لنظارة المعارف وعين لنظارة الخارجية جميل باشا سفير الدولة في پاريس وعين لنظارة المالية صادق باشا والي ازمير فسكنت الافكار العمومية وتعلقت آمال الشعب بمستقبل البلاد وعادت مياه الأمن الى مجاريها

الاحوال المالية وسوء ادارة محمود نديم ومحاكمته

ان سياج الدولة في الداخل والخارج لايحفظ الا اذا انتظمت امور المالية وكان الشعب ينظر الى هيئة النظار الجديدة ويأمل منها وضع حد لنظام الدولة المالي وكان نديم قد جعل المالية على شفا جرف الخراب فاصبح اصلاحها متعذرا لانه كان يقيد الوارد والمنصرف في كل سنة ويصرف اكثر منه مليونين فوق الايراد واذا اضفنا الى ذلك فوائد القرض الذي عقده محمود باشا من اور با بواسطة

(كوچك اوغلى آغوب افندى) البالغ قدره عشر ملايين من الليرات بلغ مقدار الزائد عن الميزانية في كل سنة ثلاثة ملايين من الليرات رأى محمود نديم باشا كل ذلك وشكل في الباب العالي لجنة باسم لجنة الاصلاحات وقدم الى السلطان ميزانية ساوى فيها بين ايراد الحكومة ومصارفها واظهر زيادة قدرها نصف مليون من الليرات بعد كل هذه المصاريف وهذا المبلغ قدمه للمابين الهمايوني نظير مصاريف فوق العادة عدا المخصصات السنوية وطلب من انكلترا سفينة بثلاثماية وخمسين الف ليرة

ولما صدرت الارادة السنية الى نظارة المالية وقدمت الى مدحت باشا دفاتر الحساب لم تظهر في الدفاتر هذه الزيادة وليت المسألة بقيت عند هذا الحد فاننا لو اضفنا فرق المبالغ المقطوعة من المرتبات الى ايرادات الحكومة فان العجز يكون بعد ذلك ثلاثة ملايين من الليرات

وقد جمع مدحت باشا اعضاء اللجنة المسماة بلجنة الاصلاحات وسألهم عن سر هذه الميزانية فقالوا انها مكتوبة بأمر محمود نديم باشا وانهم لم ينظروا قبل كتابتها لا في دفاتر المالية ولا في غيرها بل كتبوا ما املاه عليهم محمود نديم باشا من الارقام فظهرت الحقيقة ناصعة كالصبح لذي عينين

كان السلطان عبد العزيز قد سر اذ قدم اليه محمود باشا هذه الميزانية واذا اخبره اليوم احد بعجزها تكدر وظن ان الغرض من هذه الاذاعات حمله على التقتير وترك البذخ والاسراف

وهنا يقف اللبيب حائراً اذ يرى السلطان قد صدق ان الايرادات التي كانت تنقص كل سنة (٣) ملايين من الليرات تصبح في زمن صدارة محمود نديم باشا مساوية للمصروفات وتزيد زيادة لا نظير لها في اساطير الاولين والآخرين بالاوهام والاحلام والاقوال المخالفة للعقل

كانت هذه العبارة من حيل محمود نديم باشا ودسائسه التي يختلقها لارضاء السلطان عبد العزيز ولكن كيف وافقه عليها صفوت باشا وجودت باشا وكاني باشا

اعضاء لجنة الاصلاح المعهودة وهم من رجال الدولة المعدودين ولما ظهرت الحقيقة اخيرا كان السلطان عبد العزيز غير ميال الى تصديقها كل هذه الامور يجب النظر اليها بعين الاعتبار والاسف

حصل كل ذلك بحيل محمود نديم باشا ودسائسه فقد كان يعرف ميل السلطان عبد العزيز الى البذخ والاسراف وهو في نظارة البحرية في زمن عالي باشا حتى ان الوابورات التابعة للخزينة الخاصة التي تديرها الترسانة كان ايرادها اذ ذاك اقل بكثير من مصاريفها ولكن نديما كان يصرف عليها من مال الترسانة ويقدم كل ايرادها لعبد العزيز ليصرفه على لذاته ومشتهياته وكان في ذاك الوقت معدن فحم اركلى تابعا للخزينة الخاصة السلطانية وايراده لايقوم مقام جزء من مصاريفه فكان محمود باشا يصرف على المعدن من مال الترسانه ويقدم كل ايراده للسلطان عبد العزيز ايضا ولما وجه اليه مسند الصدارة اقترض عشر الاف من الليرات بفائدة (١٠) في المماية ظاهرا و (٢٠) باطنا كل ذلك لارضاء السلطان عبد العزيز واحضار المبالغ اللازمة لمصاريفه ومن ذلك تنقيص مرتبات موظفي الولايات

ومن الاسف ان استبداد السلطان عبد العزيز كان يقضى عليه بعدم التقيد بقانون ولكنه لم يتعرض لنقض قرارات الحكومة في الباب العالي ولا في غيره ومع هذا فاعمال محمود نديم باشا قد جعلت قوانين الدولة غير معتبرة في نظر عبد العزيز وحدت به الى الاعتبار بان ارادته فوق كل شيء ولهذا كان يظن اعمال محمود باشا حسنة وكان سكان سرايه ورجال معيته وخدمه وحشمه وجواريه وكل سكان السراى يمجدون نديم باشا

خلا لمحمود نديم باشا الجو واصبح امينا من السراى واهلها في الداخل وفي الخارج اما رجال الدولة وعظاؤها في الخارج فكان نصيبهم النفي اذا هم لم يوافقوه على نياته واعماله التي لايرضاها من في قلبه ذرة من حب الوطن فكان رجال الحكومة في خوف شديد وصار محمود باشا بهذه الوسيلة آمنا على نفسه من السراي ومن الخارج واستمرت صدارته سنة خرب في اثنائها البلاد وسبب شقاء العباد ومع

كل ذلك لم يترك استفادة نفسه الشخصية فقد اخذ من مصر ومن شركة طرق الروميلي الحديدية ومن معدن فحم اركلي مبالغ طائلة واخذ من القرض (٣٠٠) الف ليرة عدا المبالغ الغير معلومة

تبدلت الصدارة وانتهت كل هذه المشاكل وتنفس الشعب ولكن السلطان عبد العزيز كان يحلم في منامه بايام نديم اما الشعب فقد استبشر غاية الاستبشار ولكن السلطان كان يأخذ في زمن نديم الاموال جزافا من المالية وكان لا يسأل عن شيء الا اوجده نديم الذي كان يشتغل لارضائه ليل نهار وسواء عليه عمرت البلاد او خربت فكل مساعيه كانت لارضاء مولاه وولي نعمته السلطان ولا مرية في ان السلطان يفكر في ايام رجل هذه صفته بعد عزله ولم يكن السلطان وحده ميالا لاعادة محمود نديم باشا ففي الاستانة وفي السراي رجال لا يهمهم ايراد الحكومة وميزانيتها واستقبالها واعمارها وخرابها بل تتوق انفسهم الى صرف الاموال جزافا ونيل شهواتهم ولم يحرمهم نديم باشا من ذلك في ايام صدارته فقد سد عجز الميزانية البالغ قدره ثلاثة ملايين من الليرات في سنة على زعمه وزعم السراي وارسل الملايين الى المابين ولم يترك بابا لارضاء السلطان الا طرقه كل هذه العبارات كان يكررها رجال السراي في الداخل وفي الخارج بعد ان امتنعت عنهم وعن عبد العزيز اموال المالية وزاد بعضهم على ذلك ان قال ان مدحت باشا يظهر عجز المالية لقطع مرتبات السراي او بالحرى للتذرع الى عدم ارسال نقود للسراي الهمايونية وكان نديم باشا يسمع هذه الاذاعات فيسر ويبشر نفسه بالفوز ويرسل الرسل الى والدة السلطان عبد العزيز فتحدث ولدها بحديث القوم وتذكر له الرخاء وكثرة الاموال في زمن محمود نديم وقلة الاموال في زمن مدحت وظهور عجز ميزانية الدولة بين يوم وليلة ثم تثبت له كذب هذه المسألة مبرهنة بما كان يرسله محمود نديم باشا من الوف الليرات الى السراي قائلة اذا كان المال غير موجود في خزائننا فكيف كان يوجده محمود نديم باشا وزيرك الاكبر وسندك الوحيد

ذكرنا ان محمود نديم باشا قد اخذ مبلغا من النقود عند عقد القرض ولما اعيد

حساب القرض ظهر عجز ماية الف ليرة لم تقيد في دفاتر الخزينة و بقي مكانها خاليا وظهر ان هذا المبلغ قد قبضه محمود نديم باشا وقدم به سندا ولم يبين محل صرفه فسئل عن المبلغ واجاب ان المقرضين قد اعطوه اياه كبقشيش وقد كتب مقدار اجرة الوسيط والفوائد في مقاولة القرض وحذفت المبالغ من رأس المال عند تسليمه للخزينة ولا محل لاعطاء البقشيش وغيره بعد هذا الحساب فاعطاء المائة الف ليرا من الخزينة لاموجب له اذ لاتوجد هنالك ارادة سنية تبيح ذلك ولا قرار رسمي فقد اخذ هذا المبلغ بسند من محمود نديم باشا والذي قدمه له سرا هو امين باشا فلم يبق في المسألة شيء يعسر حله سوى استعادة المبلغ من مغتصبه ولا سبيل الى ذلك الا بالمحاكمة فصدرت الارادة السنية بذلك بعد الاستئذان واحضر نديم الى الباب العالي و بعد السؤال والجواب في مجلس الوكلاء ثبت عنده هذا المبلغ وصدر حكم المجلس عليه باعادته

خرج محمود باشا من مجلس الوكلاء بعد الحكم وكتبت اليه محررات بطلب المبلغ فاجاب بانه لايقدر على تأديته مرة واحدة لان حالته لاتساعد على اعطاء مبلغ جسيم كهذا المبلغ دفعة واحدة فيجب تقسيطه و بعد مدة من الزمن توسطت والدة السلطان عبد العزيز في المسألة قائلة ان محمود نديم باشا قد ارسل هذا المبلغ فيما ارسله الى السراي السلطانية فلا يجب على الوكلا مطالبته به وكل من طلبه منه يعد مطالبا للسراي السلطانية او معترضا على اعمال السلطان وقد ذاع هذا الخبر في السراي وصدرت ارادة سلطانية باعفاء محمود نديم باشا من تأدية هذا المبلغ وليت محمود نديم قد اكتفى بهذه المسألة فانه اخذ مبالغ طائلة من المالية تحت ستار اسم السراي السلطانية وثبت ذلك عند السلطان فرأى من الواجب ارساله الى خارج الاستانة منعا للقيل والقال وعينه واليا لولاية ادرنه و بعد مدة قصيرة توسط بعض اهل السراي وانضمت الى ذلك شفاعة والدة جلالة السلطان فصدر الامر باعادته الى الاستانة وعاد ولم يحافظ على السكينة بل اخذ يعاكس الوكلاء و يدس دسائسه ويتوسل بانواع الحيل وضروب الخداع وظل على هذه الحالة الى ايام

صدارة رشدي باشا فرفع الوكلاء في حقه معروضا الى السلطان فارسله منفيا الى طرابزون ولكن والدة السلطان قد استصدرت الارادة باعادته في هذه المرة ايضا فعاد على شرط ان يقيم في مصيفه ولا يتعرض لأمر من الامور

بعض الاعمال العمرانية

اشتغل مدحت باشا ببعض المسائل المهمة الخارجية وبعد ان حسم مسألة قولاشين والجبل الاسود وارسل الجنود ففض هذا المشكل في عشرة ايام وحسم مسألة الخلاف الحادث بين الدولة و بين حكومة ايران بسبب مرسى حدود بغداد نظر الى مسألة اعمار البلاد وتزييد ثروتها فمن ذلك اشتغاله بمسألة طريق بغداد الحديدية فان بغداد بعيدة عن مركز الخلافة ولا بد من انشاء خط يربطها بها ولا ينكرن احد فائدة الخط التجارية ولزومه لحياة البلاد ولا سبيل الى انشاء هذا الخط من مال الدولة العثمانية لان ماليتها لاتساعد على مثل هذا المشروع الخطير المحتاج الى الملايين من الليرات والخط بين طرابلس الشام و بغداد اقرب من غيره اذ يبلغ طول الخط اذ ذاك (٨٠٠) كيلو مترا وكان مدحت باشا قد ارسل رجلا من بغداد لاكتشاف الطريق والنظر الى ما يصادف في طريق الخط المزمع انشاؤه من العقبات فعاد الرسول ورأى مدحت باشا الوقت قد آن لاخراج هذا العمل الى حيز الفعل اما المبالغ التي يجب صرفها لانشاء هذا الخط فكان اخذها متيسرا لأن انكلترا كانت مصممة اعطاء (٣) ملايين من الليرات لنقل بوستة الهند بواسطة هذا الخط ولا يصعب بعد ذلك تدارك ما يلزم من المال لاتمام المشروع والانكليز انفسهم قد وعدوا بايجاد المال اللازم والذي يلزم اولا هو ارسال احد المهندسين لرسم خريطة الخط فاناط مدحت باشا هذه الوظيفة بالموسيو برسيل مهندس طرق الروميلي الحديدية في نظير (٢٠٠) الف فرنك وأمره باحضار الخريطة في مدة قصيرة فاحضر الموسيو برسيل المهندسين وعزم على ارسال جماعة منهم الى طرابلس لابتداء العمل واتمامه بالسرعة اللازمة

ومن هذه الامور خط (ودين) الحديدي فقد كان من المقرر الصاق خط

الروميلي الحديدي بخطوط النمسا عن طريق البوسنه ولما فسخت المقاولة وحالت بعض الموانع السياسية دون اتمام المشروع انقطع الامل في هذه المسألة واذا مد خط من جهة ودين والتصق بخطوط النمسا تمت الفائدة فاتصل خط الروميلي بخطوط النمسا واستفادت تركيا واوربا بسبب هذا الخط وكانت النمسا تعد بالمساعدة على تمديده وقد رتب مهندس خطوط الروميلي الحديدية خريطة الخط وتشكلت لجنة للبدء في انشائه وتم شراء بعض ما يلزم له من الآلات

ومن تلك الامور الهامة تلغراف الحجاز فان وضع الاخشاب اللازمة لمد الاسلاك غير ممكن بسبب العشائر والقبائل غير ان المسألة تصبح متيسرة اذا انشئت الطرق الحديدية بين الشام و بغداد فان الأعراب الذين تعينهم الحكومة لحراسة الخطوط الحديدية يقدرون في الوقت ذاته على حفظ الخطوط التلغرافية وصيانتها واذا امتدت الاسلاك بين دمشق والحجاز واليمن حصل من مجموع ايراداتها في السنة عشرون الف ليرة من الحجاج وحدهم واصبحت الدولة غير محتاجة الى المخابرة بغير واسطة هذه الخطوط وعلى هذا فقد أمر مدحت باشا باحضار الآلات اللازمة لمد خط من القدس الى جدة واحضرت له اللوازم وأمر صبحي باشا والي الشام باحضار الاخشاب اللازمة لمده فاحضرت من قضاء عجلون

ومنها مسألة المكاييل والموازين وتحويلها الى اعشارية وكان مدحت باشا قد بدأ بهذا المشروع ايام كان رئيسا لشورى الدولة وكتب الى الولايات لتعميمه وصرفت الحكومة ما يلزم لذلك من المال وارسلت الاوراق اللازمة لتفهيم الاهالي كيفية استعمال هذه الموازين والمكاييل ولكن محمود نديم باشا قد اخر هذه المسألة في ايام صدارته فصدرت اوامر مدحت باشا الى الولايات والى من يلزم لمراعاة هذه القواعد في الاستانة أيضا

بقاء الاصلاحات عقيمة

سنذكر فيما يلي ان صدارة مدحت باشا في هذه المرة كانت مدتها (٧٥) يوما اشتغل في اثنائها ليل نهار لاجراء الاصلاحات السالفة الذكر و بدأ فعلا هذه الاعمال

الاصلاحية ولكن الاعمال تعطلت يوم انفصاله لان البلاد خالية من القوة التي يكون الانسان امامها مسئولاً عن افعاله والذي يتولى وظيفة في بلادنا ينقض ما قرره سلفه وهي عادة جارية الى يومنا وبهذا خسرت الحكومة المبلغ (٢٠٠) الف فرنك المعطى للموسيو برسله مهندس خطوط الروميلي لاحضار خريطة خط بغداد ولم يطالب احد من المهندس لا المبلغ ولا رسم الخريطة وتلفت الآلات المشتراة لانشاء خط ودين و بقيت الاسلاك المشتراة لانشاء الخط التلغرافي في جده ملقاة في العراء مع الاخشاب ولم يسأل احد عن سبب احضارها

وتمت مسألة شراء الخط الكائن بين ازمير و (أله شهر) في زمن صدارة مدحت باشا هذه المرة أيضا وذلك لان الباشا عرج على ازمير حين عودته من بغداد وتوجه الى مغنيسا وتحدث مع مؤسس الخط ومديره واتضح له ان الخط يبعد عن البلدة (٧٠) كيلو مترا واذا وصل اليها كثر ايراده وتخلصت الدولة من المبلغ (٢٠) الف ليرة الذي يعطى للشركة سنوياً كما هو الاتفاق وكانت الشركة غير قادرة على تمديد الخط الى (أله شهر) ووقف والي ازمير على المسألة في وقتها وهو ناظر المالية فى صدارة مدحت باشا ولذا فقد دعاه اليه وأمره باحضار مدير الشركة واتفق معه على تمديد الخط الى (أله شهر) على ان تصرف الخزينة (٥٠٠) الف ليرة الى الشركة وتسلم هذه الخط الى الحكومة بعد (١٥) سنة وهو يمتد من ازمير الى (أله شهر) وطوله (١٤٠) كيلو مترا واقترضت الحكومة المبلغ من اوربا وقسطته على (١٥) سنة فكانت تدفع (٣٥) الف ليرة سنويا عن رأس المال والفائدة وعلى هذا الحساب تخلصت الحكومة من المبلغ الذي كانت تدفعه للشركة وقدره (٢٠) الف ليرة سنويا وصار الخط مع ادواته وقيمته اكثر من مليون ليرة ملكا للحكومة بعد (١٥) سنة وقد استصوب مجلس الوكلاء هذا الاتفاق وصدق عليه باتفاق الآراء ودخل الخط بعد المدة المقررة فى حوزة الحكومة

قرض اسماعيل باشا خديوي مصر وعزل مدحت باشا من الصدارة وتعيينه لنظارة العدلية

طالب اسماعيل باشا خديوي مصر من السلطان عبد العزيز فرمانا يبيح له عقد قروض من الافرنج وكان الخديوي قد حضر الى الاستانة لهـذا الغرض في زمن صدارة محمود نديم باشا وقدم طلبا للصدارة وكانت الارادة بالاذن له بعقد القروض على وشك الصدور فعزل في هذه الاثناء محمود نديم باشا و بقيت الارادة الى زمن مدحت باشا وتكرر طلب اصدارها فقال مدحت باشا ان مصر قد اقترضت مبالغ طائلة لليوم باسم الاصلاح وقد ثقلت الديون على ماليتها واذا ابيـح لاسماعيل باشا عقد قروض تداخل الاجانب في شؤون القطر المصري وضاع استقلاله الاداري والسياسي معا وتداخل الاجانب يوما ما في شؤون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم وستكون هذه المسألة سببا لنفوذ فرنسا وانكلترا في مصر فان هاتان الدولتان تراقب احداهما الأخرى في نفوذها وتحذو حذوها واذا عقد قرض باسم مصر بعـد اليوم صار ضغثا على ابالة وزاد نفوذ الدولتين المذكورتين وخرجت مصر من قبضة الدولة العثمانية وهي مسألة لاتحتاج الى برهان وكانت خديوية مصر قد طلبت مثل هـذا الطلب في زمن صدارة عالي باشا فرفضه رفضا باتا تدل على ذلك الاوراق الرسمية المحفوظة في دوائر الباب العالي

اخر مدحت باشا هذا الفرمان ولكن السلطان عبد العزيز كان يرسل كل يوم رسله الى الباب العـالي لانه وعد خديوي مصر وعـدا صريحا وارادات السلطان واجبة التنفيذ ولكن ضياع بلاد واسعة كالقطر المصري يلقى الدولة في هاوية الدمار ولذا فان مدحت باشا قد اشتغل بكتابة فرمان يبيح لخديوي مصر عقـد القروض في المستقبل ويجعل له املا في الحصول على غرضه في الأجل واقنع عبـد العزيز فصدر الفرمان طبق اشارته وكتبتـه الجرائد وارسـل الى خديوي مصر على وابور مخصوص مع الباشكاتب حلمي افندي فلم يقبل اسماعيل باشا الفرمان وكتب تلغرافا الى المابين طالبا الصراحة التامة في الفرمان فارسل له السلطان فرمانا في الحال و به

دخلت الحكومة المصرية تحت اعباء الديون و بعد مدة قصيرة وفي زمن شرواني زاده رشدي باشا صدر فرمان للحكومة المصرية يبيح لها عقد مقاولات ومعاهدات مع الدول الاجنبية فوقعت مصر في الكوارث الاخيرة بسبب هذين الفرمانين

كان السلطان عبد العزيز يقدر خدمات مدحت باشا قدرها ولكن مسألة فرمان اسماعيل باشا خديوي مصر تركت في قلبه أثرا وكانت مسألة اختلاس محمود نديم قد أثرت في فكر السلطان عبد العزيز أيضا وانتهز اعوان مدحت باشا فرصة استياء السلطان من مدحت باشا وزادت وشاياتهم فلم تمض سوى مدة (٧٥) يوما حتى صدر أمر عبد العزيز بعزل مدحت باشا من منصب الصدارة وتعيين رشدي باشا الكبير صدرا اعظم

دخل مدحت باشا الى خدمة الحكومة واستمر في كل وظائفه بلا عزل وهذه هي اول مرة عزل فيها (يريد انه كان يستعفي) وتخصص له مرتب قدره عشرون الف غرش و بينما هو في منزله وجه مسند الصدارة الى شرواني زاده رشدي باشا وتعين مدحت باشا ناظر للعدلية

احوال البلاد السيئة وتصور احداث مجلس المبعوثين

كان السلطان عبد العزيز مشهورا بالعقل والدراية ذا همة عالية وكان يعرف ان الحكومة لا تستقيم امورها الا بالقوانين والنظامات غير ان اخلاقه قد تغيرت فحلت العظمة محل علو الهمة و بدأ يبذر اموال الامة تبذيرا ولما مات عالي باشا وحل محله محمود نديم باشا تغيرت اخلاق عبد العزيز تغيرا محسوسا فوضع كل قوانين الدولة تحت قدميه وزاد تبذيرا واسرافا فوقعت خزينة الدولة تحت اعباء الديون

وصلت ديون الدولة في آخر ايام السلطان عبد المجيد الى (٢٥) مليونا من الليرات فوقعت الحكومة في ازمة مالية و بعد (١٢) سنة وصلت ديون الدولة الى (٢٥٠) مليونا من الليرات فوقعت الحكومة في هاوية لا سبيل الى الخلاص منها واذا اختلت المالية في الدولة فقد اختل كل شيء لان المال هو روح الدولة

وكانت مصائب الدولة في زيادة مستمرة يراها العوام والخواص وفكر الوكلاء

في هـذه المسألة اذ رأوا ان المستقبل ينذرهم بخطر مدلهم ووجه عابس فرأوا ان الطريقة الوحيـدة للخلاص من الكوارث المتكابـة متعذرة الا اذا تشكل مجلس مبعوثين واذا تم اتفاق الوكلاء على هذا القرار فالسلطان عبد العزيز لايتنزل من عرش عظمته الى سماع كلمة شورى ومجلس مبعوثين ودستور او اصـلاح او قانون اساسي ولا يجسر احد على عرض هـذه المسألة على مسامعه وحالة الدولة في خطر والدوام على تلك الحالة يوقع البلاد في ازمة لاسبيل الى الخلاص منها

كان الوكلاء يذكرون هذه المسائل وفي الختـام قرر شرواني زاده رشيد باشا جمع الوكلاء في محل مصيفه و بعد الاخـذ والرد قرروا كتابة لائحة لحفـظ ميزانية الدولة وصيانة كيانها من الانحلال واتفقوا على تقديم تلك اللائحة الى السلطان عبد العزيز (المترجم) تقدمت هذه اللائحة في الصحيفة ٩٧ من هذا الكتاب وقد قرر الوكلاء فيما قرروه احالة أمر كتابة هذه اللائحة الى مدحت باشا

وزار الصدر الاعظم شرواني زاده السلطان عبد العزيز وحادثه في مسائل عدة وتدرج بحديثه الى ذكر تلك اللائحة الاصلاحية فاحفظت كلمة الاصلاح السلطان واصدر في الحـال ارادته بعزل مدحت باشا من نظارة العدلية وعينه واليـا لولاية سلانيك في رمضان تلك السـنة واثر حديث شرواني زاده في نفس السلطان فلم تمضي ايام حتى اصدر ارادته بتعيينه واليا لحلب فابعد الاثنين عن الاستانة بسبب كلمة الاصلاح

مدحت باشا في ولاية سلانيك

ابعد السلطان عبـد العزيز مدحت باشا الى ولاية سلانيك انتقاما لانه كان عازما على كتابة لائحة اصلاحية لاستبقاء ملك اجداد عبد العزيز وحفظه من البوار واللوائح الاصلاحية في بلاد الدولة العثمانية كثيرة لا يمكن احصاؤها ولو عددنا الاوراق الصادرة من يوم خط الـكولخانة الى هذه الايام لظهر لنا ان الدولة العثمانية قد تأسست على وضع اللوائح واهمالها وطالما دفعت الحكومة للاجانب الاموال الطائلة وطلبت منهم وضع اللوائح الاصلاحية فكتبوا منهـا الألوف فوضعتها الحـكومة في

خزائنها ومضت عليها السنون وكرت العصور حتى تمزقت اللوائح و بقيت الحكومة على سابق عهدها ولو قبل السلطان عبد العزيز لائحة مدحت باشا ووافق رشدي باشا على طلبه ثم صبر اسبوعا او اسبوعين واخذ اللائحة وامر باعلانها بواسطة الجرائد ثم عزل مدحت باشا وشرواني زاده لاتحقت اللائحة بخط التنظيمات الخيرية واصبحت حبرا على ورق لان الصدور العظام والوزراء الفخام في تركيا لاينظرون الا الى ارضاء سلطانهم وولي نعمتهم وهم يلقبونه بألقاب الجلالة التي لم نسمع بها في معجمات اللغة لغير الله جل جلاله والسلطان ينعم بالالقاب فيوجه الى هذا رتبة صاحب الدولة والى ذاك رتبة صاحب العزة والى الآخر رتبة السعادة والسعادة والعزة والدولة لله

ارسل مدحت باشا الى سلانيك وكان يشتغل باسم الامة و يريد وضع حد فاصل بينها و بين استبداد السلطان والامم الحية في ايام عزتها وعظمتها تطلب الاصلاحات وتكثر من طلب اللوائح الاصلاحية من الملوك لتكون تلك اللوائح حدا فاصلا بينها و بينهم اذا حفظها التضامن العام وحرسها الشعب وما قولك ايها القارئ في قانون يضرب به القاضي عرض الحائط ولا يعبأ به الرئيس وتنساه الأمة ان ذاك القانون يكون كالقلم يرميه الكاتب ولا يكتب به حرفا واحدا او كالكاغد تعطيه الجاهل فيطرحه على الارض او كالثوب تقدمه للفيل لنفرض جدلا ان قوانين الحكومة العثمانية منتظمة لايتطرق اليها النقص وانها لاتخالف قوانين المدنية الحديثة في اوربا

لو فرضنا ذلك جدلا فمن الذي يقوم بتنفيذ تلك القوانين فالقاضي يبرىء القاتل و يحكم على ذوي المقتول والذنب ذنب القاضي لاذنب القانون فالاعمال اذن بالرجال لا بالقوانين واذا كان الناظر من نظارنا يضع قانونا و يذيعه في الولايات بواسطة البرقيات وتهمله العمال فالذنب ذنب العمال لا ذنب القانون ان القاضي لايقيم في بلدة من بلاد الدولة اكثر من ربع سنة ورب قضية نظرها ار بعون قاض بالتناوب فما يكون شأن هذه القضية وكيف يكون شأن التاجر اذا صرف عشرين

سنة بين جدران المحاكم لاستصدار حكم ضد خصمه وطالما تغيرت احوال الرجل المالية ومات الشهود في هذه المدة فقد يفتقر زيد ويغتني عمرو في خمس سنين فاذا ذهبت ثروة غريم التاجر قبل اخذه الحكم النهائي فهل الذنب في ذلك على القانون او على القاضي الذي لا ذنب له سوى ان الحكومة تنقله من بلد الى بلد فيصرف مرتبه بين اجور عربات وقطارات وبواخر وربما عزلته فحضر الى الاستانة بلا ذنب ولا اثم وبقي مع عائلته الى ان تعطيه الحكومة وظيفة بعد ابقائه في الاستانة سنة او سنتين فاذا ارتشى هذا القاضي واضاع حقوق المتخاصمين فهل الذنب يومئذ للقانون او الذنب للحكومة

يتداخل العظماء في امور المحاكم والقاضي لا يقدر على اصدار حكم ضد المستبدين لان مركزه مهدد بالعزل الاداري كل ساعة فاذا حكم على ذي النفوذ عزلته نظارة العدلية بلا تردد وبغير تحقيق وقد خلقه الله للتنقل من بلد الى بلد واذا سألت احد القضاة العثمانيين عن مدة خدمته وفي اي بلاد قضى المدة قال لك قضيت نصف سنة في بيروت وشهرين في بغداد وشهرا في حلب وشهرين في قونيه واسبوعا في دير الزور واسبوعين في انطاليا ونصف شهر في الحجاز فالقاضي مكلف بذرع البلاد وقضاء نصف ايام حياته في البوادي والقفار فكيف يطبق القوانين ويراعي العدالة مع المستبدين اذا كانت حياته الادبية والمادية مهددة بالخطر في كل ساعة وفي كل دقيقة

فالقوانين في البلاد العثمانية قد وضعت للفقراء لا للاغنياء ولذا فالانسان يتعجب من خوف السلطان المستبد العثماني من كلمة قانون ولائحة وقد ملأت اللوائح صناديق حكومتنا العثمانية من يوم تأسيسها الى هذه الساعة واذا اراد احد اخذ ميراث هذه الحكومة فانه لا يجد سوى اللوائح والقوانين لان المال مفقود في بلادنا وثروة البلاد محبوسة بين اراضي غير مزروعة وغابات مهملة ومعادن مدفونة فاللوائح والقوانين هي ميراث هذه الحكومة يتناقلها الابناء عن الآباء والاجداد والاعمال القانونية في بلادنا غير موجودة الا في القاموس لان الامة التي يستبد بها فرد كعبد

الحميد ثلث قرن لاتحمي قانونا ولا تنال ثروة ولا تعمل عملا والامم الحية تطلب العدالة من القاضي باسم القانون وتعيده الى الصواب بل تعيد الى الحكومة رشدها واذا ماتت الامة وقضى عليها سوء الطالع بالتقهقر ووصلت الى الهرم والشيخوخة تلاعب القاضي بالقانون واستعمل الجندي سيفه لقتل اخيه واشتغل الكبير والصغير والغني والفقير بخدمة الحكومة فان الحكومة غير الامة والامة غير الحكومة واذا نظر الانسان الى أمة هذا حالها وقال لافرادها اي لافراد الحكومة انتم الامة ايها الحكام فأين الامة انتم الامة لاني ارى كل ذي عقل وذكاء يترامى على خدمة الحكومة واراكم تسنون القوانين لانفسكم ثم تضعونها تحت اقدامكم ولا تأبهون بانتقاد منتقد لان الامة قد فقدت قوتها امامكم فانتم الامة فأين الحكومة ارى للأمم جرائد ايها المستبدون تزيف اعمال حكوماتها وتعيد حكامها الى الصواب اذا ضلوا الطريق والحاكم لايقدر على ارضاء الشعب مهما استقام فلا بد من جرائد تنتقد اعمال الحكومة وارى جرائد بلادكم ايها الحكام تمدحكم وتتزلف اليكم فانتم الامة اذاً لان الانسان يثني دائما على اخلاق نفسه وهذه الجرائد بمدحها اعمالكم تثبت ان الامة قد ماتت او انكم قد امتموها باستبدادكم وجوركم واعتسافكم ونهبكم وسلبكم

لهذا كان يجب على عبد العزيز عدم الاكتراث باقوال شرواني زاده رشدي باشا

ولنعد الى مدحت باشا في سلانيك فنقول ان ابعاده عن الاستانة لم يؤثر في همته العالية فقد ذهب بصدر مملوء غيرة على الوطن وهمة لاتعرف الكلل كما هي عادته فعمل اعمالا في ثلاثة اشهر يعجز عن مثلها غيره في سنين فاصلح الضابطة والملكية واسس مدرسة للصنايع واوجد للمدرسة (٢٠٠) الف غرش ايرادا سنويا وفتح جادة في وسط المدينة يبلغ طولها (١٣٠٠) مترا واشترى مكان السو ق الموجودة في وسط المدينة من اصحابه وكان قد خرب و بنى هناك سوقا جديدة واجر هذه السوق بثمانمائة ليرة لسنتها الاولى وخصص هذا الايراد لمكتب الصنائع

ونظم المدارس الصغيرة وعين لها معلمين ورأى استعداد اهالي سلانيك المسلمين وغير المسلمين وذكاءهم ففتح مكتبا اعداديا يسع ثمانين طالبا من ابناء المدينة وطلب له المعلمين من الاستانة وبينا هو في انتظارهم فصل عن تلك الولاية في شهر ذي الحجة وتعطلت مسألة هذا المكتب

وقد قابل اهل سلانيك اعمال مدحت باشا الاصلاحية بكل سرور ولكن الاستانة كانت تنظر اليها بعين السخط ولذا فقد عزلته بكل سرعة وبقي بعد عودته سنة ونصف سنة بلا وظيفة ولا عمل فاشترى اراضي في ضواحي الاستانة واشتغل بها هذه المدة الطويلة

صدارة اسعد باشا ـ حادثة الهرسك

لايوجد في بلادنا شيء اكثر من تبديل الموظفين والوكلاء والولاة فقد فتحنا هذه البلاد ونحن فيها لليوم رحل متأهبون للانتقال بين وقت وآخر وانك لاترى الانكليز يرسلون الوالي الى الهند فيقيم في عاصمتها ثلث قرن ويرسلون مندوبهم السياسي الى مصر فيقيم هناك الى ان يدركه الاجل ويعرف طبائع البلاد وعوائد اهلها ويتعلم لغتهم ويتم ما بدأ به من الاصلاح وضباط الانكليز وموظفوهم ومهندسوهم في مصر يشترون المنازل ويتمتعون بخيرات البلاد كابنائها وطالما اقام الواحد منهم في القطر المصري عشرين سنة او اكثر من تلك المدة وهم يقيمون في البلاد كمحتلين اذ ليسوا بأصحابها بخلاف رجال حكومتنا اصحاب تلك الولايات الطويلة العريضة التي لاترى فيها موظفا يقيم اكثر من شهرين وهذا هو الداء العياء الذي اعيا نطس الاطباء وجعل الثقة ضعيفة بين الحكام والمحكومين ففي الاستانة وبيروت وازمير وفي كل ولايات الدولة لا يملك الموظف منزلا الا اذا كان من اهالي البلاد وعدد موظفي اهالي الولايات قليل واذا وصل ابن بغداد الى درجة قائمقام في الملكية او العسكرية نقلته الحكومة الى ازمير وارسلت ابن ازمير الى بغداد وقس على ذلك كل اعمال الحكومة فالموظف في شقاء مستمر (والشعب ايضا) وكان يجب على اهالي الولايات بناء فنادق لاقامة الموظفين وعلى الموظف

يضا عدم شراء لوازم بيتيه كاثاث منزل بل يجب عليـه عدم التزوج لانه يكون سبب شقاء عائلته بنقلها من ولاية الى ولاية

لم يسمع احد بمثل هذه الاحوال حتى في البـلاد البر برية وقد استولى الداء وعز الشفاء و بات الناس يشكون من هـذا المرض ولا يجدون له دواء والظاهر ان الفاتحين قد اعتادوا تلك العادة ايام الفتح فكانوا يتركون البلد المفتوح و يقصدون غيره من البلدان فحذا اسلافهم حذوهم وانتقلت العادة من الاباء الى الابناء و بقيت الى يومنا والناس يشكون شر هذه العادة والحالة في البلاد يرثى لها العدو ولا سبيل الى اسماع رجال الحكومة ولو سمع احدهم اقوال مقبحي تلك العـادة وحاول اتباع ضدها خلفـه غيره وقضى على اعماله لأن الحكام والرؤساء هنـا لايسألون عن تبعة اعمالهم

هذا هو الداء العياء واحد المصائب التي قد نخرت عظم الدولة العثمانية التعسة وجعلت اهالي البلاد في شقاء مستمر وهذه هي المصيبة الكبرى التي جعلت الحكومة العثمانية تنشىء المدارس والجامعات ودور الصنائع وتجعل لها نظارة معارف وتعين المعلمين وليس لها كتاب ولا برنامج تعليم الى يومنـا وكيف يوجد كتاب والمعـلم لايقيم في مدرسـة اكثر من شهرين وقس عليـه مدير المدرسة و بوابها وخادمها قضى مدحت باشا ايام حياته سائحا كامثاله الولاة فمن الطونة الى بغداد الى بورصه فازمير فسلانيك ولو اقام في ولاية واحدة لرأت منـه الدولة اضعاف ما عمله من الاصلاحات ونال بسبب اعماله السعادة والرقي قسم من اهالي هذه البلاد التعسة

انظر الى مصر فقد كانت كاحدى الولايات العثمانية لأن دار السعادة ترسل اليها الوالي تلو الوالي فيقيم احد الولاة في ارض الفراعنة شهرا والثاني اسبوعا ولمـا استقر الامر لمحمد علي باشا جد العائلة الخديوية عمرت البـلاد واصبحت القرى والمزارع كجنـات عدن تجري من تحتها الانهـار ولو بقيت لليوم في يد ولاة الدولة العثمانية لهجر اهلها وطنهم وقصدوا الاقطار الامريكية لتحصيل قوتهم وقوت ابنائهم كما هي حال اخوانهم السوريين و بعض اهل ولايات الاناطول الشرقية

سر في شوارع الاستانة وسل عن اصحاب البيوت ومنازل الموظفين فانك لاتجد للموظف منزلا للسكن وذلك لانه يقضي اكثر ايام حياته بين البصرة و بغداد والاستانة واذا ساعده الحظ واخذ وظيفة في استامبول وعاشر معشر السعداء استأجر منزلا واقام فيه الى ما شاء الله

ولنعد الى الصدر فنقول عزل عبد العزيز محمود نديم باشا ولم يبق رجلا بعده في مسند الصدارة زمنا طويلا فمن مدحت باشا الى شرواني زاده رشدي باشا الى رشدي باشا الكبير الى حسين عوني باشا ولم ترضه خطة هؤلاء الصدور لانه كان يطمح الى اعادة محمود نديم باشا والشعب يبغض الرجل ويرى في اعادته شقاء الوطن وخراب البلاد وعبد العزيز يعرف ذلك ولا يجهله ويفكر في حل هذه العقدة و بعد رأي ما رأى من مصلحته توجيه الصدارة الى رجل من صنائع نديم وهو اسعد باشا

واسعد باشا لا يعرف سوى ارادات السلطان ولا يطيع غير اوامره الامر الذي جعل السلطان ينظر اليه بعين الرضى بيد ان جذوة ثورة الهرسك اشتعل لهيبها في ايام هذا الصدر وعلم ان روسيا هي المسببة لاشتعال نارها فقد كانت تثير الفتنة في بلاد البلغار والصرب ورأت من اللازم لمصلحتها ايقاظ الفساد في الهرسك ايضا فوقف اسعد باشا عاجزا أمام تلك الحركة الثورية وهي عبارة عن قيام ستين من السلافيين بمظاهرة عدوانية في وجه الحكومة وهم من اهالي قرية نوسين التابعة للهرسك وكانت الثورة تشتد كلما مرت الايام وكان سفير الروسيا (ايغناتيف) يرتب الدسائس و يسبب الثورات ثم يقصد الباب العالي ورجال السراي السلطانية و يبذل لهم النصائح و ينال من وراء ذلك مقاصده ولما حصلت هذه الحادثة توجه الى قصر السلطان وافهمه بوجوب فض المشكل بلا سلاح ولا سفك دماء وذلك بتفويض هذه المهمة الى قناصل الدول الاجنبية في بلاد البوسنه و بينهم قنصل الحكومة الروسية واتباع هذه الخطة يدل على عجز الدولة عن ادارة امورها وتفويضها الاعمال الى الاجانب واذا دخل القناصل بين الحكومة و بين متبوعيها كوسطاء واصلحوا

بينهما و بين شرذمة من الاشقياء كبر امر قطاع الطريق والثوار في البلاد وتفاقم الخطب وكان هذا قصد (ايغناتيف) وهو ظاهر كالشمس ولكن الوكلاء لم يبدوا اعتراضا لانهم طوع ارادة المابين وقد احيلت المهمة الى القناصل فامتدت الثورة في طول البلاد وعرضها قبل عودة القناصل الى مقر وظائفهم فقد توجهوا للاصلاح الى البلدة التي ظهرت بها الثورة فعم الخطب جميع البلاد وكثر القتل والنهب والغارة وتم لاغناتيف قصده ومبتغاه

صدارة محمود نديم باشا الثانية ـ امتداد ثورة البوسنه والهرسك
وظهور ثورة البلغار ومسألة السهوم

لايقر احد في هذا الكون بعجز نفسه عن ادارة الامور فالكاتب اذا اخطأ يقول خانتني القريحة ولا ينسب الخطأ الى نفسه بل ينسب اليها الصواب وحده واذا اخطأ المحامي او قصر في طلب حقوق موكله نسب الخطأ الى القاضي قائلا انه خالف القانون والقاضي يحكم باعدام الشخص البرىء واذا سألته قال لك ان الشهود خانوا المتهم فقضوا عليه بالاعدام والوزير يجلس امام المرآة ويكتب القوانين فاذا اصابت مقاتل الشعب قال ان العمال اساؤا استعمالها ولم يقدروا على تطبيقها والجاهل الذي لايحسن القراءة يأخذ الكتاب بيده ويقول ان الطابع لم يحسن طبعه ويدعى انه يحسن القراءة ولكن المطبعة قد طمست معالم الحروف ولم تخرجها ظاهرة بارزة لتقرأ نفسها و بعض الجهلاء يدعى ان عينه لاترى الكتابة لشيخوخته او لانه اكثر من قراءة الكتب في ايام صباوته فضعف بصره وهو يستعمل النظارة المكبرة ليرى الكلمات كبيرة في الكتاب واذا عجز عن القراءة قال لك ان كتابة الكاتب معقدة وجمله متقاطعة واذا كان المطبوع شعرا قال لك ان الشاعر مخطىء في اوزان الابيات الشعرية

والملك الظالم يدير المملكة باستبداده و يشرك في امور ملكه النساء والعبيد والاماء واذا اخطأ في اعماله ووقعت المملكة في هاوية الدمار عزا اغلاط نفسه الى الوزراء والقواد والامراء وقال ان سياسته صالحة لادارة الف مملكة ولكن الوزراء

لايحسنون السير طبق ارادته وعزل وغير و بدل

وهكذا شأن الجماعة اذا استبدوا بحكومة او قرية او ولاية لان احكام الجماعات لاتسمى شورية في كل وقت الا اذا وافقه الرأي العام واجمع عليها العقلاء بعد تمحيصها والذي يفتح البلدان باعانة كتيبة من الاشقياء يحتاج دائما الى ارضاء افراد تلك الكتيبة وارضاء الشعب غير ارضاء الجماعات لان هؤلاء يحتاجون الى الاموال وهي في خزائن الاهلين والشعب لايقدم امواله للفاتح جزافا وهذا قد فتح البلاد للتمتع بخيراتها وصرف الاموال لاخذها مضاعفة ولم يعرض نفسه للهلكة لفائدة الشعب بل لفائدة نفسه وكل من ادعى غير ذلك من المتغلبين كذب وافترى على الله وضل ضلالا بعيداً

لذلك نرى الشعوب لاتتفق مصالحها مع مصالح الملوك والامراء الا بالشورى او الاحكام الدستورية التي تحتم على السلاطين والامراء اشراك المحكومين في امور البلاد لان المحكوم ادرى بالداء والحاكم اقدر من المحكوم على ايجاد الدواء

وما مثل الحاكم والمحكوم والعادل والمستبد الا كمثل الطبيب والمريض فالملك العادل كالطبيب الحاذق يسأل المريض عن محل الألم ويصف له الدواء والملك العادل يجمع عقلاء الشعب ويشاورهم في امور المملكة ويعرف مواطن الداء ويذيل الشعب مبتغاه والملك الظالم كالطبيب يقيم بمكة ويصف للمريض الداء والمريض في العراق فاذا اتسعت مشقة الخلاف بين الشعب وبين الحكومة كانت الحكومة المستبدة مثل هذا الطبيب

ظن السلطان عبد العزيز كغيره من الملوك ان الذنب للوزراء لا له وانتهز الفرصة لاعادة نديم باشا الى مسند الصدارة وعرف ان الشعب حاقد على نديم فجعله رئيسا لشورى الدولة وجعل حسين عوني باشا ناظر الحربية ومدحت باشا للعدلية و بعد مدة لا تزيد عن اسبوع عين نديما لمقام الصدارة

عاد نديم الى مقام الصدارة ولم يحد عن خطته القديمة قيد شبر وكان اول اعماله ابعاد حسين عوني باشا عن الاستانة وارساله الى مدينة بروسه بتعيينه واليا لتلك

الولاية وكان يضمر الشر لمدحت باشا ولكنه اخر ذلك لتخدير اعصاب الشعب

وحصر محمود باشا مساعيه في ايجاد الاموال وتقديمها للسلطان واطاعة اوامر الجنرال ايغناتيف سفير الروس واتسع الخرق على الراقع فامتدت الثورة في البوسنه والهرسك وتحفزت بلاد الجبل الاسود والصرب للثورة وتوجه جماعة من الروس والصرب وسكان الجبل الاسود الى بلاد البلغار لحث الاهالي هناك على العصيان والقيام في وجه الحكومة فلم يأبه محمود باشا بهذه الثورة ومقدماتها وما ستكون عليه نتائجها بل اشتغل بالأمور المالية فنزل مرتبات الموظفين واشتغل بايجاد منابع جديدة ورتب ميزانية الدولة ترتيبا مطابقا لغاياته ومقاصده الخبيثة وعزم على قطع فوائد القنصليد والاوراق المالية والدولة مضطرة الى تأدية ديونها ولا سبيل الى الخلاص من تسديد الاقساط لان ارباب الاستحقاق هم من الاجانب اما نديم فتقدم الى السلطان قائلا ان الاتفاق على المسألة قد تم بينه و بين سفراء الدول وقال مثل ذلك للوكلاء وخرج من حلقة الجدال فائزا فتعجب الشعب من هذه الحركات والدسائس الشيطانية

اشتغل الروس باثارة الرأي العام ضد الدولة العثمانية بعد حرب القرم وصارت المعاهدات الدولية بعد موئتمر باريس حبرا على ورق واشتغلت جرائد العالم بانتقاد اعمال الحكومة العثمانية وكتب الكتاب المجلدات ونشرها بين شعوب اوربا ولما ظهرت الثورة في البلقان تركت على حالها واحتج محمود نديم باشا بوجوب عدم استعمال السلاح ضد رعايا الدولة المسيحيين لتسكين الرأي العام الاوربي وفي محاولته اليوم قطع فوائد القنصليد تبعا لاشارة سفير الروسيا ما يثير عواطفهم فزاد الطنبور نغمة في اوربا وقامت الثورة على ساق وقدم فرجح مدحت باشا الاستعفاء على البقاء وقدم استعفاءه في شهر شوال سنة ٩٢

صورة استعفاء مدحت باشا

ان معروض العاجز لايحتوي على شيء يختص بشخصه ومع هذا فاني اشكر رفاقي الا كابر والاصاغر غاية الشكر وقد اشرت الى اسباب استعفائي المشروحة في

معروضي ايضا وهي المشكلات الحاصلة في احوالنا العمومية فان امورنا المالية قد وصلت الى درجة غير مساعدة على الاصلاح وخرجت امور ادارتنا الملكية عن مجراها الطبيعي وصارت الادارة العسكرية في حالة يعجز القلم عن وصفها ولهذه الاسباب اختل الأمن في كل انحاء المملكة واظهر رعايا الدولة غير المسلمين ميلهم الى الاجانب والخلاصة فان الاغلاط والمساوئ المتوالية على هذه الدولة من عشرين سنة ستظهر اليوم نتائجها كما تدل على ذلك المقدمات ومع ان غوائلنا الداخلية كافية لالفات نظرنا الى الداخل انقلبت ضدنا الافكار العمومية في اوربا وصارت دول الغرب كلها ضدنا ونظرت الينا الدول المتحابة بعين الاحتقار وقد تأثر عبيد جلالة السلطان الصادقين من هذه الحالة اذ نظروا الى ما ستقع فيه الدولة من الكوارث بعد ثلاثة اشهر ولما كانت همة الصدر الاعظم منصرفة الى اصلاح هذه الاحوال كان يجب على هذا العاجز مؤازرته ومشاركته ايضا ولكني قد قضيت جل ايامي خارج دار السعادة في الولايات البعيدة ولا اقدر على النظر الى امور الحكومة في الازمات الشديدة التي نحن فيها اليوم فاطلب من جلالة مولاي وولي نعمتي الاعظم الاحسان علي بخدمة موافقة لاقتداري وقد قدمت معروضي متوسلا بشفقة ولي نعمتي بسائق المجبورية

٢٩ شوال سنة ١٢٩٢ مدحت

خلا لمحمود نديم باشا الجو لان حسين عوني باشا قد ابعد الى بروسه ومدحت باشا قدم استعفاءه فقطع فوائد القنصليد وفوائد السهوم وظن امور الدولة المالية قد وصلت الى الغاية المطلوبة بهمته وذكائه وحسن تدبيره ثم اشتغل باصلاح الامور الداخلية وقدم اليه اغناتيف سفير الروسا لائحة ممسوخة من اللوائح التي كان مدحت باشا قد احضرها ومن محتويات هذه اللائحة ان يكون الحاكم القاضى في البلدة من جنس الاكثرية وان تشكل عساكر من اهالي القرى في البلاد التي يقطنها البلغار وان ينقل الشراكسه من الروميلي الى الاناضول وان يؤخذ من واردات الولايات مقدار معلوم في المائة للحكومة المركزية ويترك بقية الايراد

لمصاريف الولاية وان يقيم العساكر في الاماكن المحتوية على قلاع وثكنات ويتركوا غيرها وغير ذلك من الامور التي لا تنفع البلاد ولا تفيد العباد ولاجل التصديق على هذا النظام احال نديم أمر النظر فيه الى احد صنائعه وهو امين باشا ناظر المالية الاسبق فشكل قومسيونا تحت رياسته وعدد اهالي الروميلي المسيحين يربو على عدد المسلمين في كل الاقضية واذا طبقت مواد هذه اللائحة كانت نتيجتها تسليم كل الولايات الروميلية الى البلغار وقد اعترض اكثر الوكلاء على هذه اللائحة اعتراضاً شديداً فبقيت غير نافذة وعرف الناس نيات محمود نديم باشا الخبيثة وكثرت المقالات والانتقادات واعلن القرار الصادر في مسألة السهوم وهو يقضي بتوقيف النصف واعطاء النصف وعرف الافرنج ان النصف الثاني لا يعطى ايضاً فبدأت الشكايات ترد من اوربا كالمطر وكثر القيل والقال في الاستانة بسبب الخطوب التي تتوالى على الدولة منذ ثلاث سنين وتعرضت ثروة الكثيرين للضياع وزادت هذه المسألة الطنبور نغمة والطين بلة

وبينما كان الشعب مشتغلاً بمسألة السهوم اصدر محمود نديم باشا أمر اعلن فيه ان السراي مستثناة من هذه المسألة واخرج من خزينة المالية فائدة سبعة ملايين ليره كان السلطان عبد العزيز قد ادخر بها سهوماً اخرج محمود فائدة هذا المبلغ من خزينة المالية على مرأى ومسمع من الشعب وقدمها الى المابين فتعجب الناس من هذا الحادث الخطير

كانت الثورة في البلقان تتقدم وتمتد فمن (قزانلق) الى (فلبه) و (زغره) و (السلميه) و (جربان) و (بزارجق) وكانت البرقيات ترد الى الباب العالي كالمطر الوابل طالبة ارسال الجنود والامداد بالمال فلم ترسل الحكومة جندياً واحداً وتوجه الى والي ادرنه والى (زغره) و (قزانلق) في عدد من العساكر وقبض على بعض الاشقياء وحذا حذوه عزيز باشا متصرف فلبه فعذبهم محمود نديم باشا ولامهم اشد اللوم وعزل عدداً كبيرا من القائمقامين لانهم تعرضوا للاشقياء فوقع الاهالي في مصيبة وتأهبوا للدفاع عن انفسهم وبعد ايام هجم البلغار على قرى المسلمين

واحرقوا منازلهم واطفالهم ونساءهم وشيوخهم وبعد كل ذلك وصلت الاخبار الى السلطان عبد العزيز فامر بارسال الجنود بعد خراب البصرة فارسلت الى بعض البلاد وكانت المسألة قد وصلت الى دورها الاخير فقال عنها محمود باشا انها ناتجة عن خطاء الاهالي وظلم العساكر فسبحان مقسم العقول وكانت حكومة الروسيا وحدها قد رتبت هذه الثورة واذاعت في جرائد اوربا بواسطة سماسرتها ان الاتراك يقتلون المسيحين فقامت قيامة الجرائد وخطب الخطباء الخطب الثورية في العواصم المتمدنة فقطعت اوربا الأمل في اصلاح بلادنا وبرهنت على ذلك بكذبنا في كل اعمالنا ومخالفتنا الحقيقية فلو سموا لنا السعادة والثروة والرقي وكل شيء حسن باسم الاصلاح لرفضناه رفضاً باتاً لا لشيء سوى اسمه القبيح على مسامعنا فنحن اعداء الاصلاح اي اعداء انفسنا وعدو نفسه هو عدو ربه وعدو اخوانه وعدو المروءة وعدو الانسانية وعدو كل شيء ولما ارسلت الحكومة بعض الموظفين للبحث عن اسباب الثورة ارسلت روسيا بعض جواسيسها الى تلك البلاد وخدعت الموظفين فقدموا الى الباب العالي تقارير مغايرة للحقيقة واذاعت جرائد الهند وامريكا ان الاتراك يذبحون النصارى ويظلمونهم وكانت الاحوال في الداخل تساعد على تصديق تلك الاشاعات لانتشار الظلم وسوء الادارة وتعامي الحكومة عن كل شيء كل ذلك بسبب سوء ادارة محمود نديم باشا واستسلام السلطان له ولسده اذنه عن سماع ما يعزى اليه من المسائل الظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار

كانت حالة الروميلي الثورية تنذر بالخطر ومحمود باشا لا يعير تلك المسائل نظرة بل يشتغل ليلاً ونهاراً بما يسميه باصلاح المالية وقد جمع كل ديون الدولة واراد توحيدها وحاول عقد قرض قدره (١٠) ملايين من الليرات وعين المندوبين والسماسرة لعقد القرض وقرر ارسال مليون من الليرات الى المابين بعد اخذ المال وقدم بذلك صكا الى السلطان وقد وجد الصك بين اوراق عبد العزيز بعد خلعه

الاسباب والنتائج

ذكرنا في اول الكتاب مسألة السلطان عبد العزيز وذكرنا ايضاً نفي مدحت باشا وقتله في الطائف واحببنا ايقاف القاري الآن على الاسباب التي حدت برجال الاصلاح الى خلع عبد العزيز وذكرناها واحدة بعد واحدة وكل من قراء هذا الكتاب يقف على احوال الدولة العمومية في زمن عبد العزيز على وجه الاجمال وسنذكر في غير هذا الكتاب (اي في كتاب محاكمة مدحت باشا) اسباب خلع عبد العزيز مفصلة بزيادة ايضاح مع ذكر محاكمة مدحت باشا في محكمة يلدز ليقف القارىء على الاسباب التي سببت وقوع الدولة العثمانية في هاوية الافلاس والخراب واليأس والجزع فاصبح كل عثماني يندب حظ دولته عالماً ان مصيرها الى الانقراض والانحلال

على ان العثمانيين من موءسس الدولة الى السلطان محمد فاتح الاستانة قد حافظوا على كيان هذه البلاد بالعدل والحرية والمساواة فقد دخل محمد الفاتح الاستانة وترك لأهلها حرية العبادة ودعا اليه بطريق الأروام واعطاه الفرامين الباقية لليوم في يد هذه الطائفة واراد السلطان سليم قتل مسيحى الروميلى وطلب من زنبيلى على افندي شيخ الاسلام اصدار فتوى شرعية بقتلهم فقال له الشيخ ان الدين الاسلامى لا يأمر بقتل هوءلاء فلهم ما لنا وعليهم ما علينا فعدل السلطان عن نيته

وخلف السلف قوم اضاعوا الملك واتبعوا الشهوات وارادوا جعل الارمني والرومى واليهودي والشركسى والعربي والكردي اتراكاً قبل اصلاح الحكومة واعداد اللغة التركية لقبول المتمدنين وجعلها لغة علوم وفنون فان الارمن يقولون نحن رجال عمل وفي يدنا التجارة والصناعة فان الرجل منا يتوجه الى باريس ويعمل اعمالاً يجارى بها اهلها فيصير تاجراً واليهودي قد اشتهر بالاقتصاد والرومى يشغل مركزاً تجارياً في بلاد الدولة العثمانية وفي كل عواصم الدنيا من امريكا الى السودان المصري والعربي يقول انا ولي نعمة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

فعني اخذوا التمدن والعلوم والفنون والصنائع وعني انتقلت المدنية الى اوربا فقد احيا اجدادي العلوم وهذه اثارهم في الاندلس وفي بغداد تشهد بها اوربا قبل تركيا وكل هذه العناصر من ارمنية وعربية تقول لهؤلاء ياهؤلاء كيف اكفل مستقبلي اذا تركت لغتي وقومي وتجنست بجنسيتكم فهل اكون تركياً وتاجرا وانتم لا تعرفون التجارة ام اكون تركياً وعالما ولسانكم بعيد عن العلوم والمعارف او هل اكون تركيا وصانعاً والصنائع مفقودة في بلادكم

كل هذه الامور لم يسمع بها احد في تواريخ الامم البائدة ولا في حكومات الاعلام ولم يرد عن ذلك نص في الشريعة الاسلامية او كلمة في الدين الاسلامى فقد قال النبي عليه السلام لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى وقال تعالى في كتابه العزيز ان اكرمكم عند الله اتقاكم

ومن العجيب اننا لم نسمع بذكر العناصر والعرب والترك والشراكسة والاكراد والارمن الا عند وقوع الازمات وتوالي الكوارث ذلك لان الثورات في داخل البلاد تظهر بسبب استبداد الحكام وضغط الحكومة على الأهلين فاذا ثار الكل ووقفت الحكومة عاجزة استعانت بالمسلم على المسيحي قائلة ان نظر هذا المسيحي يطمح الى تسليم البلاد لدولة روسيا او فرنسا مثلا ليشتغل المسلم عن النظر الى ظلم الحكومة بمعاكسة اخيه المسيحي واذا ثار ثائر الاكراد مثلا قالت الحكومة لاتراك الاناضول ان هؤلاء الاكراد يريدون تأسيس حكومة كردية وغرضها بذلك اشغالهم عن طلب الاصلاح بمحاربة اخوانهم في الدين والوطن ولكن هذا العلاج لا ينفع فان العصر الحاضر قد ساق الناس بطبيعة تنازع البقاء الى التعلم رغم انف الحكومة المستبدة التي تريد ابقاء الشعب جاهلاً لتجتز صوفه وتحلب لبنه ويكون كالبقرة السمينة تحاب وتذبح وليس لها نصيب من صاحبها سوى التبن

ولا بد ان يأتي على الكرة الارضية يوم يتجرد فيه الملوك عن الزخارف ويساوون افراد الشعب في مرتباتهم ومعايشهم فقد قدمت هذه العادة واصبح الفقير لا

يتنزل الى احنا رأسه امام الملك ولماذا يحني رأسه امامه الأن اباه قد أمر جيشاً عرمرما وهو جالس على كرسي عظمته ففتح البلاد واجهد العباد فاذا كانت هذه الاسباب هي التي تحتم على الفقير التزلف للملك والسجود بين يديه فقد كان جد الملك يوم فتحت البلاد جالساً فوق عرش عظمته بين جواريه وخدمه ووزرائه وعبيده وامائه وكان ابو الفقير وعمه وابن عمه في ميادين القتال فاجداد الفقير قد خدموا الوطن اكثر من اجداد الملك بكثير واذا اعلن العدو حرباً خارجية او ثار الشعب في الداخل فان الفقير يندمج في سلك الجنود ويعرض صدره لرصاص العدو الخارجي ويقابل أخاه في الوطن وجهاً لوجه فيقتل ويقتل في الثورات الداخلية وفي الحروب الخارجية فالفقير افضل من الملك ولا بد للشعوب من القضاء على تلك المظاهر الفارغة في عصر التمدن والحرية و المساواة

فاذا كان المفكرون يجهدون انفسهم لايجاد وسيلة للتخلص بها من الملوك فكيف يرشى الحكومة مثلا زيد المسلم أو عمرو المسيحي ويأخذ وظيفة وهو من افراد الشعب واذا جلس على كرسي عظمته صار من اكبر انصار الاستبداد وكيف يقبض هذا المستبد الاموال المتحصلة من عرق جبين التاجر والزارع والنجار والحداد ثم يستبد برافقهم وهو يأكل خبزهم وينال اجرته من اموالهم

ان الشعوب تسقط الحكومات وتخلع الملوك الذين هم اولى من غيرهم بالتعاظم والكبرياء والشعب يتحمل استبداد فرد ولا يطأطىء رأسه لآلاف وملايين من المستبدين ٠ قد آن للجماعات عدم الخضوع للجماعات ولا للأفراد فللشعب فقيره وغنيه حق الاشراف على أمور نفسه والمرء باصغرية قلبه ولسانه لا بأبيه وجده ووظيفته وثروته واستبداده يشتغل التاجر بالمرابات فاذا صار من ارباب الثراء رشح نفسه للانتخابات وطلب الاندماج في سلك اعضاء مجلس الامة او الجمهورية فاذا ابذل الاموال والوف الليرات للوصول الى بغيته شمخ بأنفه وتعالى وتطاول على حقوق الامة التي هو ربيب نعمتها ولم يشمخ بأنفه الان خزائنه مملوءة بالاموال والمال في خزانة الغني ملك له ولا شأن فيه لزيد ولا لعمرو فلم يشمخ

عليهم بأنفه الان اموال الامة قد وصلت اليه بالدسائس والفظائع والمراباة وارشاء الحكام فهو وايم الله نص قد لوث نفسه بدم الامة و يريد ان يشمخ عليها بأنفه بعد امتصاص دمها وحجز اموالها

وهذه الادواء الاجتماعية هي من ادواء الامم لا من فظائع الاغنياء فقد اعتاد الشعب اكرام الاغنياء بالتوارث فصارت عنده عادة اعزاز ارباب الثراء وراثية واذا لم يترك هذه العادة ضاع مستقبل افراده بين سرقات الاغنياء وظلم المستبدين فكيف تحفظ الشعوب حياتها بعد اليوم بين هاذين العاملين المهمين

رأى الملوك شدة الحاجة الى المال فقربوا الاغنياء وشاركوهم في التجارة والصناعة وملأوا الخزائن بالذهب والفضة وهم لايحبون الاغنياء لهذه الغاية وحدها بل لانهم مستبدون والمستبد يحب المستبد

لم نر في تواريخ ثورات الامم التي خلصت بها حريتها من ايادي المستبدين غنيا بذل امواله او جزءًا من امواله لتحرير شعب ورأينا الكتاب والاطباء والمحامين والشعراء يبذلون مهجهم على مذابح الحرية لتخليص بلادهم من ربقة الاستعباد ولذلك فنحن نرى مستبدي الملوك يبغضون الكتاب والمحامين والاطباء والشعراء لانهم خدام الهيئة الاجتماعية

قال لويس الرابع عشر عن جان جاك روسو لو اعطيت هذا النمس لقبا من القاب الشرف والفت مجلسا علميا وجعلته رئيسا له لترك تأليف كتابه العقد الاجتماعي وكفاني شر نفسه ولكن ما الحيلة وقد نبه الامة الى المطالبة بحقوقها

فبمثل روسو وهيجو وديماس وغيرهم من الكتاب قد وصلت الشعوب الى درجات العز ولم نسمع بان احد الاغنياء قد ساعد أمة على الخلاص من اغلال الاستبداد

يقتصد الكاتب من مصاريفه اليومية قسما ليشتري جريدة او مجلة وترى المجلات والجرائد مكدسة فوق طاولة الغني (ان كانت له طاولة) لم يفضض غلافها لانه لايقرأ ولا يكتب فالعلم عنده هو مخادعة الناس وابتزاز أموالهم

واذا كان الغني من الشرقيين اخذ الجريدة من البريد وقرأها سنة او سنتين واذا طالبه صاحبها بقيمة اشتراكها رفض دفع الاشتراك واغتصب مال الصحفي فالاغنياء هم اعداء الكتاب والشعراء بل اعداء الحرية ففي خزائن بعضهم الوف المجلدات من الكتب الموروثة عن ابائهم واجدادهم التي اشتروها يوم كان الاغنياء يتنافسون بشراء الكتب وهم يحبسونها في بيوتهم ولا يتركونها للفقراء ولا لاحدى المدارس فتنتفع بها فهم اعداء العلم

في بيوت الاغنياء غيد حسان لم يمسسهن انس ولا جان وفي البلاد شبان لم ير احدهم امرأة في ايام حياته والغيد الحسان يملن طبعا الى الشبان وطالما حصل ما لا يليق ذكره بسبب منع البنات عن التزوج وحبسهن في بيوت ارباب الملايين الذين قد تركوا المعاملة النسائية اذ بلغوا من العمر ارذله بيد انهم يريدون التمتع باللذات البهيمية الى آخر ايام حياتهم الممقوتة فيسببون للغيد الحسان اسباب المحن والاحن فالاغنياء هم اعداء العرض والشرف

يتقدم الغني الى القاضي فيطلب منه تعيينه وصيا على ايتام زيد المتوفي ويقدم له الرشوة فيقبل القاضي واذا عينه سرق ما وصلت اليه يده من مال اليتيم ورباه تربية ابناء الاغنياء فلم يعلمه لانه لم يذق لذة العلم واذا كبر اليتيم سلمه امواله ناقصة بعد اختزال قسم كبير منها ويكون اليتيم قد تعلم الخسة والدناءة وسوء الاخلاق فيصبح عالة على الهيئة الاجتماعية وعلى الانسانية والشرف أيضا فالغني اذن عدو الهيئة الاجتماعية عدو الشرف

كيف بقيت اعمال مدحت باشا عقيمة

كان الشعب العثماني غير متعلم فأثرت فيه اختلاقات رجال السراي السلطانية واقوال جرائد مصر والاستانة المأجورة فقد اشاعت عن مدحت باشا خبر عزمه على خلع السلاطين وابادة العائلة المالكة وجعل الحكومة العثمانية جمهورية فصدق الشعب الجاهل تلك الاشاعات الكاذبة

وكان الكبراء والعظماء والاغنياء وهم عباد الملوك وشركاؤهم يسبون مدحت

باشا ابا الدستور الى يوم اعلان القانون الاساسي في تركيا واسس الكتاب الروايات التاريخية وذكروا فيها واقعة عبد العزيز وعزوا الى محمود نديم باشا الصدق والاخلاص والوطنية والاستقامة والى مدحت باشا الخيانة والمروق عن الوطنية واتباع دسائس الانكليز والعمل باشارتهم واكثر الكتاب في الشرق يخدمون افكار الملوك والاغنياء ويظنون ان مؤلفاتهم لا تلاقي رواجا الا اذا نظر اليها هؤلاء بعين الرضى وهو فكر باطل لان الغني لايشتري كتابا ولا يقرأ صحيفة والملوك قد اشتهر اكثرهم بالجهل في الشرق واذا سمعنا ان ملكا يقول الشعر او يشتغل بالعلوم وجب علينا عدم التصديق لان الشعراء في البلاد الشرقية طالما نظموا قصائد وعزوها الى الملوك لذر الرماد في اعين الشعوب

نعم لاننكر علم رجل كالخليفة المأمون او سيف الدولة وهم من النوادر التي لا يقاس عليها في الشرق

والشعراء والكتاب يسيؤون الى المجتمع الانساني اذا اتبعوا في كتاباتهم ومؤلفاتهم افكار الملوك والاغنياء

بقي الشعب العثماني يرسف في قيود الذل ثلث قرن بعد خلع عبد العزيز بسبب اكاذيب الكتاب والسماسرة ونام الشعب نومة طويلة الله اعلم متى يفيق منها فان الاغنياء يميلون الى الاستبداد كما قدمنا والكتاب والساسة لايملكون شيئاً ومن اين يوجد كاتب في عاصمة كالاستانة التي لا توجد بها مدرسة منتظمة الى اليوم وقد امتنع افراد الشعب العثماني عن ذكر مدحت باشا فكان الوالد لايسمى ولده بهذا الاسم فاصبحت الاستانة وعدد سكانها يناهز المليون لاتحتوي على من يدعى بمدحت سوى رجل صحفي من صنائع عبد الحميد سماه والده بهذا الاسم قبل حادثة الطائف المشأومة واشتغل الشعب العثماني بالتجسس ثلث قرن فكان الولد يقدم الى عبد الحميد تقريرا ضد والده والزوجة تتجسس احوال زوجها والجاويش بجاره لنيل الاموال والرتب والنياشين والوظائف لان الاستانة والولايات خالية من الصنائع والزراعة والتجارة والافكار العمومية لم تثقفها التربية لليوم لخلو البلاد من المدارس

وخلت الاستانة من الجرائد سوى جريدتين كانتـا تذكران السلطان باسم وارث الفاروق وخبر الخلفاء وغير ذلك من الالفاظ التي لا يمكن ان يلقب بها غير الله جل وعلا

واشتغلت السراي اذ ذاك بارشاء جرائد اوربا فكانت سفارة باريس وحدها تصرف (٥٠) الف ليرة من مال الشعب العثماني لجرائد باريس بواسـطة صالح منير باشا سفير الدولة العثمانية وانتشر الجواسيس في الاستانة في الاسواق والقهاوي وفي قصور اعضاء البيت المالك وفي بيت ولي العهـد و بيوت الاصهار وكانت بين هؤلاء الجواسيس طائفة من النساء يدخلن البيوت لالتقاط الاخبـار وامتلأت نظارات المعارف والاوقاف والخارجية والداخلية وغيرها من نظارات الدولة بالجواسيس وكان الوالي يأخذ كل شهر (٥٠) ليرة عدا مرتبه من مصاريف التجسس والعضو في مجلس شورى الدولة يأخذ مثل هذا المبلغ واشتهر جماعة من الجواسيس في الاستانة مثل عبـد الغني بك وفهيم باشا ومحمد باشا الشركسي فكانوا ينهبون الاموال و يفتضون العذارى و يقتلون النفوس والسلطان ينظر اليهم من بعيد ولا بد من مرور نصف قرن على الامة العثمانية لتطهير الاخلاق العمومية من دنس التجسس فقد ابقى اثرا سيئاً في الاستانة وفي العائلات الكبيرة وفي الشبان والشيوخ والنساء وفي كل مكان فأفاق جماعة من ابناء الوطن لا علاقة لهم بالاستانة ولا بيلدز وليسوا من اهل الاناطول وتوجهت انظارهم الى الخطر المحدق بالوطن واجبروا السلطان على اعلان الدستور فتعجب النـاس من جرأتهم واعمالهـم لان مدارس الاستانة كانت مملوءة بالجواسيس وكان معلم التاريخ يقول للتلاميذ في اثناء الدرس ان بلغاريا وقبرص ومصر والصرب والجبل الاسود والبوسنه والهرسك هي من ولايات الدولة وكان التلاميذ يقرأون عن السلطان عبـد العزيز انه مات شهيدا ولا يقرأون اسم مراد ولا رشاد فمن اين تعلم الذين قاموا بالثورة في الروميلي هـذا الدرس الثوري واجترأوا على تلك الحركة وحال المدارس كما ذكرنا

الجواب على السؤال السالف سـهل وهو ان بلاد الروميلي مملوءة بالبلغاريين

و بلغاريا هي ام الثورات وهناك اساتذة البلغار الذين قد تلقوا دروسهم في صوفيا ومنهم لا من غيرهم تعلم رجال الحركة الدستورية كيف تدار الثورة وحسبنا على ذلك ان اهالي الاستانة قاموا بعد فترة من الزمن قومة رجل واحد وقتلوا عددا من الدستوريين وارادوا قلب المملكة من دستورية الى ملكية وتحفز اهل الاناطول في انقره وقونيه وقسطموني للثورة ضد الدستور حتى ان مفتي قسطموني أعمى زاده محمد امين افندي قد افتى اذ ذاك بوجوب قتل الدستوريين شرعا لان الاحكام الدستورية مخالفة للقرآن والسنة والدين الاسلامي على زعمه وبعد اصدار هذه الفتوى مات الرجل خوفا ولولا دخول فيلق الحرية الى الاستانة لاصبح الدستور حبرا على ورق وارسل الدستوريون الى الطائف وقلاع الاناطول وشنق اكثرهم في ميدان السلطان احمد

فالافكار الثورية قد دخلت بلادنا من بلغاريا لا من فرنسا ولا غيرها من البلاد وحسبنا ان اكثر رجال الثورة لم يفارقوا رجال الروميلي ولا توجه احدهم الى اوربا الا بعد اعلان الدستور

لو بقي مدحت باشا

لو بقي مدحت باشا حيا واطاعه عبد الحميد لاصبحت تركيا اليوم من اكبر بلاد العالم من حيث العمران والثروة والقوة والمنعة لان الرجل كان يشبه اللورد كرومر و بسمارك وغمبتا وغيرهم من عظماء الرجال

ولو قسنا اعماله واعمال غيره من الرجال لرأينا الفرق كبيراً لان كامل باشا وكوچك سعيد باشا لم يعملا ربع ما عمله من الاعمال فقد كان السلطان المخلوع يوجه الى احد هذين الرجلين مسند الصدارة عند اشتداد الكوارث لا لسبب سوى انهما يعرفان اللغات الاجنبية فكانا يرقعان الامور ترقيعا و يعقدان المعاهدات بين الدولة العثمانية و بين الدول ولم يفعلا شيئاً يعود على الحكومة بالعمران ولو توجه سائح الى بغداد و بيروت وسلانيك ونظر الى آثار مدحت باشا لرآها باقية لليوم وهذا كامل باشا قد عينه عبد الحميد (١٥) سنة واليا لولاية ازمير فلم يترك

جزءاً من عشرة من مثل الآثار التي تركها مدحت باشا في ولاية بغداد بعد ان اقام بها ثلاث سنين

كان مدحت باشا اذا فكر في امر أقدم عليه من اول يوم وابتدأ باجرائه بعكس رجال الدولة العثمانية الذين يقضون اوقاتهم باحضار اللوائح وشرب القهوة والشاي ولا يعملون عملا الا بعد المذاكرات الطويلة والاخذ والرد واذا اقدموا على عملا تركوه بعد المذاكرات الطويلة والقرارات التي تجلب الصداع

لم يسمع احد ان مدحت باشا مكث شهرا او شهرين لاحضار لائحة بل رأى الناس السفن تملأ بالاسلاك بعد توليته مسند الصدارة باسبوعين وسألوا عن السبب فقيل لهم انه عازم على مد الخط التلغرافي بين الشام والحجاز ورأوا بعد ذلك باسبوع المهندسين يتوجهون الى طرابلس والى بغداد لترسيم خريطة خط بغداد الحديدي

رأى الناس رجلا في يده المسبحة يقرأ الاوراد ويصلي الاوقات الخمس ولم يتعلم سوى اللغة الافرنسية بعد ان جاوز سن الاربعين وتعلم في ايام صباوته في مدارس الفاتح وقرأ دروسه على المشايخ ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

رأى الناس رجلا واقفا على قوانين الدولة يحضر له السلطان محكمة مخصوصة لمحاكمته في يلدز فيجيب القضاة بكل جسارة ويزيف مدعياتهم كامهر المحامين ورأوه في مؤتمر الاستانة يحل مشاكل الدولة ويحادث السفراء فيقولون من اين أتى هذا الداهية واين تربى وهل يوجد بين الاتراك رجل هذه صفاته وعلى اي استاذ تلقى دروس السياسة وعرف المعاهدات السياسية فلو بقي مدحت باشا حيا في منصب الصدارة (١٥) سنة لأوصل الدولة الى اعلى درجات الرقي ولكن عبدالحميد ابى الا الاستبداد بالملك فحفر قبر الرجل بظلمه وحفر بجانبه قبر الامة فقضى على الاثنين في يوم واحد لان تركيا لاتعود الى مجدها السالف ولن تعود ابدا الا اذا من الله عليها برجل مثل مدحت باشا وهذا الرجل غير موجود لان الطبيعة لاتجود بواحد من هؤلاء الامرة في كل قرن

الدين والاستبداد

من الذرائع التي يتذرع بها المستبدون للاستيلاء على الامم البائدة ضمهم السلطة الدينية الى السلطة الادارية وشراؤهم ذمم المعممين بثمن بخس دراهم معدودات وعزوهم ما لا يشبع جشعهم ويملئ بطونهم الى مخالفة الدين فاذا قام الشعب وطلب الافراج عنه ومنحه القوانين العادلة والحرية التامة والمساواة الحقيقية جبهة المستبد بذكر الدين والدين يأمر بالعدل والاحسان ولكن الملوك يشترون ذمم المعممين باموال الشعوب البائسة فيقول هؤلاء ملك غشوم خير من فتنة تدوم والسلطان ظل الله والتوراة والانجيل والقرآن وكل الشرائع السماوية والقوانين الموضوعة لاتفرق بين الملك وبين رعيته ولكن الملوك يجدون لهم من الاغنياء والعلماء انصارا لم يكتفي الملوك بجعل عروشهم ميراثا لابنائهم يتوارثونها كابرا عن كابر وقد كانت الامم في سالف الاعصر تنتخب الملوك انتخابا فلم يقنع المستبدون بكتابة الصكوك لابنائهم واحفادهم وجعل العروش كسلع يرثها الابناء عن الآباء بل ملأوا خزائنهم بالنضار لان المرتبات التي ينالها ابناؤهم من دماء الفقراء بعد هلاكهم تكون غير كافية على زعمهم وكانهم نظروا الى الامم التي قد ساقها سوء الطالع الى الخضوع لاستبدادهم وعلموا انها ستنقرض على تمادي الايام او ينتقل الملك الى غيرهم فاقتنوا الضياع وجمعوا الاموال ليصبح ابناؤهم في عداد الاغنياء ذوي الملايين يوم تغير الدول القوية وتنتزع منهم الملك الموروث عن الآباء والاجداد

مات النبي العربي الهاشمي وقال قبل موته نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه فهو صدقة وكان الخلفاء الراشدون لايملكون شيئاً ولكن ملوك الشرق يبتزون اموال الرعية ويتركون ابناءهم بين الاماء والجواري والخصيان فاذا تولى احدهم الملك بدد وغير وبدل واحاط نفسه بالعلماء فقالوا عدوك عدو الله ومن عصاك فقد عصى الله ولذا فقد كثر قول القائلين بان الدستور لايوافق الشرع في زمن عبد العزيز وعبد الحميد

ولم يستعن عبد الحميد وعبد العزيز وحدهما برؤساء الاديان بل كل ملوك

الشرق المستبدين قد اتخذوا الدين العوبة واستعانوا بالعلماء على ترويج مقاصدهم وجهل ابناء الشرق دينهم ولم تنشئ لهم الحكومات الاستبدادية المدارس لتعليمهم وتهذيبهم لعلمها ان الشعب الجاهل يطيع رؤساء الاديان ورؤساء الاديان يرضون بالقليل من المال ويعبدون المستبد عبادة ويطأطؤون له الرؤوس ذلا وخضوعا لانهم لايجدون ما عنده من الاموال في يد الشعب والشعوب في نشأتها الأولى لاتملك شيئاً بل يكون افرادها كالغنم السارحة في الليلة الماطرة ولو نظر الانسان الى نفوذ بعض المشايخ في صحاري افريقية وفي بلاد العرب لعرف السر في تقريب الملوك الرؤساء الدينيين فان في بلاد العرب اليوم مشايخ قد وصلت درجاتهم الى درجات الملوك فاصبحوا عالة على الشعب لانه يظن انهم هم الواسطة الوحيدة بينه وبين الخالق جل وعلا فهو يسجد امامهم ويطعمهم ويحارب اعداءهم للذود عنهم ويسمى حربه جهادا ظانا ان بقاء الدين لايتم الا بحياة الشيخ

يترك الشيخ ابنه وحفيده فيجلس على تخت عظمة ابيه ويتحكم في اموال الشعب باسم الدين والدين بعيد عن السلطة الادارية

وفي القبائل البربرية عدد غير قليل من المشايخ يسميهم العامة بالسادة وهم كملوك البوادي

لعب المستبدون دورا مهما باسم الدين واستعان عبد الحميد على الطوائف الغير مسلمة بالمشايخ فكانوا ينشرون مبادئه الارستقراطية بين العوام والشعب يظن ان المعممين ينطقون باسم الله وباسم نبيه وطالما ذبح اجلاف الاكراد رعايا الدولة الارمن ذبح الاغنام وقد تكررت هذه الاعمال الوحشية مرارا باسم الدين حتى قال الافرنج وغيرهم ان الدين الاسلامي بعيد عن المدنية والدين بريء مما يقوله مشايخ الاستانة وانصار عبد الحميد

الدين قد كتب بلغة العرب وعلماء الاتراك لا يعرفون كلمة من اللسان العربي فكيف يلقنون العامة عبارات تنفر منها الوحوش باسم الدين الحنيف وقد اجمع الفلاسفة على ان الدين الاسلامي مبني على الديمقراطيه وان النبي العربي كان يجالس

على الارض ويأكل وينام عليها ويجالس الفقراء ويساوي بينهم وبين الاغنياء

لم يقل الافرنج الجهلاء وحدهم ان الدين الاسلامي بعيد عن المدنية بل جاراهم على ذلك شبان الاتراك المتعلمين فان الواحد منهم يتعلم اللغات الاجنبية ويقرأ كتب الافرنج ولا يفقه كلمة من القرآن ولا من الحديث ومع ذلك فهو يقلد الافرنج ويطعن في الدين قائلا انه السبب في تقهقر الامة العثمانية وبقائها جاهلة بعيدة عن الحضارة والعلوم والفنون والاختراعات

والافرنج نفسهم يقرون بالحضارة العربية فلم لم يؤخر العرب دينهم كما اخر الاتراك وحكم عليهم بالذل والجهل

اعتنى الخلفاء والعلماء في عصر الدولة العباسية بتدوين العلوم الاسلامية فوضعوا اصول الفقه واستنبطوا احكامه ودونوا الاحاديث النبوية وتفسير القرآن وعلوم العربية واستخرجت علوم البلاغة ووضعت لها القوانين والشواهد ووضع العروض وحصرت اوزان الشعر العربية في دوائرها الخمس والفوا وترجموا كتبا في الطب والهيئة وفي العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة وتقويم البلدان والتاريخ العام وتاريخ الاشخاص واعتنوا باللغة وضبطها وتصرفوا فيما ترجموه فنقحوا وهذبوا وزادوا واستنبطوا واصلحوا كثيرا من اغلاطه وقد وسعت اللغة العربية كل العلوم التي الفت بها او نقلت اليها ولم يدخل من الالفاظ الاعجمية الا شيء يسير واكثر ما وقع ذلك في الكتب التي عربها من لا يحسنون العربية

واول من اعتنى بالعلوم وتدوينها من الخلفاء العباسيين ابو جعفر المنصور فاخذ في انشاء المدارس الطبية والشرعية وكان بارعا في الفقه ومع ذلك فقد خصص جزءا من زمنه لتعلم العلوم الفلكية وامر بكتاب اقليدس فترجم في زمنه في الهندسة والهيئة والحساب واكمل حفيده الرشيد ما بدأ به جده وكان باذلا جهده في احياء العلوم والآداب ونشرها وكتب في ايامه مصنفات كثيرة في العلوم الاسلامية وغيرها مما ترجم عن اليونانية ومن ذلك كتاب المجسطي الذي الفه بطليموس في الرياضة السماوية وكان المترجمون من السريان المسيحيين فاحسن الخلفاء صلتهم

وافاضوا عليهم النعم وكان اكثرهم غير متمكن من العلوم التي نقلوها الى العربية فوقع فيها الغلط الكثير فصحح الغلط الراسخون في العلم من العرب في زمن المأمون وما بعده كما صححوا كثيراً من غلط اليونانيين انفسهم وكان اشتغال العرب بالعلم للعمل به فتناولوا الكتب التي ترجموها من قوم كان حظهم منها حفظها على انها من نفائس الذخائر ومآثر الجيل الغابر وقد ظهر اثر العمل في زمن الرشيد فمن ذلك الساعة الدقاقة المتحركة التي ارسلها الى شرلمان ملك فرنسا عظيم اوربا لعهده ففزع الاوربيون منها لذلك العهد وتوهموا انها آلة سحرية قد كمنت فيها الشياطين وان ملك العرب قد ارسلها اليهم لتغتالهم وتوقع بهم شر ايقاع وقد اجتمع في حضرة الرشيد جماعة من اكابر العلماء وكان يأتي بهم ويرفع منزلتهم وكلما ذهب للحج استصحب معه مائة منهم

ولما افضت الخلافة الى المأمون وجه عنايته الى العلوم والآداب وشغف بالعلم فلم يجالس غير العلماء وجمع وترجم كثيرا من كتب الفرس واليونان في الهيئة والطبيعيات وتخطيط الاراضي والموسيقا وغرس للعلم والادب جنانا ناضرة فزكا نبتها وتفتح نورها وطاب ثمرها ووصلت به دولة العلم الى أوج عظمتها وكانت بغداد في عهده مهد العلوم ومنبع العرفان ولما اصطلح مع ميشيل الثالث وضع ضمن شروط الصلح ان يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فاجابه الى بغيته والف علماء العرب في زمنه ارصادا وازياجا فلكية وحسبوا الكسوف والخسوف وذوات الاذناب وغيرها ورصدوا الاعتدال الربيعي والخريفي وقدروا ميل منطقة فلك البروج وقاسوا الدرجة الارضية واصلحوا بامره غلط بعض الكتب التي ترجمت في هذا العلم قبل زمنه

وجاء الواثق بعد المأمون وهدى هديه في الاشتغال بالعلوم واقتدى الوزراء والامراء بالخلفاء وحذوا حذوهم واخذوا جميعا بناصر العلماء وشدوا أزرهم ورفعوا منزلتهم

فاخذ العلماء بالاشتغال بكل علم وكل فن امكن الاشتغال به في ذلك العصر

وبنوا علومهم على التجربة والمشاهدة قال احد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عند العرب جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا وعند الاوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما

ومن العلوم التي كان للعرب فيها اليد البيضا علم الهيئة والهندسة وسائر العلوم الرياضية فانهم زادوا عليها من مخترعاتهم واصلحوا من اغلاط اليونانيين فكان لهم الحظ الاوفر في هذه العلوم قال ديلامبر في تاريخ علم الهيئة اذا عددت في اليونانيين اثنين او ثلاثة من الراصدين امكنك ان تعد من العرب عددا غير محصور ومن العرب اخذ الافرنج الارقام الحسابية وعلم الجبر والمقابلة الذي هو من وضع العرب وقد اخذوه باسمه ومسماه وقال بعض المؤرخين : ان ديفوتتوس الاسكندري من اهل القرن الرابع للميلاد هو اول من الف في الجبر وكتبه لاتزال موجودة الى الآن والحق ان هذه الكتب ليس فيها الا قواعد استخراج القوى وحل بعض المسائل وليس فيها اصول الفن وقواعده الاساسية التي امتاز بها وصار فنا مستقلا ومثل ذلك علوم البلاغة فقد قالوا ان مؤسسها وواضعها هو الامام عبد القاهر الجرجاني مع ان العلماء قد سبقوه الى الكلام في بعض مسائلها ولكنهم لم يبلغوا بذلك ان جعلوها علما ذا اصول وقواعد كما جعلها هو فهو صاحب القدح المعلي

واكتشف العرب قوانين لثقل الاجسام مائعها وجامدها ووضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة واخترعوا البندول للساعة اخترعه ابن يونس المصري والبوصلة البحرية واخترعوا بيت الابرة ايضا وهم اول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على اقسام الزمن واول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض

ومن علومهم التي وضعوها ولم يسبقوا عليها علم الكيميا الحقيقية فهي من اكتشاف العرب دون سواهم وعنهم اخذها الافرنج وانك لا تجد عند اليونانيين مجربا وتجد مئين من المجربين في العرب

وقد اشتغلوا بالطب والصيدلة ولهم في ذلك المؤلفات العديدة النافعة ومركبات الادوية الصالحة وهم اول من استحضر المياه والزيوت بالتقطير والتصعيد واول

من استعمل السكر في الادوية وكان غيرهم يستعمل العسل وكان حكام الاندلس يعتنون بادارة الصيدليات فيفحصون ادويتها ازالة للغش وقد برعوا في الجراحة فكان النساء في الاندلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية بغيرهن من الاناث وذلك ما يحث عليه اهل اوربا وامريكا اليوم ولهم في هذه الفنون مؤلفون يعدون في الطبقة الاولى من علماء العالم في العلوم التي اشتغلوا بها ولا تزال مؤلفات كثير منهم باقية الى اليوم كقانون ابن سينا ومفردات ابن البيطار واذا رجحت القول بان يونان اخو قحطان ترك بلاده ونزل بين الافرنجة والروم فاختلط نسبه بنسبهم كانت الكتب اليونانية بضاعة العرب ردت اليهم

ولم يكن اشتغال العرب بالجوغرافيا والتاريخ العام وتاريخ الاشخاص بأقل من اشتغالهم بالعلوم السابقة فلهم السياحات العديدة حول افريقية وآسيا وجانب من اوربا وقد رسموا ما اكتشفوه رسما حسنا ولهم في تقويم البلدان مؤلفات عديدة بعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع فمن الاول تقويم البلدان لأبى الفداء ومعجم ياقوت طبعا في اوربا ومن الثاني نزهة المشتاق للشريف الادريسي محمد بن محمد الصقلي كان في القرن السادس الهجري وهو الذي صنع لرجار الافرنجي ملك صقلية سنة ١١٥٣ اول كرة ارضية عرفت في التاريخ زنتها من الفضة ١٤٤ اقه رسم فيها جميع انحاء الارض في زمانه رسما غائراً مشروحاً بالاستيفاء وصنف له ايضاً كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مرتبا على الأقاليم السبعة وصف فيه البلاد والممالك مستوفاة مع ذكر المسافاة بالميل والفرسخ ومؤلفاتهم في التاريخ تفوق الحصر والفضل الاول في الاشتغال بهذه العلوم يرجع الى مدرسة بغداد التي كانت ينبوعا أصليا استمدت منه سائر المدارس الاسلامية قال بعض مؤرخي الافرنج ان العرب استقاموا عدة سنين على الطريقة التي وضعها علماء مدرسة بغداد واتبعوا قواعدهم وهي الانتقال من النظر في المسببات الى اجتلاء الاسباب لا يعولون الا على ما اتضحت صحته وعرفت حقيقته

وقد انشئت المدارس العديدة تباعا وجمعت اليها العلماء ولم يخل منها قطر من

الاقطار الاسلامية وازدانت بها بغداد والبصرة والكوفة وبخارى وسمرقند وبلخ واصفهان ودمشق وحلب والاسكندريه والقاهرة ومراكش وفاس وسبته والقيروان في قارة افريقيه واشبيليه وقرطبه وغرناطه وغيرها من مدن الاندلس العديدة في قارة اوربا وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة في القرن الرابع وفي قرطبة وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٦٦

واصبحت الاندلس في اواخر القرن الخامس غاصة بالمكاتب والمدارس الجامعة ولم تخل مدينة من مدنها من مدارس متعددة قال جيون في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء و بسط يد الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان من ذلك انتشار ذوق العلم ووجدان اللذة من تحصيله من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة

انفق وزير واحد لأحد السلاطين مائة الف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها خمسة عشر الف دينار تصرف في شؤونها كل سنة وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن اعظم العظماء في المملكة وابن افقر الصناع فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال ابيه والمعلمون كانوا ينقدون اجورا وافرة اه

وجميع المدارس الطبية في البلاد الاسلامية اخذت نظام امتحانها من مدرسة الطب في القاهرة وكان من اشد النظامات وادقها ولم يكن لطبيب ان يمارس صناعته الا على شريطة ان تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته وأول مدرسة طبية انشئت في قارة اوربا على هذا النظام المحكم هي التي انشأها العرب في ساليرت من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي اقيم في اوربا هو الذي اقامه العرب في اشبيلية من بلاد الاندلس وقد تعددت المراصد في البلاد الاسلامية شرقاً وغرباً ومن اشهرها مرصد بغداد المنشأ على قنطرتها وقد رصدت به عدة ارصاد وصححت جملة ازياج ومرصد المراغة الذي انشأه نصير الدين الطوسي بأمر هولا كوخان ولما اتم كوبلاسي

خان اخو هولاكو فتح الصين نقل مؤلفات علماء بغداد اليها ومرصد سمرقند الذي انشأه تيمورلنك ومرصد دمشق الذي انشأه مرزا محمد حفيد تيمور لنك وكان من اعلم علماء الفلك وله زيج مشهور معتبر الى هذا العصر وكان بمصر مرصد جبل المقطم انشأه ابن يونس الفلكي الشهير صاحب الزيج الحاكمي واما دور الكتب فلم تكن عناية الدول الاسلامية بها اقل من عنايتهم بالمدارس فقد كان في القاهرة في اوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على ماية الف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لاغير ومكتبة الخلفاء في الاندلس بلغ ما فيها ستماية الف مجلد وكان فهرسها اربعة واربعين مجلداً وقد اثبتوا انه كان ببلاد الاندلس وحدها سبعون مكتبة عمومية وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة واما ضخامة تأليف العرب فلا يحصرها العد وحسبك في المشرق كتاب قيد الأوابد للامام البنجذيهى المتوفي سنة ٥٥٩ من قرى خراسان في ٤٠٠ مجلد وفي الاندلس كتاب لابن ابان نحو ١٠٠ سفر بدأ فيه بالفلك وختم بالدارة والاعجب من كل ذلك كتاب فلك الادب الذي تعاقب على تأليفه جهابذة الاندلسيين ١١٥ سنة آخرها ٦٤٥ هجرية

ولقد احرق اهل اسبانيا من الكتب الاسلامية بعد جلاء المسلمين عنها ما يدهش لبيان عدده السامع ويحار المتأمل ويتوقف قلم الكاتب

فقد امر الكردينال الاسباني سيمتر بحرق الكتب فحرق (٨٠) الفا في ساحات غرناطة وهم لا يدرون عنها شيئاً حتى افنوا الف الف وخمسة آلاف على ما قال احد مؤرخيهم كلها مخطوطة باقلام العرب وليت الاسبان يخبرون كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم يذروا وما يقولون عن السفن التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الفخمة وطالبة ديار سكان مراكش فسلبوها والقوا كتبها في قصر الاسكوريال سنة ١٦٧١ ميلادية حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة ارباعها ولم يستخلصوا منها الا الربع الاخير ثم استفاقوا من غفلتهم وعلموا مقدار جهالتهم ففوضوا الى ميخائيل القصيري

الطرابلسي الماروني ترتيبها وكتابة اسمائها فكتب لهم اسماء ١٨٥١ كتاباً منها فعلى ما في هذه الكتب وما بقي في افريقية والمشرق قصر اهل هذه الايام معارف العرب ولم يستوعبوا جميع ما في هذه

واما مكاتب بغداد فانه لما فاجأها التتار بالهجوم بعد قتل الخليفة المستعصم اخر الخلفاء العباسيين جعلوا دأبهم السلب والنهب واخذوا كتب العلم التي كانت في خزائنها والقوها في نهر الدجلة فعبرت عليها جنودهم واذا اضفنا هذه النفائس الى ما احرقه اهالي اسبانيا وتصورنا مقدار ذلك ونسبنا ما بقي الى ما اتلف فان هذه الملايين قد خطت بالقلم قبل احداث المطابع وانصفنا العرب حكمنا بانهم لم تسبقهم أمة اعتنت بالعلم اعتنائهم واهتمت به اهتمامهم وكان اهل اوربا قد قصدوا في القرون الوسطى مدارس الاندلسيين التي كانت على غاية الاتقان فقرأوا فيها العلوم ونقلوها الى بلادهم وفي سنة ٨٧٣ للمسيح امرهرتموت رئيس دير ماري غالن جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لامزيد عليه واشهر من تعلمها البابا سلفستر الثاني واصله من الافرنسيين يدعى جربرت ساح في اوربا لطلب المعارف حتى دبت قدمه في الاندلس فرتع في مدارس اشبيلية وقرطبة وصرف رغبته الى العلوم وبعد ان تعلمها عاد الى وطنه وما زال يسمو بسبب تلك العلوم على انداده حتى جعلوه في منصب البابا فشاد للعلم مدرستين الاولى في ايطاليا والاخرى في ريمز وادخل الى اوربا معارف العرب والارقام الهندية التي نقلها عنهم ثم ثارت الحمية في اهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكلترا فطلبوا الاندلس من كل فج وتعلموا العلوم من اهلها

قال موتيكلا في كلامه عن العلوم الرياضية ولم يقم من الافرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة فمن جملة من نقل عنهم المعارف من اهل ايطاليا دوكر يمونا نقل علم الهيئة والطب والفلسفة بطليطلة وترجم عن المجسطي وكتب الرازي والشيخ الرئيس الى اللاتينية وليوندار البيزي نقل عنهم الحساب والجبر ونقل عنهم ارنولد الفيلانوفي الهيئة والطبيعيات والطب وممن نقل عنهم من الانكليز

راهب اسمه بلارد وآخر اسمه مورس وآخر اسمه اسكوت

وكذلك روجر باكون الشهير فان ما حصله من المعارف في الكيميا والفلسفة والرياضيات انما استخلصه من كتبهم وقد اقتبس من اقوال الحسن في البصريات فانه اخذ كثيرا من الحسن ولما عرف ملوك الافرنج قيمة معارف العرب امروا بترجمة كتبهم ومنهم نقل شرلمان فردريك الثاني والفونس الثاني القسطلي والخلاصة ان الافرنج نقلوا عن العرب مما نقله العرب عن غيرهم او استنبطوه بأنفسهم الفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والبصريات والكيميا والطب والصيدلة والجغرافية والزراعة والفراسة واخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الادوية ونسج كثير من المنسوجات وادخلوا منهم الى بلادهم دود القز وكثيرا من الحبوب والاشجار كالأرز وقصب السكر والزعفران والقطن والسبانخ والرمان والتين ونقلوا عنهم دبغ الاديم وتجفيفه وقد استتر الانكليز هذه المسألة بعد فقدها من العرب بعد جلائهم من الاندلس وما زالوا يسمون الجلود المدبوغة بهـا (موركو وكوردوفان) نسبة الى مراكش وقرطبة

ولا تزال الالفاظ العربية مستعملة في اكثر مباحث الافرنج الطبيعية كالسمت والتطير والسموت والمقنطرات واسماء النجوم والكحول والجبر والقطن والشراب والكيميا وغيرها ولولا لغة العرب لبقيت لغة اهل اسبانيا قاصرة كما كانت فاسماء اوزانهم واقيستهم اكثرها عربي محرف كالقنطار والربع والشبر وكذلك اسماء قطع الماء ونحوها كالبحيرة والبركه والجب والكهف وغيرها كثير وقد قال احد كبار الكتاب

ان المدنيين للعرب كثيرون وان قال غيرنا غير ذلك فالعرب هم الحلقة التي وصلت مدنية اوربا قديما بمدنيتها حديثاً وبنجاحهم وسمو همتهم تحرك اهل اوربا الى احراز المعارف واستفاقوا من نومهم العميق في الاعصار المظلمة ونحن لهـم مدينون ايضاً بترقية العلوم الطبيعية والفنون الصادقة النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت اوربا كثيرا علما ومدنية

فهذه هي مدنية العرب أخذوا عن اوربا واخذت عنهم ولم يتصد احد للطعن

في دينهم سوى عباد الملوك المستبدين فان انصار عبد العزيز كانوا ينعونه على الاصلاحات قائلين ان الدين الاسلامي التشبه بالافرنج فكيف يكون ذلك وهل خرج العرب عن دين ابائهم أو اصابهم ما اصاب الدولة في عصر انقراضها

فعل العرب ذلك مع قربهم من عصر الخلفاء وكان ملوكهم يعضدون العلوم والفنون فهل كان العلماء في زمن الرشيد والمأمون اقل حظا من علمائنا عباد الملوك باعة الذمم الذين لايفرقون بين الجمرة والتمرة

الامم والدساتير

لمترجم الكتاب

رأيت قياما بالواجب اختتام هذا الكتاب بنبذة صغيرة عملا بقوله تعالى (وذكر ان نفعت الذكرى) فقد مات مدحت باشا وغيره من صناديد الاصلاح واعلن بعد قتله الدستور في البلاد العثمانية ولو اتاح الله له البقاء الى يومنا لرأى بعيني رأسه ما اصاب الوطن من الكوارث بسبب الانقسامات الداخلية لان كل ابن انثى يريد ان يكون واليا او مبعوثا او ناظرا في احدى النظارات وقد اختلط الحابل بالنابل لان الامة ورجال العصر الذين كسروا قيود الاستبداد ظنوا لاول وهلة ان الدستور يوصل الامة الى اعلى درجات الرقي اذا ركب رجال الحكومة السيارات وتكلموا باللغات الاجنبية واكثروا من الولائم واثقلوا كاهل الامة بالقروض وخيل لهم ان اوربا قد وصلت الى حالتها التي نراها بمثل هذه المظاهر الفارغة

وفي اعمال مدحت باشا عبرة لذوي الالباب تظهر لمن اطلع على آثاره في الولايات التي انيط به امر ادارتها فقد كان يشتغل باحياء الزراعة و ينشيء الطرقات ويحفر الجداول والانهر ليجعلها صالحة للملاحة ولا يصرف قرشا واحدا الا لاحياء ثروة البلاد واستخراج كنوزها واسعاد الاهالي لان بثروتهم ثروة الحكومة التي تستقي ثروتها من منابع خيراتهم

وللامم في اطوارها اعمار كاعمار الرجال واذا اعلن الدستور في بلاد ونال اهلها حريتهم واجتمع مجلس نوابها وفاجأ نظار الحكومة نواب الامة بمذكرة من

احد دهاة ساسة اوربا عجز النواب عن الجواب على المذكرة كيف لا وهم لم يعتادوا الحكم الدستوري واكثرهم من الزراع الذين لم يفارقوا مزارعهم والمشايخ الذين لم يفارقوا ابواب المساجد واذا سألت احدهم عن احدى المسائل المختصة بحقوق الدول عجز عن الجواب عليها والطفرة من المستحيلات في كل عمل فالتلميذ الذي يسلمه والده الى المؤدب يقف حائرا مبهوتا اذا شرح له استاذه من اول يوم احدى مسائل ابن سينا او نظرية من علم الكلام ولا فرق بينه و بين النائب الذي تنتخبه طائفة من سكان القرى ليقوم للدفاع عن حقوقها في مجلس نواب حكومة حديثة عهد بالدستور كحكومتنا العثمانية

لافرق بين تلميذ يترك معرفة الحروف ا ب ت ث ج ويبدأ عمله الدراسي بتعلم التفسير والحديث والفلسفة و بين نائب يترك طلب اصلاح اراضي البلاد الزراعية من حكومته و يشتغل بالسياسة الداخلية والخارجية وانشاء الجامعات وسن القوانين وعقد القروض و بلاده خالية من المزارع وابن بلده يشكو الجوع ولا يجد كسرة من الخبز يسد بها رمقه

ملأ نا البلاد بالصياح والتصفيق فلم يسمع احد من افواهنا سوى الفاظ لتحي الحرية ليحي الدستور لتحي المساواة وكان النائب من نوابنا يتوجه الى عواصم الغرب للسياحة فيركب البخار في البر والبحر ويرى عواصم اوربا ملتصقة يخالها السائح مملكة واحدة لا كمملكتنا العثمانية الواسعة الأرجاء واذا عاد الى بلاده رأى طرقا مهملة وجسورا مهدومة وارضا متروكة يسرح فيها البوم واذا خلا الى اقرانه النواب اكثر من السباب والشتائم وامطرهم اللعنات وظن ان غاية ما يصل اليه الانسان من الحضارة يتم بالكماليات والمظاهر الكاذبة

لو قرأ نوابنا تاريخ مدحت باشا ابي الدستور ورأوا ما كان يجريه من الاصلاحات وشاهدوا آثاره في بغداد وسوريا وغيرها وعلموا انه قد فعل كل ذلك بلا مذاكرة و بغير احضار لائحة اصلاحية بل ابتدأ اعماله وأتمها من تلقاء نفسه لكفونا مؤونة اللوائح الاصلاحية التي نسمع بها كل يوم في قاعة مجلس النواب ولا

نرى لها اثرا حتى سئمت انفسنا سماع اسم الاصلاح وتوهم اكثرنا ان ما تدعوه اوربا بهذا الاسم لايهتم الا اذا تضارب اعضاء البرلمانات وتشاتموا وخربت البلاد وهاجر الاهلون واغلقت الجرائد واعيدت الانتخابات واعلنت الحروب وشقي العباد وضاع الوطن وقتل الابرياء وانتصر الاعداء

لم يعش مدحت باشا ولكن آثاره باقية لليوم ومذكراته التي بين يديك ايها القارىء تثبت لك انه لم يقرأ في احدى جامعات اوربا بل تخرج على بعض المشايخ المعممين وفاق اكبر ساسة اوربا وترك آثارا اذا رآها اسلافه اليوم وبحثوا عن امثاله فلا يذكرون الا اللورد كرومر وغمبتا و بسمارك وغيره من الذين احيوا بلادهم بالفعل لا بالمقالات والخطب والشتائم والمنازعات

اذا ما تزيد المسلم او عمرو المسيحي وترك ولدا وحيدا واموالا و بيوتا ومزارع ثم قام محمد او توما وتولى امور الطفل فأضاع ثروته و بدد امواله وخرب مزارعه وتسبب في هدم بيوته بسوء ادارته فما الذي يفعله الطفل بعد بلوغه انه لا يكتفي بعزل الوصي بل يناقشه الحساب ويقاضيه ويصدر ضده احكاما بالسجن والتغريم وربما قتله ايضا اذا ثار ثائر غضبه

الامة كالطفل والنواب كالوصي و بلاد الدولة وولاياتها ومزارعها كاموال والد الطفل و بيوته ومزارعه وقوانين العمران تحدو بالامم الى التقدم والرقي رغم كل حكومة فاذا ثاب الشعب الى رشده فما الذي يقوله نوابنا وزعماؤنا اذا بقينا على تلك الحالة

ليضع النواب انفسهم مكان الامة وليفرضوا ان بعض افراد الامة يبذرون اموالهم ويتركون مرافقهم بين اليأس والرجاء ويضيعون حاضرهم ومستقبلهم بالمناقشات والمناظرات فما الذي يفعله اذ ذاك نوابنا انهم يقومون بلا شك قومة رجل واحد لكسر تلك الاغلال والتخلص من ظلم هؤلاء الاوصياء للاحتفاظ باموالهم واستبقاء ميراث اجدادهم

لو مات احمد المسلم او جبرائيل المسيحي وترك ولدا واموالا وضيعا وانفق

الولد كل ثروة والده في ملذاته فان الناس يلومونه لسوء تدبيره ولا يجازونه وهذا الولد هو كالملك الذي يفتح اجداده البلاد الواسعة ويخضعون الممالك ثم يهدم ما بنوه ويفقد ما فتحوه فيسلم الملك للاعداء ويحمل الناس ذلك على سوء تدبيره وما مثله الا كمثل الرجل الذي يفقد ما تركه اسلافه من الاموال فيكون معذورا اما لنقص في عقله او لسوء تدبير ساقه اليه تقصير المؤدبين او اوقعه فيه عدم التجارب أما الجماعات فلا يعذرون اذا اتفقوا على ضياع املاك الأمة ورموا بها من حالق بين احضان الكوارث والشعب يغفر للجاهل زلته ولا يعفو عن خطاء الجماعات

وصل العدو الى ابواب الاستانة فقلنا خدعنا وخدعتنا اوربا والحرب خدعة ولم زلة الذي ترك العساكر يموتون جوعا وقد امتلأت مستودعات الاستانة بالمؤن وربطتها الخطوط الحديدية بمواقع الحرب ولانسينا سوء الادارة في النظارات والولايات مذ اعلن الدستور لان الناظر في نظارته والوالي في ولايته لايقيم اكثر من شهرين او ثلاثة اشهر واذا جاء خلفه بدل وغير في شكل الادارة والموظفين وهي مصيبة يقابلها الوطنيون بالصبر والثبات بيد انهم سيسألون يوما عن اسباب هذه التغييرات ويحاسبون النظار والمسببين على اعمالهم لان الوطن ليس بألعوبة في يد جماعة من عشاق الوظائف وعباد الدراهم والحكومة هي عبارة عن جماعة ينتخبهم الشعب فان اساءوا التدبير ناقشهم الحساب وعاقبهم وان احسنوا فلأنفسهم واذا نام الشعب نومة وتلاعبت بمصالحه ايدي ذوي الاغراض كان التلاعب سببا لاستيقاظه فهب هبة الاسد وهدم صروح الاستبداد

لنفرض ان الحكومة تعزل الناظر او الوالي لانه لايقدر على القيام باعمال وظيفته فهل لم تهتد الحكومة من يوم اعلان الدستور الى وال او ناظر يحسن القيام بأمور وظيفته لتثبته ونظهر للملا انها تبحث عن الصالح وتبعد الطالح وان غرضها الاصلاح لا عزل زيد لاقامة عمر مقامه وجعل الوظائف ابواب ربح تتناوبها طائفة من المقربين ويبعد عنها جماعة العلماء وارباب الاقلام واحرار رجال الامة وينتحر الوطن بسبب سوء الادارة

لكل ولاية اليوم خمسة ولاة يتقاضون مرتباتهم من اموال الامة العثمانية التعسة منهم اربعة معزولون يقبضون مرتبات معزولية وواحد يؤدي وظيفته الى ان ينتهي دوره في العمل فيخلفه صاحب القرعة وقس على الولاة القائمقامين والمتصرفين فهل يصبر الوطن على هذه الاعمال

امتلأت خانات الاستانة وفنادقها بالموظفين والناظر الى كل وظائف الدولة من اليمن الى ازمير يرى هيئة الحكومة تتبدل في القرية الواحدة فى كل عام مرة او مرتين حتى قال عنا الافرنج اننا ضيوف في عاصمتنا ضيوف في ولاياتنا ضيوف في القرى الصغيرة تنطبق اعمال حكومتنا اليومية على حركات قبيلة يسكن افرادها بيوت الشعر وهذا حالنا من يوم فتحنا هذه البلاد واسسنا الملك الى هذه الساعة

ترسل حكومة انكلترا واليا الى الهند فيقضي السنين في اصلاح البلاد واراحة الأهلين وترسل المصلح الى القطر المصري الذي احتلته فيقيم به ربع قرن أما نحن فوالينا يذهب الى البصرة لذرع الطريق ويعود ويذهب غيره ثم يعود وسيبقى هذا شأننا الى ان يقضي الله امرا كان مفعولا

ثارت الافكار وقام سكان الولايات يطلبون من المركز منحهم استقلالا اداريا قائلين انه عاجز عن ادارة امور هذه البلاد الواسعة وقد اثبت عجزه بما فعله من يوم اعلان الدستور لانه يرسل الى كل ولاية خمس ولاة في السنة فكل ولاته عاجزون عن ادارة البلاد ولولا ذلك لأ بقى ولو واحدا منهم سنة او سنتين وهو رأي يجب على حكومة المركز ان تنظر اليه بعين المعتبر وتجيبهم عليه بجواب مسكت لا بالسيف والنار فقد مضى زمنها ولم يبق لها اثر بين الحكومات والمحكومين على وجه الكرة الارضية فاصبحت الحرب تعلن بين حكومتين لا بين الحكومة وشعبها وكيف يحارب الشعب ابناءه ويقتل الجندي أباه وأخاه وعمه وابن عمه ويبقى الحكومة وجيشها في جانب والشعب في جانب اني لم اسمع بمثل ذلك في البلاد الدستورية ولا في الحكومات البربرية لان الجندي هو ابن الامة ومثله ناظر الحربية بل وكل ناظر وهذا الامر هو الذي ساق الشعوب الى الاستانة في الدفاع

عن الوطن وخلع طاعة الغريب الذي لا يشفق على غير ابناء جلدته واذا حاربت الحكومة الشعب كانت كمن يقطع رجل نفسه لان اموالها ورجالها وحكامها ليسوا باجانب عن جسم الامة فاذا طحن الاستبداد هذا الشعب وانقرض مات عظماؤه جوعا واحتاج ملوكه الى الخبز والامة قادرة على ايجاد الملوك والحكام ولكن الملوك ليسوا بآلهة فيستبدلوا الشعوب بغيرهم

الشعوب في الحكومات الشورية تختار الحكومات وتولي أمورها المصلحين وتبعد المفسدين وليست الحكمة في الضرب على يد المركز وسلخ الولايات عنه بل الرأي عندي وعند العقلاء حمل المركز بقوة الشعب على اصلاح شؤون البلاد واعمارها واتباع خطة غير خطة التغيير والتبديل واصلاح الزراعة اولا والمعارف والتجارة ثانيا فقد اصبحت الحكومة العثمانية محرومة من المعارف ومن كل شيء بسبب تبديل الموظفين وكثرة القرارات والقوانين التي تطرح في زوايا الاهمال وتضيع الذين يكتبونها لتهمل ثم يجعلها اخلافهم طعمة للنيران واذا قضينا المئات من السنين بين وزارة تضع القوانين ووزارة تحرقها كفانا الاحراق والكتابة مؤونة الاصلاح وصرنا طعمة للآكلين بسبب جهل الامة التي ترسل الى مجلس نوابها جماعة من المستبدين فيسعون في توظيف اقاربهم ويطمح نظر الواحد منهم الى احدى النظارات واذا نالها اشتغل بترويج مقاصد الفرقة التي ينتسب اليها وترك الامة وشأنها

يأخذ الناظر المستعفي او المعزول من مال الامة العثمانية (٥٠) ليرة في كل شهر وكل نظارة يتركها في السنة اربعة نظار فاذا بلغ مجموع النظار المعزولين في بلادنا عشرين الفا ومثلهم من الولاة والمتصرفين والقائمقامين واضفنا الى هذا العدد اصهار البيت المالك الذين يقبضون مرتبات من مالية الامة اذا بلغ عدد هذا الجيش الى الدرجة القصوى باستمرار الحكومة على خطتها المالية عشرة سنين استغنينا عن الجنود والضباط والفيالق واكتفينا بمعزولي النظار فاشتغل فلاح الامة وتاجرها وصانعها وحقيرها لاطعام هذا الجيش الذي لا اظن ان ميزانية الحكومة

تساعدنا على صرف مرتباته فنحتاج اذ ذاك لعقد القروض واوربا لاتمتنع عن اقراضنا لاسيما اذا كثر عندنا عدد اصهار البيت المالك فهي تقرضنا الملايين بواسطتهم اكثر الله من امثالهم رحمة بهذه الامة التعسة المحتاجة كثرة عددهم للتدرع بهم عند مصائب الدهر وغارات الاعداء

اكتب هذه الاسطر مدفوعا بعامل حب الوطن عالما ان مصيرنا الى الدمار اذا بقينا على تلك الخطة ولعل فيما مر عبرة لقوم يعقلون

على اني قد عاهدت الله تعالى وعقدت النية على تسطير كتاب في هذا الموضوع الحيوي بعد اتمام ترجمة كتاب محاكمة مدحت باشا اسأله تعالى التوفيق الى السداد بلطفه وكرمه

خاتمة

الحمد لله على سرائه وضرائه والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى جميع رسله واصفيائه وبعد فيقول الراجي عفو ربه يوسف كمال حتاته المصري مولدا الاستاني منشأ قد فرغت من ترجمة هذا الكتاب في العاشر من شهر رجب الفرد سنة ١٣٣١ هجريه الموافق ١٤ يونيه سنة ١٩١٣ ميلادية في الاستانة العلية وقد تنازلت عن طبعه واعادة نشره لحضرة خادم الادب امين افندي هنديه وقد اتبعته بترجمة كتاب محاكمة مدحت باشا اسأله التوفيق الى اقوم طريق

فهرست

مذكرات مدحت باشا

صحيفة

صحيفة

